سبيل الحكمة

في الوعظ والخطابة

لفضيلة الأستاذ الكبير والمرشد الحكيم

الشيخ علي محفوظ

من أكابر علماء الأزهر ومدرس بقسم الوعظ والارشاد

مطبعة النهضة بشارع عبد العزيز بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى وفق السعداء للتحلى بمحاسن الشمائل . واختارهم أمناء لأحياء الفضائل وأماتة الرذائل. والصلاة والسلام على سيدنا محمد أمام المرشدين وصفوة الأنبياء والمرسلين وخلاصة الله من خلقه أجمعين . والمبعوث رحمة للعالمين . الذى خصه الله بالشريعة الغراء . والملة الحنيفية السمحة . وأنزل عليه فى محكم كتابه « أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » فبلغ صلى الله عليه وسلم الرسالة .وأدى الأمانة . وعلى آله السادة الأكرمين وأصحابه الغر الميامين . ومن تبعهم بأحسان الى يوم الدين من الأئمة المجتهدين . والعلماء العاملين (أما بعد) فهذا مختصر لطيف فى فن الوعظ

والارشاد والخطابة طبق مناهج التعليم فى قسم الوعظ
والارشاد بالجامع الأزهر الشريف . جمعت فيه نتائج أفكار
المتقدمين . ولطائف آراء الخطباء والمرشدين . فى مهمة
الوعظ والخطابة . ليكون نبراسا يهتدى به من يتصدى
لهذه الغاية الشريفة . وطريقا قويما يسير عليه لنفع المسلمين
وجعلته مشتملا على بابين وخاتمة . والله تعالى أسأل أن
يوفقنى للصواب . ويلهمنى فيه الرشد والاخلاص إنه على
كل شىء قدير . وسميع مجيب . وهو حسبى ونعم الوكيل .

الباب الاول

فى الوعظ ـ وفيه عدة فصول

الفصل الاول ـ فى مبادىء الوعظ والارشاد

الوعظ والموعظة والعظة كما فى القاموس تذكير الشخص مايلين قلبه من الثواب والعقاب. يقال وعظته فاتعظ اذا أثرت فيه الموعظة وأفادت . والارشاد والرُّشْدُ بضم فسكون والرشد بفتحات. الهداية والاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه . يقال استرشد الشخص اذا طلب الرشد أو اهتدى ـ ويطلق الوعظ والارشاد فى العرف على الخطابة الدينية سواء كانت تعليمية لبيان المسائل الشرعية اعتقادية أو عملية أو أخلاقية . أو تأديبية لايقاظ الناس من غفلتهم بالنصح والتذكير بالعواقب

وموضوعه ـ أصلاح النفوس البشرية التى اذا صلحت صلح الجسد كله . وغايته صلاح المعاش والمعاد والفوز بسعادة الدارين . وفضله عظيم فانه متعلق بطب الارواح. وتهذيب

النفوس لتصل الى السعادة . قال بعض الحكماء ـ الموعظة موقظة للقلوب من سنة الغفلة . ومنقذة للبصائر من سكرة الحيرة . ومحيية لها من موت الجهالة ومستخرجة لها من ضيق الضلالة .

وحكمه ـ الوجوب الكفائي عند التعدد . والعيني على من انفرد به فان حاجة الناس اليه شديدة . وذلك لانه لما كان الانسان موضعا للسهو والنسيان . ومحلا للذهول والغفلة وجب أن يكون له مذكر دائم . وواعظ مستمر يهديه الى قصد السبيل وجادة المحجة كلما جارت به الخيالات الفاسدة . والوساوس الرديئة . ولتحصيل ذلك ورد الامر به كتابا وسنة قال تعالى « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » وعن حذيفة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أوليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم » رواه الترمذي وقال حديث حسن . الى غير ذلك من الآيات والأخبار .

ويمتاز فن الوعظ والأرشاد عن بقية فنون الخطابة بأمور منها أولا أنه وظيفة الانبياء والمرسلين . ومن على سنهم من العلماء العاملين والعظاء المجاهدين . والهداة الراشدين — فأنهم أنما بعثوا لهداية العالم . وسن طريقة السعادة للناس فى الدارين بتعليمهم عند الجهالة وأيقاظهم وقت الغفلة . وأيقافهم عند حدود الأدب عند التمرد اينهضوا بهم من حضيض الجهل والرذيلة الى ذروة العلم والفضيلة ثانيا - من حيث موضوعه الذى هو أشرف الأمور وأخطرها أعنى الأمور الروحية - ثالثا - من حيث الفائدة أى سعادة الحياة بالتحلى بالفضيلة . والتخلى عن الرذيلة ثم الفوز بالسعادة الأبدية. وفوائده - معلوم ان الامراض والعلل تعرض للأجسام فتذهب بجمالها . وكثيرا ماتودى بحياتها اذا لم تسعف بالعلاج الناجع قبل استفحالها واشتداد خطرها . والقلوب كالأجسام يعرض لها من الأمراض والعلل ما يطفىء نورها.وقد يفقدها حياتها. وذلك بورودها موارد الغى والضلال . وانهما كها فى الشهوات واللذات والتهاون بالأوامر والنواهى.وعدم المبالات بأنواع الفسوق

والفجور وسيئات البدع . ونبذ الآداب الدينية . والأخلاق المحمدية . وارتكاب كل ما لا يرضاه الشرع والعقل من الشرور والقبائح — فهذه لا شك أمراض النفوس وعللها . ولا علاج لها إلا مراهم الشريعة الغراء المركبة تركيبا علميا كيماويا دقيقا من أجزاء الخطب والمواعظ . والإرشادات والنصائح فبهذه المواعظ والنصائح دون سواها تصح النفوس . وتسلم القلوب من المخاطر . وترجع عن غيها الى رشادها . وتعدل عن الطريق العوجاء الى الصراط السوى . وبالوعظ والارشاد تهذب النفوس . وتتنبه العقول من غفلتها . وتستيقظ من رقدتها . وتستنير بنور الطاعة بعد أن أظلمتها المعاصى . وعلى الجملة فالوعظ والارشاد هو الدواء الوحيد لصلاح للعالم والعلاج الوحيد لشفاء القلوب من أمراضها . ولا سلامة العالم من مخاطر الشقاء إلا به — ولا ريب أنه متى ترك علاج القلوب من هذه الامراض استفحل أمرها . ومتى أهمل تطهير النفوس من أدران النقائص والرذائل . انتشر الفساد . وهلك العباد وعم الشقاء . وزاد البلاء . وساء حال المجتمع الانسانى — لهذا جاء الدين الحنيف بالحث على الامر

بالمعروف والنهي عن المنكر . وتشديد النكير على من أهملها
ومضار أغفالها تكاد تلمس باليد . والبرهان الحسي قائم على
أن الامة التي انتشر فيها الوعاظ والخطباء تحيا بمقدار كثرتهم
وتأثيرهم . وأن المعنى الذي يتناولونه في نصحهم وأرشادهم
يكون أكثر انتشارا . وأشد رسوخا في نفوس تلك الامة .
وأن الامة اذا فرطت أو أفرطت في شيء يستعان دائما على
اعتدالها بوعاظها وخطبائها — فالواعظ الماهر . والخطيب
الحكيم يستطيع بما وهبه الله من نور الحكمة . وقاطع
الحجة . وساطع البرهان . وقوة البيان . ومتانة علمه بتأليف
وتركيب الادوية النافعة أن يصحح القلوب من أمراضها .
ويهذب النفوس من أدران النقائص والرذائل حتى ترجع
عن غيها وتعود الى حد الاعتدال . وتتحلى بالفضائل والكمال



الفصل الثاني — في آداب الواعظ والمرشد

قد عرفت أن الدعوة الى الله تعالى مهمة الانبياء
والمرسلين . والسادة العلماء نواب عن الانبياء في هذه المهمة

فهم أمناء الله على شرعه. والقائمون على حدود الله. والحافظون لدينه القويم. والعارفون بما يجب له تعالى من كمال وتنزيه. فكانوا لذلك أئمة الناس وقادة الخلق يسيرون بهم نحو السعادة بما يرشدونهم اليه من التحلي بالفضيلة والتخلي عن الرذيلة اعتقد الناس فيهم ذلك. وأماوهم له فأحلوهم من أنفسهم محلا لم يبلغه سواهم من البشر حتى اكتسبوا في قلوبهم مكانة يغبطون عليها. وربحوا منزلة تصبو اليها نفوس ذوي الهمة والفضل. وناهيك بقوم اذا فعلوا لحظتهم العيون. واذا قالوا أصغت لهم الآذان ووعت القلوب. فهم مطمح الانظار. ومحل الثقة. والبرهان القاطع والنور الساطع للناس أجمعين (ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال انني من المسلمين) حقا ليس أحد أعظم شأنا وأسعد حالا ممن جمع بين هذه الفضائل الثلاث فكان موحداً لمولاه عارفا بربه معتقدا لدين الاسلام عاملا بالخير داعيا اليه — وماهم الا طبقة العلماء العاملين الدعاة الى الله تعالى من ذوي القلوب الحية والايمان الصادق. والاخلاص الصحيح ولا ريب أن الله عز وجل ربط سعادة الانسان

فى الدنيا والآخرة بالوقوف عند حدوده وامتثال الاوامر واجتناب النواهى . وأنه على مقدار وقوف العبد عند حد الأدب يكون حظه من تلك السعادة ــ وغنى عن البيان أن الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وظيفة العلماء . ومنهم وحدهم يتعلمها سائر الناس . فاذن سعادة الامة فى قبضة السادة العلماء . ومن هذا كانت وظيفتهم خطيرة . ومسئوليتهم عظيمة ــ وتزداد وظيفتهم خطورة . ومسئوليتهم عظما اذا هم تصدروا للوعظ والارشاد ــ لهذا وجب أن تتوفر فى المرشد الدينى الصفات الآتية .

الصفة الاولى ــ العلم بالحقائق الدينية مع الصدق فى نشرها فأن مرتبة التبليغ عن الله تعالى لم تكن الا لمن اتصف بالصدق مع العلم . والمرشد وارث لهذه الصفة . فأما الجاهل الكذاب فهو ضال مضل وضره أقرب من نفعه اذ الجاهل لاتمييز له بين الحق والباطل ولا معرفة ترشده الى اصلاح القلوب وتهذيب النفوس . ومن سلك طريقا بغير دليل ضل . أو تمسك بغير أصل زل وأما الكاذب فلعنة الله عليه .

الصفة الثانية ـ العمل بما يقول فلا يكذب فعله قوله .
بل لا يأمر بالشيء مالم يكن هو أول عامل به ـ فأما اذا
كان يأمر بالخير ولا يفعله . وينهى عن الشر وهو واقع فيه
فهو بحاله هذا عقبة فى طريق الاصلاح وهيهات هيهات أن
ينتفع به . قال مالك بن دينار أن العالم اذا لم يعمل بعلمه زلت
موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا وكان موضع
حيرة البسطاء . ومحل سخرية فى نظر العقلاء وكل من
تناول شيئا وقال للناس لا تتناولوه فأنه سم مهلك سخر
الناس به . واتهموه وزاد حرصهم على مانهوا عنه فيقولون
لولا أنه أطيب الاشياء وألذها لما كان يستأثر به . كذلك
الواعظ اذا أمر بما لا يعمله ـ ولذلك كان بعض الوعاظ
لا يذكر لهم فى فضائل العتق حتى أمكنه الله من شراء
رقيق فأعتقه فذكر لهم فضل من أعتق لله تعالى حتى
يكون له تأثير على قلوبهم . ومن لم يكابد الليل وسهره
وقيامه . فكيف يسمع منه فضل من أقامه وأحياه .
وأيضا فالواعظ من الموعوظ يجرى مجرى الطابع من
المطبوع فكما أنه محال أن ينطبع نحو الطين على الطابع

بما ليس منتقشا به كذلك محال أن يحصل فى نفس الموعوظ
ماليس بموجود من الواعظ . فأذا لم يكن الواعظ ألا ذا قول
مجرد من الفعل لم يتلق عنه الموعوظ ألا القول دون الفعل
وأيضا فمثل المرشد من المسترشدين مثل العود من الظل . فكما
أنه محال أن يعوج العود ويستقيم الظل كذلك محال أن
يعوج المرشد ويستقيم المسترشدون . قال حجة الاسلام
الغزالى أما الوعظ فلست أرى نفسى أهلا له لان الوعظ
زكاة نصابه الاتعاظ فمن لا نصاب له كيف يخرج الزكاة .
وفاقد النور كيف يستنير به غيره ومتى يستقيم الظل والعود
أعوج ولذا قيل فى المعنى

لاتنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك أذا فعلت عظيم

وقال تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم
وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) وقال تعالى (يأيها الذين
آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا
مالا تفعلون) ولذلك كان وزر العالم فى معاصيه أكبر من
وزر الجاهل . قال أبو الدرداء رضى الله عنه . ويل للجاهل
مرة وويل للعالم سبع مرات اذ يزل بزلته عالم كثير ويقتدون

به ولذا قيل . زلة العالم زلة العالم . ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئا ولذلك قال الامام على رضى الله عنه قصم ظهرى رجلان عالم متهتك وجاهل متنسك فالجاهل يغر الناس بتنسكه والعالم يغرهم بتهتكه ومن هنا كان عقاب الوعاظ الذين تخالف أفعالهم افوالهم أن تقرض السنتهم وشفاهم بمقاريض من نار كلما قرضت عادت كما كانت نسأل الله تعالى السلامة

الصفة الثالثة . الحلم فلو كان غليظ الطبع انصرفت الناس من حوله وحرموا الانتفاع بعلمه . وذلك هو الشقاء وهو سببه وعلته

الصفة الرابعة . الشجاعة حتى لا تأخذه فى الله لومة لائم - فعن ابى ذر الغفارى رضى الله عنه أوصانى خليلى بخصال من الخير . أوصانى الا أخاف فى الله لومة لائم . وأن أقول الحق ولو كان مرا . فان كان جبانا ضعيف القلب عجز عن الاخذ بناصر الحق وتغيير المنكر وتقرب الى الناس بأنواع المداهنة وتودداليهم بضروب الملق وما هكذا تكون

الاطباء ولا اللائق بقادة الامم ـ الطبيب الماهر هو الذى اذا عرف نوع المرض في أى شخص كان بادر الى علاجه بما يستأصله حرصا على سلامة المريض وهو لا يبالى بكراهة المريض للدواء وتألمه من العلاج فأما اذا عمل لذلك حسابا وتساهل مع المريض حتى استفحل أمر المرض واستعصى على الدواء فأودى بحياة المريض فأنه غاش لا ناصح وسفيه لا حكيم

الصفة الخامسة . العفة واليأس مما فى أيدى الناس فأنه ان كان غير عفيف تطلع الى ما فى أيديهم وهان عليه ما يلاقيه من أنواع الذلة والاهانة فى سبيل الحصول على الحطام الفانى لهوانه عندهم . وثقله على نفوسهم . وهذا بلا شك هو السقوط الذى لا خلاص منه والفقر الذى لا غنى معه وقد ورد أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصنى قال (عليك باليأس مما فى أيدى الناس . واياك والطمع فأنه فقر حاضر)

الصفة السادسة ـ القناعة فى الدنيا والرضا منها باليسير فأن كان حريصا على الدنيا منهمكا فى طلبها كان حاله هذا داعيه

الترغيب فى حبها وحبها رأس كل خطيئة. وبذلك يكون مفسدا لا مصلحا وضارا لا نافعا والعيان أصدق شاهد على ذلك . فانه على قدر زهادة العلماء فى الدنيا تكون مكانتهم فى نفوس الامة والتفافهم حولهم والاستماع لنصائحهم والانقياد لارشادهم وعلى قدر تعلق العلماء بالدنيا تكون زهادة الناس فيهم وعدم الثقة بهم واتهامهم والنفرة منهم فلا يسمعون لهم قولا ولا يقبلون منهم نصيحة

الصفة السابعة . قوة البيان وفصاحة اللسان . والا كان النفع به بعيدا بل كان مثال الخزى والعار على الارشاد وأهله وقد سأل الله موسى عليه السلام حين بعثه الى فرعون بأبلاغ رسالته الابانة عن حجته والافصاح عن أدلته فقال حين ذكر العقدة التى كانت فى لسانه والحبسة التى كانت فى بيانه (واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى) وقال (وأخى هرون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا يصدقنى) وقال (ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل الى هرون) رغبة منه فى غاية الافصاح بالحجة والمبالغة فى وضوح الدلالة لتكون الاعناق اليه أميل والعقول عنه أفهم

والنفوس اليه أسرع . وعلى الجملة فقوة البيان وفصاحة اللسان من جلائل نعم الله تعالى على المرشد . بهما يملك القلوب ويؤثر على الارواح

الصفة الثامنة . معرفة أحوال الناس فأنه اذا كان يجهل احوالهم أخطأ كثيرا فى علاج الارواح وكان كطبيب يداوى جميع الامراض بدواء واحد . وخطرُ ذلك على الأبدان جسيم فكذا على القلوب

الصفة التاسعة . التقوى والأمانة والتحرز لطاعة الله تعالى عن مساخطه — فانها صفة المورث الذى هو خلف عنه ولا يصح أن يكون فاسقا فى دينه فأنه بمنزلة كبيرة ورتبة خطيرة فمن لم يكن له تقوى تحجزه عن ارتكاب المآثم وأمانة تزعه عن اقتحام المحارم كان الضرر به أكثر من الانتفاع — وأيضاً فأنه لا يقبل قول الفاسق فتتلاشى على يديه وظيفة الارشاد — وناهيك بأنها ولاية شرعية ووظيفة دينية والفاسق لايجوز أن يلى شيئا من أمور المسلمين . ومثله لايتحامى عن الفتيا بغير علم

الصفة العاشرة . كبر الهمة وشرف النفس ليتحقق فيه مقام الوراثة فأنه مصلح داع الى الله تعالى - وكل أنسان يجذبه طبعه وتحمله جبلته أثناء عمله الى مايميل اليه - ومقام الدعوة أحوج شيء الى ذكر التهاويل الرائعة والأشياء المرغبة فكلما كان المرشد أقوى نفسا وأعلا همة كان في ذلك أمضى وعليه أقدر ومهما نقص في ذلك نقص من تأثيره في نفوس السامعين

الصفة الحادية عشرة . البعد عن العقائد الزائغة والاهواء الفاسدة كانكار كرامات الأولياء فان ذلك يشوش عليه كثيرا في سيره وينفر الناس منه - بل عليه عند الحاجة أن يبين للناس ماصح من الكرامات شرعا وجاز عقلا وعلى الجملة يجب على من يتصدى لأصلاح الناس أن يكون حسن الطريقة مرضي السيرة عنوان الفضيلة ومثال الكمال في أقواله وأفعاله وسائر أحواله . والا فهو فتنة في الأرض وفساد كبير (حقا) لو توفرت في الواعظ والمرشد صفات الكمال كان من غير شك وارثا نبويا وكوكبا يستضاء به (حقا) لو تحقق المرشد بهذه الصفات سهل عليه أن يخرج

الناس من ظلمات الجهل الى أنوار العلم . وينقذهم من ذل المعاصى الى عز الطاعة . واستطاع أن يداوى أمراض القلوب ويهذب النفوس بما أوتى من مهارة وحكمة — وأمكنه أن يحول بين الأمة وبين النقائص والرذائل بسور منيع من زواجره ونصائحه وترغيبه وترهيبه (يقينا) لو كان المرشد على ماوصفنا لاستولى على القلوب وتغلب على الأرواح يتصرف فيها كما يشاء . وفى ذلك كفاية . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل

« آدابه المستحبة »

ويحسن بالواعظ والمرشد أن يتحلى بأمور منها الورع باتقاء الشبهات والبعد عن مواضع الريبة . ومسالك التهمة فأن ذلك أبرأ لدينه مما يشينه وأسلم لعرضه من الطعن فيه وهذا أعون على الاقبال عليه والانقياد له لان حال المرشد يؤثر فى القلوب أكثر من كلامه وهكذا كانت طريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحلية السلف الصالح من الصحابة والتابعين والهداة المرشدين ، وألا فلا خير لمشين

فى دينه . ومطعون عليه فى عرضه — فقد رأى صلى الله عليه وسلم تمرة ملقاة فقال لولا أخشى أنها صدقة لأكلتها. وقدم على عمر رضى الله عنه مسك وعنبر من البحرين فقال والله لوددت أنى وجدت امرأة حسنة الوزن تزن لى هذا الطيب حتى أقسمه بين المسلمين فقالت امرأته عاتكة أنا جيدة الوزن فأنا أزن لك قال لا . فقالت لم ؟ قال لأنى أخشى أن تأخذيه فتجعليه هكذا (وأدخل أصابعه فى صدغيه) وتمسحى به فى عنقك فأصيب فضلا من المسلمين — وعن الفضيل ابن عياض أنه كانت له شاة فأكلت شيئا يسيرا من علف بعض الامراء فلم يشرب من لبنها بعد ذلك — وقيل لابراهيم بن أدهم رحمه الله ألا تشرب من ماء زمزم فقال لو كان لى دلو لشربت.. اشارة الى أن الدلو من مال السلطان فهو من المشتبه — وقال ابن المبارك رحمه الله لأن أرد درهما من شبهة خير من أن أتصدق بمائة ألف ومائة ألف ومائة ألف — وفى الاثر من وقف موقف تهمة فلا يأمن من إساءة الظن به ولهذا لما مر المصطفى صلى الله عليه وسلم ومعه امرأته صفية رآه رجلان فأسرعا فقال لهما على رسلكما

أنها صفية بنت حيي خوفا عليهما أن يظنا به شيئا فيهلكا فقالا سبحان الله . وعظم ذلك عليهما . فقال أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم وقد خشيت أن يقذف في قلبكما شرا . ومنه يعلم أنه ينبغي للرجل اذا حدث زوجته أو محرمه على الطريق أن يقول هي زوجتي أو محرمي حتى لا يتهم . وأنه ينبغي الانسان أن يتحرز عن كل مايوهم نسبته الى مالا يليق . وهذا متأكد في حق العلماء . فلا يجوز أن يفعلوا مايوجب سوء الظن بهم وان كان لهم فيه مخلص . لأن ذلك سبب لعدم الانتفاع بعلمهم . قال الامام علي رضي الله عنه - أياك وما يسبق الى العقول أنكاره وأن كان عندك اعتذاره - ومنها السكينه والوقار في كل أحواله حتى في مشيته وكلامه فذلك يكسبه الهيبة والأجلال لدى الناس . وهو أدعى الى الانتفاع به - ومنها محبة الأصلاح والتفاني في خدمة الدين الحنيف بنشر فضائله بين الأمة . ومحاربة البدع والمنكرات حتى ينهض بها الى أوج الفلاح ودرج السعادة فأن ذلك خلق الانبياء والمرسلين . وصفة قادة الأمم المجاهدين المخلصين أما الخمول المتواكل فأنه

تكملة عدد . وعديم المنفعة — ومنها التمسك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . والبعد عن البدع ظاهرا وباطنا . وفى السر والعلانية ليكون على القدم المحمدى . وتسهل عليه الدعوة الى الله تعالى بخلاف التهاون فى أمر السنة أو الميل الى البدعة فأنه يرفع الثقة به ويجلب عليه سخط الناس — كيف وهو ينصر السنة ويحارب البدعة ؟ — ومنها . أن لا يطلب على الارشاد أجرا ، ولا يقصد به جزاء ولا شكوراً من أحد بل يعمل لوجه الله تعالى وطلبا لمرضاته وحسن مثوبته . وللتقرب إليه بهذه الوسيلة العظيمة إقتداء بأمام المرشدين رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، ولا يرى لنفسه منة على من يرشدهم ، وأن كانت المنة لازمة عليهم لزوم الاطواق للاعناق. فأنه السبب الاكبر لهدايتهم الى الحق ـ فلا يطلب الاجر ألا من الله تعالى كما قال عز وجل (وياقوم لا أسألكم عليه مالا أن أجرى ألا على الله)فأن المال ومافى الدنيا خادم البدن . والبدن مطية النفس . والمخدوم العلم أذ به شرف النفس . فمن طلب بالعلم المال كان كمن مسح أسفل مداسه بوجهه لينظفه فجعل المخدوم خادما . والخادم

مخدوما - وذلك هو الانتكاس على أم الرأس - نعم له كفايته من بيت مال المسلمين عند الحاجة شأن كل من حبس نفسه على مصلحة عامة من مصالحهم ، وعلى الجملة ينبغى للمرشد أن يتحلى بالآداب الشرعية والأخلاق الدينية . حتى يكون وارثا نبويا . وعالما ربانيا

« آداب المرشد حال التأدية »

وهى كثيرة من أهمها أن يقتصر بالمسترشدين على قدر فهومهم فلا يلقى إليهم مالا تبلغه عقولهم ولا تسعه مداركهم لصعوبته ودقته فأن ذلك ينفرهم ويكون سببا فى حرمانهم من الاستفادة منه . أو يخلط عليهم عقولهم ويوقعهم فى مكان الحيرة وذلك إفساد لا اصلاح اقتداء فى ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح من بعده . فعن بن عمر مرفوعا . أمرنا معاشر الأنبياء أن نكلم الناس على قدر عقولهم . وفى صحيح مسلم موقوفا على ابن مسعود ما أحد يحدث قوما بحديث لا تبلغه عقولهم ألا كان فتنة على بعضهم وقال الامام على رضى الله عنه وأشار الى صدره

أن ههنا لعلوما جمة لو وجدت لها حملة ؟ وصدق كرم الله وجهه فقلوب الابرار قبور الاسرار — ولذا قيل «كل لكل عبد بمعيار عقله . وزن له بميزان فهمه — حتى تسلم منه وينتفع بك . وألا وقع الانكار لتفاوت المعيار ومن أهمها أيضا — أن يكتفى بذكر الجلى اللائق بهم ولا يذكر أن وراء هذا تدقيقا وهو يدخره عنهم . فأن ذلك يفتر رغبتهم فى الجلى ويشوش عليهم قلوبهم ويوهمهم البخل به عنهم . اذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق فما من أحد الا وهو راض عن الله سبحانه فى كمال عقله وأشدهم حماقة وأضعفهم عقلا هو أفرحهم بكمال عقله — وبهذا يعلم أن من تقيد من العوام بقيد الشرع الشريف بحسب حاله ورسخ فى نفسه اعتقاد العقائد المأثورة عن السلف من غير تشبيه ولا تأويل وحسنت مع ذلك سيرته ولم يحتمل عقله أكثر من ذلك فلا ينبغى أن يُشوَّش عليه اعتقاده فأن ذلك موجب لحرمانه بل ينبغى أن يخلى وحرفته التى هو فيها وطريقته التى هو سالكها فأنه لو ذكر له تأويلات الظواهر انحل عنه قيد العوام ولم يتيسر قيده بقيد الخواص ؛

فيرتفع عنه السد الذى بينه وبين الشرور والقبائح وينقلب
شيطانا مريدا يهلك نفسه وغيره . بل لا ينبغى أن يخاض
مع العوام فى حقائق العلوم الدقيقة كما يقع من عوام المتصوفة
اذ يسمعون من مشايخهم بعض كلمات دقيقة فى علم الحقيقة
فيتشدقون بها فيضلون ويضلون — بل يختصر معهم على
تعليم العبادات وتعليم الامانة فى الصناعات التى هم بصددها
وعلا قلوبهم من أنواع الرغبة والرهبة بالجنة والنار وبلايا
الدنيا وأهوال يوم القيامة كما نطق به القرآن وصرحت
به السنة والآثار الصحيحة — ولا يحرك عليهم شبهة فانه ربما
تعلقت الشبهة بقلوبهم ويعسر عليهم حلها فيقعون فى الشقاء
والهلاك بسوء تصرفه وبالجملة لا ينبغى أن يفتح للعوام باب
البحث والجدال فانه ضياع لهم وليس من الحكمة فى شىء (ومنها)
ألا ييأس من الاصلاح بل يثابر على عمله فان لم يظهر تأثيره
اليوم فقد يظهر غدا فان الباطل زهوق ولا بد من يوم يتغلب
فيه الحق على الباطل قال الامام على رضى الله عنه لا قيام للباطل
الا فى غفلة الحق — ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يثن
عزمه عن الدعوة الى الله تعالى عناد أهل الغى والضلال

ومقابلتهم له بالانكار وايقاع الأذى به وباصحابه المجاهدين.
وفى نهاية الامر كان الظفر لهم وحقق الله لهم وعده قال
تعالى (يأيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت
أقدامكم) وقال تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا
وان الله لمع المحسنين) وجملة الامر أنه لايليق بالمرشد أن
يسأم اذا لم يؤثر عمله لاول مرة بل عليه أن يكرر العظة
مرة بعد أخرى كما يفعل الطبيب الناصح مع المريض .
يصف له الدواء على قدر الداء فأذا لم يفد وصف له غيره
وهكذا حتى يتم البرء ويصل به الى ساحل السلامة .
فالقلوب القاسية بتكرير النصيحة والتذكير بالعواقب تلين
بعد صلابتها قال تعالى (وَذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين)
وبالله تعالى التوفيق



«الفصل الثالث — فى مصادر فن الوعظ والأرشاد»

مصادره على قسمين أولية وثانوية (فالاولية) هى
العلوم الدينية التى أساسها التوحيد وينبوعها الصافى كتاب
الله تعالى وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه (فعلم

العقائد) مبناه آيات التوحيد بل لا تزال آيات التوحيد قائمة
إلى يوم القيامة صالحة لتخاطب جميع العالم على اختلاف
العقول والمشارب والملل والنحل وهى بحقيقتها وقوتها
داحضة لكل شبهة رغم الحاد الملحدين وزيغ المارقين . وما
على المرشد إذا تعرض للعقائد الا أن يرجع الى كتاب الله
تعالى ويستخرج للمسترشدين درر العقائد من بحره الفياض
ويكسوها بالثوب اللائق بها فى مقام التخاطب حتى يورد
الآية أو الآيات دليلا على قوله ـ فلهذا تأثير عظيم فى
نفوسهم والعيان شاهد على ذلك (وعلم التكاليف العملية)
التى مرها حفظ نظام العالم وإصلاح حال المعاش والمعاد
والابتلاء والاختبار فأن كان من العبد الامتثال فالمثوبة .
وأن كان الاباء فالعقوبة مرجعه آيات الاحكام والسنة
الغراء (وعلم الاخلاق) الذى غايته أصلاح النفوس وأعداد
الانسان لان يكون أنسانا حقيقيا يصلح للخلافة عن الله
فى أرضه هو معظم آيات الكتاب والسنة . (وقسم السمعيات)
كذلك مرجعه الكتاب والسنة ـ اذا علمت هذا علمت
أن بحرك الذاخر ومنهلك الصافى الذى لا ينضب ماؤه .

وأستاذك الذى لاريب فيه هو الكتاب والسنة ثم من بعدهما كل كتاب فى العقائد أو الأحكام أو الاخلاق لا يبعد بك عن طريق الكتاب والسنة . وإن هذا المعنى لتجده كثيرا فى كتب الفحول من العلماء العاملين. والهداة المرشدين الذين قدموا فى الدنيا ورضوا بالقليل منها . وعلقوا قلوبهم بالله تعالى . وحصلوا العلم ليكون لهم وسيلة الى الله عز وجل بإصلاح العباد كحجة الاسلام الأمام الغزالى وأبى طالب المكى . والقفال الشاشى . والراغب الأصفهانى. وأضرابهم من العلماء المتشرعين المتحققين رحمهم الله تعالى وجزاهم أحسن الجزاء فهؤلاء قدانفردوا بدعوة الخلق إلى الله تعالى وألفوا المؤلفات الصالحة التى انتفع بها العالم كله حتى أعداء الدين فى أخلاقهم ونظام حياتهم وكل هذا نتيجة التحقق والمحاذاة للكتاب والسنة والآداب النبوية شبرا بشبر وذراعا بذراع ـ فهذه هى مصادر الوعظ الأولية التى منها يستمد ـ لهذا أرشدك الى مزيد العناية بعلوم الكتاب والسنة مستعينا فى ذلك بحفظ القرآن الكريم وحفظ كثير من الاحاديث الصحيحة أو الحسنة الوجيزة القريبة المعنى لتكون

أسرع الى التأثر عند سماعها . وناهيك بكتاب رياض الصالحين للامام النووى رضى الله عنه وكتاب الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى فأنهما نعم العدة والبضاعة الثمينة للواعظ والمرشد كذلك أرشدك الى الرجوع كثيرا الى كتب المتحققين لتستقى منها ماينعش روحك . ويملأ قلبك ثقة بالله تعالى . ولا يتجافى مع أغراض الدين الحنيف الواضحة . ودعهم فى شطحاتهم ومعمياتهم فلا حاجة للناس بها بل هى رموز وضعوها لانفسهم وأمثالهم والله تعالى يقول (قل لا أسألكم عليه أجرا وما أنا من المتكلفين أن هو إلا ذكر للعالمين)

(القسم الثانى . المصادر الثانوية)

هى العلوم الوضعية سواءا كانت آلة للعلوم الدينية ومنها التاريخ والفلسفه أم لا كالعلوم الدنيوية التى يتوقف على كثير منها نظام الحياة من الرياضية والطبعية بل الصنائع والفنون لقربها من فهم السامعين تفيد لخطيب تشبيهات ومقابلات وأمثالا يتوصل بها الى التعاليم الدينية والمغازى الادبية يرشدك الى هذا أمعان النظر فى قوله

تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) ومما تقدم تعلم أن مهمة الواعظ من أكبر المهمات . ووظيفته من أعظم الوظائف .

وموقف المرشد في الحياة موقف القواد والعظماء والمجاهدين المخلصين . وكما أنه لابد للقائد من أحكام العدة . وبعد النظر وأصالة الرأي . كذلك لابد للواعظ الديني أن يكون متضلعا من العلوم الشرعية والاخلاق الدينية وعلوم الاجتماع . كما أنه لابد أن يكون محيطا تمام الأحاطة بما يريد أن يبينه للناس ملما بجميع أطرافه مستحضرا لما جاء فيه من الآيات القرآنية وصحيح الاحاديث النبوية وآثار السلف الصالح من الصحابة التابعين . والعلماء العاملين ليستطيع أن يوفي الموضوع حقه . فتعظم فائدته . ويأمن من الخلط والزلل وبعد تمام الاستحضار يلقيه على السامعين مع التأني والسكينة وأجابة السائل عن كل ما يحتاج اليه وتفهيمه على على قدر استعداده . باللطف والبشاشة والحلم . وكل هـذا لايغني عنه من الوعظ والأرشاد شيئا الا اذا كان ماهرا في طرق الارشاد عالما بكيفية التأثير على النفوس . واستمالة

القلوب وهى المهمة التى نحن بصددها . وسيأتيك من وسائل التأثير مافيه الكفاية

«الفصل الرابع - فى انواعه»

وهى ثلاثة - تعليم - وتأديب - وتهذيب (فالتعليم) يكون . ببيان العقائد والتوحيد مراعى فيه ما يناسب كل طبقة . وببان الأحكام الشرعية الخمسة من الواجب . والحرام : والمسنون . والمكروه . والمباح . مقرونا كل واحد منها بحكمة التشريع . فأن ذلك يسترعى الاسماع ويأخذ بمجامع القلوب

والتأديب - يكون بالترغيب والترهيب بأنواع البشارة والنذارة والغاية منه حمل العاصى على التوبة والانابة الى الله تعالى . والطائع على الاستمرار فى الطاعة والاستقامة

والتهذيب - يكون بتحديد الاخلاق الكريمة وبيان مزاياها فى المجتمع الانسانى والحث على التخلق بها وتحديد الاخلاق الذميمة وشرح مضارها والتنفير من الاتصاف بها . مستشهدا فى كل نوع من هذه الانواع بما جاء فيه

من الكتاب والسنة الصحيحة . وآثار السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة . وأحوالهم فى ذلك رضى الله عنهم أجمعين

فان لهذا شأنا عظيما لا يستهان به فى الوصول الى الغاية المقصودة متى صدر من قلب سليم نقى طاهر من الأدناس فأن الموعظة اذا خرجت من القلب وصلت الى القلب . وأن خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان — وقد سئل الحسن البصرى . ما بالنا نعظ الناس فنبكيهم . وأنت تعظ الناس فتبكى . فقال . ليست النائحة كالثكلى والله الهادى الى سواء السبيل .

«الفصل الخامس فى انشائه»

ينبغى فيه مراعاة المرشد لاستعداد السامعين فيتنزل فى العبارة مع العامة على قدر عقولهم متجنبا الألفاظ اللغوية البعيدة عن مداركهم . ويتوسط مع الاوساط . ويتأنق مع الخاصة — فيكون مع جميع الطبقات حكيما يضع الاشياء فى مواضعها . وفى كل حال يتجافى فى كلامه عن

كل زخرف باطل . لأن مقصوده لايتوقف على الرونق الظاهر والبهرجة الكاذبة بل على اختيار المعانى النفيسة وصوغها فى قالب لطيف . وإلباسها ثوبا شفافا حسنا مستعينا فى إبلاغها الى أذهان السامعين . وإنفاذها فى قلوبهم بأيراد الشواهد عليها من الكتاب والسنة الصحيحة . وآثار السلف الصالح . والحكم النثرية والشعرية . والملح التاريخية . والفكاهات الأدبية . وضرب الأمثال السهلة . والمشاهدات الحسية . الى غير ذلك مما يقتضيه المقام : وبذلك يستطيع أن يسترعى الأسماع . ويتملك القلوب . حتى يقودها الى مباشرة العمل . ويرد النفوس الشريرة عن الغى الى الرشد وبذلك يمكنه أن يسحر الألباب حتى ينسى السامع من يقول . ويفكر فيما يقول . ويصلح نفسه بالتوبة النصوح والسيرة المرضية . بهذا يسهل عليه أن يقتلع من النفوس جذور الشرور والفساد . ويغرس فيها حب الخير والصلاح وروح الألفة والاتحاد . وبهذا يصلح حال الناس . وتنال السعادة فى العاجل والآجل وبالله تعالى التوفيق

(الفصل السادس – في رعاية مقتضى الحال)

وينبغي للواعظ أن يلاحظ ما يقتضيه أحوال الأشخاص والمجتمعات الخصوصية والعمومية. ويراعى الزمان والمكان من القاء درس أو خطابة أو إيجاز أو اطناب فيما يقول. فأن لكل مقام مقالا ولكل نفس إعراضا وإقبالا. وقد يكون الدرس أنفع للقوم لاشتماله على الأخذ والرد والوقوف على ما عساه أن يكون غامضا على السائل فلا يعدل عنه إلى الخطابة. وقد تفضل الخطابة الواحدة ألف درس في بعض المجتمعات والأوساط فلا يعدل عنها إلى الدرس. كذلك الايجاز لا يكون إلا للخواص وأولى الألباب الراجحة والقلوب الحاضرة. وأما الأطناب فهو مشترك بين الخاصة والعامة ويكون مع الغبي والذكي

وليجعل القرآن الكريم في ذلك إماما يقتدى به ومرشدا يهتدى بهديه. ألا ترى أنه إذا خاطب العرب أخرج الكلام مخرج الوحي والاشارة لشدة ذكائهم وقوة فطنتهم ورجاحة عقولهم. وإذا خاطب غيرهم كبني إسرائيل

أو حكى عنهم جمل الكلام مطولا مبسوطا معادا فى مواضع كثيرة لبعد فهمهم وتأخر معرفتهم واحتياجهم إلى الأكثار والاطالة. فما خاطب به مشركى العرب فى مقام الاستدلال على وحدانية الله تعالى وقدرته قوله تعالى (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) وقوله تعالى (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله اذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون) وغير خاف عليك ما جاء فيه عن بنى إسرائيل. وعلى الجملة فأن للايجاز موضعا كما أن للأطناب موضعا فاستعمال أحدهما موضع الآخر خطأ واضح وعى فاضح كما روى عن جعفر بن يحيى البرمكى أنه قال متى كان الايجاز أبلغ كان الاكثار عيا. وقال الخليل يختصر الكلام ليحفظ ويبسط ليفهم. وكانت العرب تطيل ليسمع منها وتوجز ليحفظ عنها — فالاطناب اذا لم يكن منه بد فهو إيجاز وهو فى الوعظ خاصة محمود كما أن الايجاز فى الافهام ممدوح والمرشد الحازم النابه هو الذى يتفرس فى حال

القوم وبتحين الفرص الملائمة للقيام بمهمته وبالله تعالى التوفيق

الباب الثانى

« فى الخطابة وفيه عدة فصول »

(الفصل الاول ـ فى تعريف الخطابة وفوائدها)

الخطابة فى اللغة كالخطاب وهى الكلام النفسى الموجه به نحو الغير للافهام . وفي اصطلاح الحكماء هى صناعة تتكلف الاقناع الممكن فى كل مقولة من المقولات

« الباب الثانى » ـ معنى كونها صناعة أنها مجموع قوانين متعلقة بكيفية العمل فترشد الانسان الى طريق الاقناع وتتولى ترغيب الجمهور وحملهم على ما يراد منهم ومعنى تكلفها الاقناع الممكن أنها تتحرى فى كل مسألة مايفيد الاقناع وإن لم تتمكن دائماً من ادراك غايتها المانع قام . فشأنها كشأن باقى الصناعات التى تعد النفس لعمل خاص بمقتضى قوانين محدودة وإن لم تبلغ تلك الصناعات غايتها كالطب الذى غايته

الشفاء وإن لم يوصل بالفعل لاسباب . والفرق بينها وبين باقى الصناعات أنها تخوض فى كل شىء من المقولات العشرة من الجواهر والاعراض بخلاف الصناعات فأن موضوعها خاص — ومن تعريفها يظهر لك الفرق بينها وبين الفصاحة والبلاغة فأنهما يمكنان الانسان من تركيب المفردات وحسن التعبير ليبرز ما يكنه الضمير من المعانى والعواطف أما الخطابة فتزيد على تلك الملكة ملكة أخرى بأن تلقنه طرق الاقناع وتمكنه من استمالة القلوب وتوجيهها إلى غرض من الاغراض الكلامية التى لا تدخل تحت حصر من أنواع الترغيب والترهيب فلا بد لها من قوانين تدرك بها هذه الغاية

والخطابة كما قال ابن رشد نقلا عن أرسطو — ليس لها موضوع خاص تبحث عنه بمعزل عن غيره بل تدخل فى كل العلوم والفنون ولا شىء حقيرا كان أو جليلا معقولا أو محسوسا إلا ويدخل تحت حكمها ويخضع لسلطانها . ومن هنا لزم أن يكون الخطيب والمرشد ملما بكل العلوم إذا أراد أن يكون خطيبا عاما بل ينبغى له أن يطلب المزيد

من العلوم والمدارك كل يوم . (وغايتها) التماس أقناع السامع في أي أمر كان . هذا في موضوع الخطابة وغايتها بحسب المعنى الاصلي . أما بحسب معناها الثانوى من حيث إنها مجموع قوانين تساعد الناظر على اكتساب قوة الكلام وحسن الخطاب فموضوعها دوس الاساليب الجديرة بالأقناع — وغايتها الحصول على القوة التي تمكن منه — والاقناع حمل السامع على التسليم بصحة المقال أو العمل بموجب أمر أو تركه وهو نوعان . منطقي وخطابي . فالمنطقي غايته اذعان العقل لنتيجة مبنية على مقدمات ثبتت له صحتها كمباحث التوحيد أما الخطابي فأنه يتوخى إذعان العقل لصحة القول بأقيسة مركبة من المشهورات أو المظنونات مع تحريك عواطف القلب إعجابا به واستمالة الارادة اليه حبا فيه كتعريفهم للعلم وبيان فوائده وحث السامعين على اكتسابه

وفضلها جسيم فانها تكمل الانسان وترفعه الى أعلى الدرجات حتى يكون نفاعا لنفسه وللناس قال ابن سينا في الشفاء ان الخطيب يرشد السامع الى مايحتاج اليه من أمور دينه ودنياه ويقيم له مراسيم لتقويم عيشه والاستعداد الى

معاده . وكفاها شرفاً أن واضع منهاجها قادة الامم من الانبياء والمرسلين ومن على شاكلتهم من الملوك والساسة والعلماء المرشدين . وفوائدها جمة تعرف صاحبها كيف يتملك القلوب ويستميل النفوس ويحرك العواطف ويهيج الخواطر نحو ما يريد . بقواعدها تستضيء موارد الدليل وتتضح مصادر البرهان . لانفاذ كل أمر جليل وإدراك كل غاية نافعة . وقوانينها ترشد الطالب الى مواضع الضعف . وشعب السهو والزلل فيقوى على دحض أقاويل المناظر . وتزييف سفسطة المكابر .

وأصلها . النظر والاختبار وذلك أن الله تعالى فطر بعض بنى الانسان على ملكة البلاغة فاقتدَرُوا بها على حمل غيرهم على ما أرادوا منهم فلاحظ الامر غيرهم ممن لم ينالوا تلك الملكة . وجعلوا يبحثون عن الطرق والوسائل التي أدت بأولئك الخطباء بمقتضى الغريزة الى إثارة الأذهان واستخدام القلوب فدونوا نتيجة أبحاثهم وسموها حتى جاء أرَسْطُو فضم شارد هذا الفن وجمع شتاته فى كتاب ضمنه قواعد هذه الصناعة وسماه (الخطابة) وهو الكتاب

الذي عربه بشر بن متى ولخصه ابن رشد وأخذ عنه فلاسفة العرب كابن سينا والفارابي وغيرهم .

ومن هذا تعلم أن الخطابة مخلوقة مع الانسان لاتخص أمة ولاجيلا. وأن البحث عنها كان قبل الجاهلية والاسلام وأن تأثير البلاغة على النفوس لايخص لغة بعينها . وأن إعجاز القرآن لم يكن من جهة التأثير فقط . بل لنفس جواهر اللغة العربية . وكيفية وضعها وترصيعها وتنسيقها دخل في الأعجاز أيضا ـ وبذلك تختلف بلاغة اللغة العربية عنها في باقي اللغات .

وطرق تحصيلها أربعة ـ الأول ـ الفطرة أو قوى النفس الغريزية وهذا هو الاساس ـ الثاني ـ معرفة الاصول التي وضعها الحكماء ـ الثالث ـ مطالعة أساليب البلغاء . ومصاقع الخطباء. الرابع ـ الارتياض والاحتذاء، والارتياض هو التدرب بطرق الخطابة فأن ملكتها تقوى وترسخ بالأكثار من التمرن والممارسة . قال خالد بن صفوان . إنما اللسان عضو أن مرنته مرن فهو كاليد تخشنها بالممارسة وكالبدن تقويه برفع الحجر. والرجل اذا عودت المشي مشت

وللارتياض وجوه . منها أن تتوسع في شرح بعض المعاني فتبينه بأوجه شتى وتزينه بوسائل التأثير . ومنها أن تجتهد في وضع بعض مواضع عامية وجيزة فأن المتروض ينجح على قدر مايصرف من الهمة والثبات في ذلك والاحتذاء أن يعمد الخطيب الى أساليب المتقدمين فيقتفي أثرها وينسج على منوالها فلا غنى له عن الاقتداء بالأواين . والاقتباس من السابقين فيما اخترعوه من معانيهم وسلكوه من طرقهم . والتقليد عريق في الانسان .

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم
ان التشبه بالرجال فلاح



الفصل الثاني — الخطابة في الجاهلية وأسباب انتشارها ومواضعها

قد عرفت أن الخطابة قديمة العهد وأنها مخلوقة مع الانسان لكنها اشتهرت في الجاهلية لما كان عليه العرب من النفرة والحمية وشن الغارات والمدافعة عن النفس والمال والعرض والمباهاة بقوة العصبية وشرف الخصال من

الكرم والنجدة . والحسب والنسب — وللقول فى ذلك أثر لا يقل عن الصول فكانت الخطابة لهم ضرورية . وفيهم فطرية لزلاقة اللسان وقوة البيان . ولكن لم تصل إلينا أحوال خطبائهم الاوائل عند التأدية . ولا شيء من خطبهم كما كان ذلك فى الشعر لعنايتهم بروايته دون الخطابة لصعوبة حفظ النثر — ولم تدن الرواة بنقل أخبار الخطباء وخطبهم إلا بعد أن وصلت الخطابة الى منزلة أسمى من منزلة الشعر لابتذاله بتعاطى العامة والسفهاء له . واتخاذهم له وسيلة للعيش والطمع على الحرم . فعلا بذلك شأن الخطابة . واشتهر بها الاشراف — وكان لكل قبيلة خطيب كما كان لكل قبيلة شاعر

وأكثر استعمالها عندهم فى مواضع التحريض على القتال والتحكيم فى الخصومات وتحمل الديات وإصلاح ذات البين . وفى المفاخرات والمنافرات والوصايا والوفادة على الملوك والامراء وحيث كان القصد من الخطابة اكتساب القلوب واستمالة النفوس كما هو الشأن فى الشعر كان الاعتماد فيها على الأدلة الخطابية المحركة للعواطف . المؤثرة للنفوس

ممثلة فى صورة العبارات الرائعة — وكثرت فيها الفواصل والأسجاع لحسن وقعها الى مافيها من استرواح الخطيب وسهولة تدارك المعانى .

وخطب العرب منها الطوال ومنها القصار ولكلٍّ مقام يليق به وكانوا الى القصار أميل لانطباعهم على الايجاز — ولأنها الى الحفظ أسرع وفى البقاع أشيع — وكانت لهم عناية تامة بسرد كثير من الحكم والنصائح والأمثال خصوصا فى القصار منها .

أما صفة الخطيب عند التأدية — فكان من عادتهم فى غير خطب التزويج أن يخطب قائما . أو على مكان مرتفع أو ظهر راحلته . لابعاد مدى صوته . وللتأثير بشخصه وإظهار ملامح وجهه وحركات جوارحه . متعصبا بعمامة ومعتمدا على مخصرة أو عصا أو قناة أو قوس . وربما أشار باحداها أو بيده — وقد كانوا يستحسنون من الخطيب أن يكون رابط الجأش قليل اللحظ جهير الصوت متخير اللفظ قوى الحجة نظيف الثياب كريم الاصل صادق اللهجة أسرع الناس عملا بما يقول ولا يخفى أن معظمها صفات ليست

جوهرية ولا تفيد في مقصود الخطابة شيئاً يذكر بل هى أمور ثانوية . ولكن قد عرفت أنه لم يصل إلينا من صفات الخطباء فى الجاهلية سواها - ومن أشهر خطبائهم كعب ابن لؤى . وذو الأصبع العدوانى وقيس بن خارجة بن سنان وخويلد بن عمرو الغطفانى . وقس بن ساعدة الايادى . وأكثم بن صيفيّ رئيس وفد النعمان على كسرى

وقد أجمع علماء الأدب على متانة قس وأكثم وأنهما أرعى للحق وأبر بالمكارم خصوصاً وفى خطبهما كلام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحوال الآخرة وإن كانا فى باب الأدب أدخل منهما فى باب الدين - إلا أن الخطيب الدينى يلزم أن يكون أديباً قبل كل شىء

(الفصل الثالث - الخطابة فى صدر الأسلام وما يليه)

وصفة الخطيب فى عهد الاسلام

لما كان مبدأ كل انقلاب عظيم فى أية أمة إما دعوة دينية أو سياسية وكانت تلك الدعوة تستدعى ألسنة قوالة من أهلها لتأييدها ونشرها وألسنة من خصومها لأدحاضها والصد عنها . وذلك لا يكون الا بمخاطبة الجماعات . وأصحاب

النجدات فى المحافل والمنتديات، والحج والمواسم والأسواق ومواطن الزحف. ومقدم الوفود ونحو ذلك — كان ظهور الإسلام بالأمر الجلل والشأن الخطير والدعوة العظمى التى لم يشهد لها فى العالم مثيل من أهم الحوادث التى أطلقت الألسنة من عقالها. وأثارت الخطابة من مكمنها. وأغرت العقول بإحكامها. والتفنن فيها. واختلاب الألباب بسحر بيانها: فوق ما كانت عليه فى جاهليتها

فكان العمل الأكبر لصاحب الدعوة العظمى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بادىء أمره غير تبليغ القرآن واردا من طريق الخطابة

ولأمر مّا جعلها الشارع شعار كل إمام فى حفل دينى أو سياسى كالجمعة والعيدين. وموسم الحج الأكبر. وعند أخذ العدة للحرب. وفى كل أمر جامع انشر فضيلة أو نهى عن رذيلة. أو اعلان نصر. أو تأكيد وصية عامة. الى غير ذلك من الأمور ذوات البال — ولذلك كان سعاة النبى صلى الله عليه وسلم. ورسله الى الملوك. وأمراء جيوشه وسراياه ثم خلفاؤه من بعده وعمالهم كلهم خطباء مصاقع. وأسنّا

مقاول أعانهم على ذلك أنهم يخطبون عربا مثلهم . للبلاغة عندهم هزة فى النفس، وروعة فى القلب وأن الشرع الشريف قد صرفهم عن الشعر الذى لا ينهض بأعباء الخطابة لا سيما الدينية لشرحها الحقائق وقرعها الأسماع بالحجج العقلية والنقلية وترغيبها فى الثواب وترهيبها من العقاب وإطلاقها من قيود الوزن والقافية . ولأنها تقال بعبارات تناسب الخاصة والعامة — وكانت لهم من القرآن الكريم وأدلته وحججه والاقتباس منه دائما مدد لا ينفد

وعندما قامت الفتنة الشعواء بقتل عثمان رضى الله عنه وهو أول حادث تصدع له بناء الجامعة الاسلامية انقسم المسلمون الى فرقتين عظيمتين عراقية وعلى رأسها فحل الخطباء وأمير البلغاء سيدنا على رضى الله عنه وكرم الله وجهه — وشامية وعلى رأسها سيدنا معاوية رضى الله عنه . وكان لكل دعوة يؤيدها . ووجهة يناضل عنها

ظهر فى كلتا الطائفتين خطباء لا يحصى عددهم ولا يشق غبارهم وبعد انتهاء الشجار بين هاتين الطائفتين انقسمت كل طائفة منها الى أقسام متعددة لكل قسم

خطباء كثيرون يؤيدون مذاهبهم ويدافعون عن نزعاتهم الدينية والسياسية بما أوتوا من البلاغة فى البيان وفصاحة اللسان. أما صفة الخطيب فى عهد الاسلام فقد لا تفترق عنها فى عهد الجاهلية وسيأتيك فى ذلك مافيه الكفاية.

(الفصل الرابع — فى تطورات الخطابة وفيه مبحثان)

المبحث الاول.. فضل القرآن الكريم على اللغة العربية فى تهذيبها وترقيتها — قد أخذت اللغة العربية عند ظهور الاسلام صبغة دينية من القيام بالدعوة والوعظ والارشاد وتبيين العقائد الصحيحة وقواعد الاسلام وأصوله المحكمة وأحكامه العادلة. وحكمه البالغة. وآدابه العالية

وإنك لترى فى كلام الصدر الاول من أهل الاسلام الحث على اتباع الدين القويم والتمسك به وإعلاء كلمة الحق والعمل للآخرة. والاخذ من الدنيا بنصيب لا يشغل عنها والتحذير من الاسترسال فى اللذات والشهوات ومن النظر الى خير الاقاليم التى فتحها المجاهدون والتطلع اليها خوف الافتتان بها والوقوع فى الزلل — فترى خطب هذا العصر المنير ورسائله ترجع الى الكتاب العزيز حاثة على الفضيلة

منفرة من الرذيلة وكلها جاء فيه اللفظ تابعا للمعنى صادرة عن شعور حي ووجدان صادق .

ولذا نفذت الى سويداء القلوب . وأصابت مواقع الوجدان . وإذا كان الكلام خارجا من القلب السليم فأنه يقع فى القلب . وإذا لم يكن صادرا إلا عن اللسان فأنه لا يتجاوز الآذان كما عرفت .

وقد قضت هذه الحكم والمواعظ والخطب والنصائح على دولة الاوهام والرذائل بالزوال . شأن الباطل أمام قوة الحق . وفسحت للحقائق والفضائل فصادفت أهلا . ونزلت مكانا سهلا . وتحلت بها النفوس والعقول . وقويت العزائم . وعلت الهمم حتى ساد المسلمون جميع الأمم . وذلت لهم رقاب الجبابرة . وخضعت لهم مقاليد الفراعنة وفى عصر الدولة الاموية انتقلت اللغة الى حالة أجمل وأرق مما كانت عليه لانتقال القوم من البداوة الى الحضارة . ومن سكنى الريف والخيام إلى المدن والقصور . فاتسعت مداركهم وزادت تجاربهم . وقوى فيهم الخيال وكثرت التصورات وانتقلوا من حال إلى حال فأثمر ذلك نفوسهم معانى جديدة

ووجدانا وعلما لم يكونوا من قبل . فاحتاجوا إلى العبارة عن ذلك بما يلائمه من التراكيب . وساعدهم على صوغ العبارات في القالب اللائق بها قوة اللغة واتساع نطاقها بفضل الدين الحنيف والقرآن الشريف . وقد ظهر ذلك في خطبهم ورسائلهم ظهورا بينا

وكانت موضوعاتها في الغالب الوعظ والارشاد والذود عن الحقوق وإيقاف الأطماع عند حدها والضرب على أيدى العابثين . والخارجين عن حدود الأدب وتأليف الأحزاب وتوحيد الكلمة .

وعلى الجملة فكانت عبارات الصدر الأول آخذة أسلوبا متينا مؤثرا مع إحكام صنعة . وحسن افتتاح وجودة اختتام

المبحث الثاني ـ الخطابة وسبب ارتقائها

كانت خطب الصدر الأول من الأسلام في أسمى طبقات الفصاحة والبلاغة كما ترى ذلك في خطب الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة والتابعين كمعاوية . وزياد بن

أبيه وعبد الملك والحجاج وقطرى بن الفجاءة وأبى حمزة وواصل بن عطاء — والفضل فى ارتقاء الخطابة فى بلاغتها وتأثيرها يرجع إلى الكتاب المبين من عدة أوجه

الاول — أن القرآن الكريم وإن نزل بلغة القوم التى بها يتخاطبون . وبفصاحتها يتفاخرون إلا أن أساليبه العالية التى أعجزت بلغاءهم وخطباءهم وأخذت بمجامع قلوبهم أكسبتهم ملكة من البلاغة فى تخير الأساليب غيرت ملكتهم الأولى وأطلقت ألسنتهم من الوحشية والتعمق الذى كان ديدن كثير من خطبائهم حتى إنهم كانوا يعيبون الخطيب المصقع إذا خلا كلامه عن آى القرآن الحكيم .

وروى الجاحظ أن العرب كانوا يستحسنون أن يكون فى الخطب يوم الحفل وفى الكلام يوم الجمع آى من القرآن فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار وحسن الموقع .

الثانى — ما جاء فى القرآن الحكيم من الترغيب والترهيب على الأسلوب البالغ حد الاعجاز وما كان له من التأثير فى القلوب والأخذ بمشاعر النفوس أعانهم على التفنن فى أساليب الوعظ الخطابى عند حلول الأزمات أو الحاجة

إلى تأليف قلوب الجماعات — حتى لقد كان الخطيب البليغ يدفع بالخطبة الواحدة من الملمات ، ما لا يدفع بالبيض المرهفات ويملك من قلوب الرجال ما لا يملك بالبدر والأموال .

الثالث — أن الاسلام بما هذب من أخلاقهم وألان من طباعهم وعدل من شيمهم أدخل من الرقة على عواطفهم مارق به كلامهم . وكثر المعانى المؤثرة فى النفوس اختيارهم فى مخاطباتهم وخطبهم

الرابع — أن الدين الحنيف بما مهد لهم من سبيل الفتح ومخالطة الأمم وبما منحهم من سمة السلطان والسيادة على الشعوب وفر لهم الأسباب الداعية الى التوسع فى الخطابة بما تدعو إليه حاجة التوسع وتقتضيه عادات الأمم المحكومة وأخلاقها — قال ابن خلدون إن كلام الاسلاميين من العرب أعلى طبقة فى البلاغة من كلام الجاهلية فى منثورهم ومنظومهم فأنا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبى ربيعة والحطيئة وجرير والفرزدق والأحوص وبشار وأمثالهم ثم كلام السلف من العرب فى الدولة الأموية وصدر الدولة العباسية

فى ترسلهم وخطبهم ومحاوراتهم للملوك أرفع طبقة فى البلاغة من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير وعلقمة بن عبدة وطرفة بن العبد. ومن كلام الجاهلية فى منثورهم ومحاوراتهم والطبعُ السليم. والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة - والسبب فى ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الاسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام فى القرآن الكريم والحديث الشريف اللذين عجز البشر عن الاتيان بمثلهما لكونها ولجت فى قلوبهم ونشأت على أساليبها نفوسهم ونهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم فى البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها فكان كلامهم فى نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأصفى رونقا من أولئك. وأرصف مبنى. وأعدل تثقيفا بما استفادوه من الكلام العالى الطبقة اهـ

ومما تقدم تعلم أن الخطابة فى عهد الاسلام قد امتازت عنها فى عهد الجاهلية بأمور (١) أخذها وجهة دينية فى مثل خطب الجمع والأعياد والحج والوعظ والارشاد والتعليم وغير ذلك مما يستلزمه نشر الدعوة الدينية (٢) اتباعها خطة

سياسية فى مثل تأليف الجماعات والأحزاب وتوحيد الكلمة والحث والتحريض على القتال لإعلاء كلمة الله بحالة تغاير ما كانت عليه العرب فى الجاهلية فى ذلك (٣) صفاء ألفاظها وسهولة عباراتها ومتانة أساليبها وتجنبها سجع الكهان وقلة القصد فيها الى سرد الحكم القصيرة الدقيقة لمناسبة وغير مناسبة خلافا لما كانت عليه خطباء الجاهلية (٤) قوة تأثيرها ووصولها إلى سويداء القلوب وامتلاكها للوجدان والشعور بما رقق القلوب الغليظة القاسية وأسال الأعين الجامدة (٥) محاكاتها أسلوب القرآن الحكيم فى الأقناع واستمدادها من آياته حتى اشترط بعض الأئمة اشتمال الخطبة على شىء منه (٦) بداءتها بحمد الله عز وجل والثناء عليه والصلاة والسلام على النبى وآله وصحبه . هذا ولم تسعد العرب بكثرة الخطب والخطباء مثل ما سعدت به فى العصر الأسلامى الميمون .

(الفصل الخامس فى قوانين الخطابة)

تنقسم قوانين الخطابة إلى قسمين . أصولها — وفنونها

القسم الأول في أصول علم الخطابة ـ أصولها ثلاثة (١) الأيجاد (٢) التنسيق (٣) التعبير ـ قال ابن المعتز والشيباني إن البلاغة بثلاثة أمور أن تغوص لحظة القلب في أعماق الفكر. وتتأمل لوجوه العواقب وتجمع بين ما غاب وما حضر وهو (الأيجاد) ثم يعود القلب على ما أعمل به الفكر فيحكم سياق المعاني ويحسن تنضيدها وهو (التنسيق) ثم يبديه بألفاظ رشيقة مع تزيين معارضها واستكمال محاسنها وهو (التعبير)

قال بعض الحكماء. العلوم الأدبية مطالعها من ثلاثة أوجه ـ قلب مفكر وبيان مصور ـ ولسان معبر

(الأصل الأول ـ الأيجاد أو الاختراع)

وهو عبارة عن إعمال الفكر في استنباط الوسائل الحقيقة بأقناع السامع واستمالة خاطره وتحريك عواطفه. ومداره على ثلاثة أشياء — وضع الادلة — ومراعاة الآداب الخطابية ـ ومعرفة الاهواء ـ وذلك أن غاية الخطيب (أولا) إنارة الأذهان وحملها على الأذعان وهو أمر لا يتم إلا بالأدلة (ثانيا) استعطاف الخواطر وذلك إنما يترتب

على مداراة الأخلاق ومراعاة الآداب (ثالثاً) استمالة الارادة إلى ما يطلب منها بإثارة عواطفها . وهو يقوم بمعرفة الاهواء وطرق تهييجها أو تسكينها ولكل من تلك الأشياء الثلاثة مبحث يخصه

(المبحث الأول فى الأدلة)

الدليل فى اللغة المرشد . وفى اصطلاح الحكماء ما يلزم من العلم به العلم بشيء آخر - وهو إما إلزامى أو قطعى . وإما ظنى .

فالالزامى هو الموجب للتصديق اليقينى ويسمى برهانا .

والظنى ما كان محمولا على الظن والترجيح فقط ويغلب عليه اسم الحجة كقول أرسطو للاسكندر . إن الناس إذا قدروا أن يقولوا قدروا أن يفعلوا - فاحترس من أن يقولوا تسلم من أن يفعلوا - ففى هذا القول حجتان مبناهما الظن الغالب - الأولى - أن القادر على القول ربما كان قادراً على الفعل والثانية - أن السلامة من أقوال الناس تنجى من أفعالهم

وتؤخذ أدلة الخطابة من التأمل فى موضوع البحث والنظر فى أحواله

قال ابن سينا إن الحجج في الجدل والخطابة تكتسب من المواضع فمن طلب الاقناع وهو لا يعلمها كان كحاطب ليل يسعى على غير هداية لا لبخل من الموجود بل لنقصان في الاستعداد

والمواضع ضروب من الأدلة العامة التي يمكن الخطيب استعمالها في كل مقام لغرضين (أحدهما) وهو الاصلي إثبات الخطيب لمقاله بالبرهان (وثانيهما) توسيع المعاني بحسن البيان وهي قسمان ذاتية . وعرضية. فالذاتية تستفاد من نفس الموضوع كأن تحض على طلب العلم لشرفه وفوائده مثلا فتنعته بأنه حياة القلوب ومصباح الابصار . وتثبت أنه دليل الرشاد والطريق إلى المعاد وتشبهه بأنه كنز لا ينفد وسراج لا يطفأ وحلة لا تبلى إلى غير ذلك من الأوصاف التي تعرف العلم في ذاته أو ثمرته أو غايته

والعرضية تستفاد من مصادر خارجة عنه كأن ترغب في العلم بأمثال الامم القديمة واعتبارها للمعارف. وأن تستشهد بأقاويل الحكماء أو الكتب المنزلة التي عظمت العلم وقبحت الجهل

والمواضع الجدلية الذاتية ثمانية وترجع إجمالا إلى ثلاثة أقسام مايبين الموضوع فى نفسه وهو الحد والتجزئة . والجنس والنوع وما يبينه فى متعلقاته وهى العلة والمعلول والمقدمات والتوالى والظروف وما يبينه بعرضه على سواه وذلك فى المقابلة والمشابهة

(القسم الأول)

مايبينه في نفسه وهو الحد والتجزئة والجنس والنوع

فالحد فى اللغة المنع . وفى الاصطلاح هو قول دال على ماهية الشيء أو هو القول الجامع المانع .أى تعريف الشيء بما يحيط بمعناه ويميزه عن كل ماسواه وهو تام وناقص كما هو معروف .والحدفاما تستعمله الخطباءوانما يستعملون أساليب الرسم وهى كثيرة

منها تعريفه بفاعيله ومعلولاته كقول بعض الأدباء فى تعريف العقل . العقل وزير يرشد . وظهير يسعد . من أطاعه نجاه . ومن عصاه أرداه . إن انكسر صاحبه جبره . وإن انصرع أنعشه . وإن ذل أعزه . وإن خاف

أمنه . وإن حزن أفرحه وإن تكلم صدقه وإن أقام بين ظهراني قوم اغتبطوا به . وإن غاب عنهم أسفوا عليه . وإن بسط يده قالوا جواد . وإن قبضها قالوا مقتصد

ومنها تعداد أقسامه وبيان أنواعه كقول الحكيم في تعريف الأخوان . الأخوان ثلاثة . أخ يخلص لك وده ويبذل لك رفده . ويستفرغ في مهمك جهده ـ وأخ ذو نية يقتصر بك على حسن نيته . دون رفده ومعونته . وأخ يتملق لك بلسانه . ويتشاغل عنك بشأنه . ويوسعك من كذبه وأيمانه

ومنها الكشف عن خواص الشيء أو تعريف ظروفه كقول بعضهم في تعريف الصداقة

إن الصداقة أولاها السلام ومن
بعد السلام طعام ثم ترحيب
وبعد ذاك كلام في ملاطفة
وضحك ثغر وإحسان وتقريب
إن الكرام اذا ماصادقوا صدقوا
لم يثنهم عنه ترغيب وترهيب

ومنها السلب والايجاب بأن تنفى عن المحدود مالا يوافقه ثم تثبت له صفاته الجديرة به كقول ابن الوردى رحمه الله

ليس من يقطع طرقا بطلا　　إنما من يتق الله البطل

وقول الآخر

وليس أخوك الدائم العهد بالذى

يذمك إن ولى ويرضيك مقبلا

ولكن أخوك النائى مادمت آمنا

وصاحبك الأدنى إذا الأمر أعضلا

وقول بعضهم

ليس اليتيم الذى قدمات والده

بل اليتيم يتيم العلم والحسب

ومنها التشابيه والأمثال والاستعارات كقول ابن العربى فى تحديد الكتاب . الكتاب بستان يحمل فى ردن [1] . وروضة تنقل فى حجر . ينطق عن الموتى

---

(١) الردن بالضم أصل الكم

ويترجم عن الأحياء . وهو مسامر مساعد . ومحدث مطاوع ونديم صديق

كتابي فيه بستاني وراحي ومنه سمير نفسي والنديم
يسالمني وكل الناس حرب ويسليني إذا عرت الهموم
ويحيي لي تصفح صفحتيه كرام الناس إن فقد الكريم
إذا اعوجت على طريق أمري فلي فيه طريق مستقيم

ويستدل بالحد كلما احتاج الخطيب الى إثبات قضية أنكرها الخصم أو إلى ايضاح حقيقة أشكلت على السامعين أو إلى تقرير أمر في أذهانهم بتعريف خواصه وبيان صفاته بأحد الأساليب المذكورة

ولا بد للخطيب أن يذكر من الخواص ما يلائم غرضه ويوافق مقتضى الحال فان أراد مثلا أن يصرف السامعين عن حرب مشئومة وصفها بآفاتها وما تجلبه من الشرور على البلاد وبالعكس إذا أراد حملهم عليها عرفها بما يرغبهم في خوض غمارها كقوله إنها مدرسة الشجاعة . ومظهر التفاني والسبيل الوحيد الى قهر العدو والدفاع عن حرمة الدين والوطن الخ . والتجزئة هي تقسيم أحد الكليات إلى

أجزائه ويكون إقناع الخطيب السامع بالتجزئه بأحد أمرين . أحدهما . أن يثبت للكل ماقرره لأجزائه كقول أبي العتاهية في صولة الموت وفتكه بجميع البشر وأنه لا يرد غاراته أحد

ما يدفع الموت أرجاء ولا حرس
ما يغلب الموت جن ولا أنس (١)

ما إن دعا الموت أملاكا ولا سوقا
إلا ثناهم إليه الصرع (٢) والخلس

للموت ما تلد الأقوام كلهموا
وللبلى كل ما بنوا وما غرسوا

أثبت الموت للأجزاء فردا فردا ثم للكل في البيت الأخير

وثانيهما ـ أن ينفي عن الكل مانفاه عن الأجزاء كما لو أراد أن ينفي السعادة عموما في الدنيا ذكر مجموع

---

(١) الانس محركة الجماعة الكثيرة والحي المقيمون
(٢) الصرع بفتح فسكون الطرح على الأرض والخلس بفتحتين الطعنة السريعة يقال طعنة خلس اهـ مصححه

الاشياء التى تفتن قلوب البشر كالمال والجاه واللذات، فنفى وجود السعادة فى كل منها واستنتج أن لا سعادة فى الدنيا ألبتة .

وإذا تعاصى على الخطيب استيفاء كل أقسام المقصود فيكفيه ذكر أهم الأجزاء التى عليها يقاس الباقى

واعلم أن الخطيب كثيرا ما يقصد من التجزئة توسيع المعانى وحسن البيان والزيادة فى الايضاح

ولاستعمال الجنس والنوع فى الخطابة طريقان

الأول. أن يقرر الخطيب للنوع ما قرره للجنس كما لو أراد أن يبين أن القناعة محمودة فأثبت كون الفضيلة محمودة لأن الفضيلة جنس يشمل نوع القناعة ومثله قول ابن خلدون يصف فوائد العلوم العقلية إجمالا ثم علم المنطق خصوصا — إن العلوم العقلية كثيرة الفوائد بها يقف الانسان على تحقيق الحق فى الكائنات بمنتهى فكره . ويقتنص المطالب المجهولة ويستخرج المباحث الشريفة — ومن أجل هذه العلوم وأجدرها بالدراية علم المنطق فهو يعصم عن الخطأ . ويبين الصحيح من الفاسد فى الحدود المعرضة للماهيات والحجج المفيدة للتصديقات . وهو

أول العلوم الحكمية وفاتحتها وسمى المعلم الاول

الثانى — أن ينفى عن النوع مانفاه عن الجنس كقول أبى العتاهية وقد بين كدورة العيش مجملا ثم مفصلا

ما رأيت العيش يصفو لأحد
دون كد وعناء ونكد
إن للموت اسهما قاتلا
ليس يفدى أحدا منه أحد
قد أرى أن لست فى الدنيا ولو
بقيت لى دائما طول الأمد
إننى منها غدا مرتحل
أو أرانى راحلا من بعد غد

وعلى الجملة فمعرفة الكلى والجزئى فى الموضوع الذى يتوخاه الخطيب ضرورية لأنه قد يتكلم أولا على الكلى ثم يتخلص منه إلى الجزئى ويكون ذلك أبلغ فى الغرض وأكمل فى البيان

قال ابن سينا جملة مايقال فى ذلك أن الخطباء قد اعتادوا أن يأتوا فى صدر خطبهم بنظر عام فى مقصدهم تأسيسا لما

يأتون فى خطابهم. لان كل خطاب لا بد له من فرش يكون له بمنزلة الأساس من البنيان

كقول بعض البلغاء فى البيان والفصاحة وقد افتتح خطبته بذكر شرفها ومنافعها ثم أخذ يحرض الناس عليها (أما بعد إن البيان ترجمان اللسان . وروض القلوب وإن من عرف بفصاحة اللسان لحظته العيون بالوقار . لأنهما أقوى دليل على استكمال الذكاء والنبل . وهى لم تزل تشيد لأهلها فى ربوع المجد فخرا . وترفع لهم فى مراتب العلوم ذكرا .

فعليكم بالفصاحة فى منطقكم . وذكوا بالبيان قلوبكم به تهدون ضالا وترشدون غاويا . وتعلمون جاهلا واعلموا أن من كان فى النطق أبلغ كان فى الانسانية أخلق)

واعلم أن الخطباء يطلقون الجنس على الأمر العام سواء كان جنسا عند الفلاسفة أو نوعا فيقولون مثلا إن الحر والعبد نوعان يشتركان فى جنس الانسانية وإن العدل والقناعة والمروءة تنطوى تحت جنس الفضيلة مثال ذلك قول الخوارزمى يصف المحسنين إجمالا كالجنس العام ثم

ينتقل إلى صنائع أبي نصر الميكالي شاكراً له نعمه كالنوع الخاص

(المحسن إلى الناس كلهم حبيب ومن القلوب كلها قريب

تمدحونه وإن لم يحسن إليهم ويشكرونه وإن لم يفضل

عليهم . كما أن المسيء في النفوس صغير وإن كثر مالا وحالا

وقبيح وإن حسن زينا وجمالا . على هـذا أسست البنية .

وعليه وضعت الفطرة . وفيه اتفقت الخاصة والعامة —

والشيخ على سبيل الكرام نهج وعلى منوالهم نسج .

فصنائعه في قوالب الحمد والشكر . وعلى طريق الأجر

والذخر . بلغني ماصنعه الشيخ مع فلان فما استكثرته قياسا

على قدره العظيم . وبره الجسيم)

« تنبيه » مما تقدم نعلم أن طريقة الاستدلال بالجنس

والنوع مرجعها عندهم إلى الاستدلال بالعام والخاص أو الكلي

والجزئي إلا أنك في التجزئة تبدأ باثبات الحكم للجزئي ثم

تثبته للكلي بخلاف الاستدلال بالجنس والنوع فأنك

تقرر الحكم للكلي فتستنتج وجوبه للجزئي وهذه الطريقة

كثيرة الاستعمال في الخطابة وبالله تعالى التوفيق

(القسم الثانى)

ما يبينه فى متعلقاته وهى العلة والمعلول وأخواتهما

العلة ما يحتاج اليه الشىء فى وجوده . والمعلول ما صدر عنها وهى أربعة أنواع العلة الفاعلية وهى ما نشأ عنها المعلول كالبنّاء بالنسبة للدار

والعلة الغائية وهى ما كان لأجلها المعلول كسكنى الدار فأنها الغاية من تشييدها ـ والعلة المادية وهى ما تألف منه الشىء كالنفس للأنسان والعلة الصورية وهى ما به يمتاز الشىء كهيئة الدار المميزة لها عن غيرها من المساكن كالقصر والخان والخيمة . والعلل من جملة البراهين المقنعة لأن الخطيب إذا ادعى شيئا وأثبت له العلل الأربع أو بعضها فلا يبقى وجه للأنكار

مثال العلة الفاعلية فى الخطابة : قول أبى زكريا بن عدى فى علة اختلاف شهوات الناس . (إن العلة الموجبة لاختلاف عادات الناس فى شهواتهم ولذاتهم وعفة بعضهم وفجور بعضهم هو اختلاف أحوال القوة الشهوانية فأنها إذا كانت مهذبة مؤدبة كان صاحبها عفيفا ضابطا لنفسه ـ

وإذا كانت مهملة مالكة لصاحبها كان فاجرا شريرا وإذا كانت متوسطة الحال كانت رتبة صاحبها في العفة كرتبته في التأدب ولهذا وجب على الأنسان أن يقهر قوته الشهوانية ويهذبها حتى تصير منقادة له ويكون هو مالكها فيستعملها بالتأدب ويكفها عما لاحاجة به إليه من الشهوات الرديئة واللذات الفاحشة)

ومثال العلة الغائية قول الشيخ جمال الدين الأفغاني مبينا وجوب العدول عن مذهب الدهريين لما يقصدونه من الغايات السيئة .(هؤلاء جحدة الألوهية في أي أمة وبأي لون ظهروا كانوا يسعون ولايزالون يسعون لقلع أساس قصر السعادة الأنسانية . أعاصير أفكارهم تدكدك هذا البناء الرفيع وتلقي بهذا النوع الضعيف إلى عراء الشقاء وتهبط به من عرش المدنية الأنسانية إلى أرض الوحشية الحيوانية . ذهبوا إلى أنه لاحياة للانسان بعد هذه الحياة وأنه لايختلف عن النباتات الأرضية تنبت في الربيع مثلا وتيبس في الصيف ثم تعود ترابا . والسعيد من يستوفي في هذه الحياة حظوظه من الشهوة البهيمية . بهذا الرأي

الفاسد أطلقوا النفوس من قيد التأثم ودفعوها إلى أنواع العدوان من قتل وسلب وهتك عرض . ويسروا لها الغدر والخيانة وحملوها على فعل كل خبيثة والوقوع فى كل رذيلة وأعرضوا بالعقول عن كسب الكمال البشرى وأعدموها الرغبة فى كشف الحقائق وتعرف أسرار الطبيعة)

ومثال العلة المادية قول القزوينى فى جسم الانسان وتركيبه العجيب مستنتجا من ذلك أن يعرفوا خالقهم ويشكروا إحسانه إليهم (إن فى بنية الانسان واختلاف أعضائه وتركيبها من العجائب ماتحير فيه عقول الأولين والآخرين وقصر عن ادراكه فهم الخلق أجمعين فلكثرة مافيها من العجائب قد قيل إن من عرف نفسه فقد عرف ربه ومعناه ان من عرف مافى هذه البنية العجيبة والهيئة البديعة من إتقان صنعتها مع صغر حجمها والجمع بين الأشياء المتضادة كروح سماوى وبدن عنصرى . وتأليف بين حار وبارد . ورطب ويابس وكيف تتحرك جميع القوى . وتعمل كل واحدة فعلها الخاص بها . تتحرك من مبدأ واحد نحو غاية واحدة وكيف جعلت العظام قواما للبدن ودعامة له فى الحركات . وكيف

جعلت الأعصاب والرباطات تنتهى من بعض العظام إلى بعض لتربطها وتشدها. وجعلت الشرايين والأوردة جداول تحمل الغذاء إلى سائر الأعضاء. وتدفع الروح الحيوانى مع الدم الذى هو مادة غذائه كالزيت للمصباح إلى سائر البدن ثم كيف ينبسط الغشاء والجلد على سطح الأعضاء ويحويها كاللفائف ويصير لها حافظا يحفظ جواهرها وأشكالها عما يطرأ عليها ـ علم الانسان بذلك أن لها خالقا قادرا عليما حكيما وتنبه لما فى ذاته من آثار قدرة الله تعالى ولطائف حكمته فيعرف أحكامه ويدعوه ذلك إلى الشكر والثناء عليه سبحانه)

ومثال العلة الصورية قول الشيخ يحي بن عدى فى قوة الأنسان الناطقة المختصة به ـ (هذه القوة الناطقة هى التى بها يتميز الأنسان عن جميع الحيوان. وهى التى يكون بها الفكر والذكر. والتمييز والفهم. والتى بها شرفُ الأنسان وعظمة همته فيعجب بنفسه. والتى بها يستحسن المحاسن ويستقبح القبائح. وبها يمكنه أن يهذب قوتيه الباقيتين الشهوانية والغضبية ويضبطهما فيكفهما وبها يتفكر فى

عواقب الأمور فيبادر فى استدراكها من أوائلها ولهذه القوة فضائل ورذائل أما فضائلها فاكتساب العلوم والآداب وكف صاحبها عن الرذائل والفواحش وقهر القوتين الأخريين وتهذيبهما وسياسته فى معاشه ومكاسبه وحثه على فعل الخير والتودد وسلامة النية والحلم والحياء والنسك والعفة وطلب الرئاسة من الوجوه الجميلة فمن أجل ذلك وجب أن يهذب الأنسان عقله ويميز أخلاقه . ويختار منها ما كان مستحسنا جميلا وينكر ما كان مستنكرا قبيحا . ويحمل نفسه على التشبه بالأخيار ويتجنب كل التجنب عادات الأشرار فأنه إن فعل ذلك صار بالأنسانية متحققا وللرئاسة الذاتية مستحقا)

فانظر كيف أثبت أن ما يمتاز به الأنسان عن سواه إنما هو عقله وقوته الناطقة فاستنتج من ذلك أنه يلزمه الاهتمام به ومراعاته

(كيفية الاستدلال بالمعلول)

قد عرفت أن إحدى الطرق المعهودة لتعريف الشئ

ذكر مفاعيله . لأن حقيقة الأمور خفية وإنما تظهر بمعلولاتها - فإن أردت أن تثبت حكما لأمر أو تنفيه عنه فعدد مفاعيله الحسنة أو السيئة التي يستدل منها على صلاح علتها أو فسادها . إذ حال المعلولات حال عللها - ثم ابن حكمك على مقتضى ذلك لترغيب الناس فيها أو ترهيبهم منها كقولك في مفاعيل الصوم مثلا - الصوم يطهر النفس - الصوم يطهر الجسم . الصوم يزكي الحس . الصوم يصفي الذهن . الصوم ينفي الكبر الصوم يطفىء شهوات الجسد إلى غير ذلك

وقس على ذلك مفاعيل ترك التزوج مثلا للقادر عليه

والمقدمات ما سبق المقصود وتقدمه . والتوالي ما تبعه ولحق به ولا بد لكليهما من علاقة لازمة مع المقصود

والفرق بينهما وبين العلة والمعلول أن علاقة العلة والمعلول بالمقصود علاقة طبيعية واجبة - أما المقدمات والتوالي فإنها تلازم المقصود لزوما ناشئا في الغالب عن اصطلاحات البشر وسننهم المألوفة وأخلاقهم المتغلبة عليهم ومن ثم تكون العلل مقدمات والمعلولات توالي ولا عكس -

كالتمييز فى الانسان الذى يتبع سن الطفولية. فبينهما علاقة اللاحق بالسابق لا علاقة المعلول بالعلة

ولما كانت علاقة المقدمات بالتوالى لازمة يمكنك إثبات المقصود بتعداد ماسبقه من المقدمات وما لحقه من التوالى فتبين ما بينه وما بينهما من الروابط فأن أردت مثلا أن توجب السرقة على إنسان أمكنك أن تثبت ذلك بما تقدم العمل من استخفاء السارق وتجسسه للمسروق. ومن سوابق المتهم ومن اغتنائه بعد فقر. وغير ذلك مما يتقدم أو يتلو جناية السرقة

والظروف عند الحكماء والخطابيين هى العوارض الطارئة على المقصود فتكيفه بكيفيتها وتخرجه عن هيئته ونوعه وإن لم تكن من جوهره وحقيقته. مثال ذلك حادث قتل. فأنه لن يتم إلا فى زمن ومكان مخصوصين وبهيئة خاصة والغاية محدودة. وعن أشخاص معروفين — فالزمان والمكان. والهيئة والغاية وصفات الاشخاص كلها ظروف خارجة عن الأمر لا تمس جوهره لأنها تتغير والقتل يبقى قتلا لكنها تغير صورته وتخرجه من نوع إلى نوع فيكون القتل

إما تعدياً وهو مذموم وإما دفعاً لكيد صائل ظالم وهو مشكور وإن صدر من زيد الفاضل فهو شهامة . وإن اقترفه عمرو الشرير فهو جريمة وهلم جرا

والظروف من أوسع البراهين فى الخطابة . منها يأخذ الخطيب ما يتصرف به فى وجوه الكلام — وبها يرقق التحيل لبلوغ غرضه من إثبات قضية أو نفيها . ومن مغالطة خصم وتصغير جناية وتعظيم منكر وكل ذلك كثير فى مخاصمات الدعاوى

ثم إن الظروف كثيرة ولكنها ترجع إلى ثلاثة أشياء وهى أخص الظروف

الأول . عوارض الزمان والمكان اللذين فيهما حدث الأمر ليلا أو نهاراً أو يوم عيد علناً أو فى خلوة فى طريق أو مسجد

الثانى . صفات الأشخاص الذين لهم علاقة بالأمر كالفاعل وأعوانه والشاهد وما يتعلق بجنسهم وصفاتهم وأخلاقهم إلى غير ذلك من السن والوطن والنسب والسمعة

الثالث . الأحوال المتعلقة بذات العمل كنوعه وهيئته

والداعي إليه. وعلى الجملة فكلما كانت هذه العوارض محدقة بالمقصود وملاصقة له كانت جديرة بالاقناع لأنها لكونها لواحق للمقصود وقرائن عليه تكشف عنه القناع وتبلغ كنه القلوب كقول أبي سفيان بن حرب قبل وقعة اليرموك محرضا العرب —

معاشر الناس . أنتم العرب الكرام . السادة العظام . وقد أصبحتم في ديار الأعلاج منقطعين عن الأهل والوطن — فاعلموا أنه لاينجيكم منهم اليوم إلا الطعن والضرب تبلغون بذلك أربكم وتنالون الفوز من ربكم واعلموا أن الصبر في مواطن البأس مما يفرج الله به الهم وينجي به من الغم فاصدقوهم القتال فأن النصر ينزل مع الصبر . فأن صبرتم ملكتم أمصارهم وبلادهم واستعبدتم نساءهم وأبناءهم . وإن وليتم فليس بين أيديكم إلا مفاوز لاتقطع إلا بالزاد الكثير والماء الغزير . وهؤلاء يرجعون إلى دور وقصور فامتنعوا بسيوفكم وجاهدوا في الله حق جهاده

(القسم الثالث)

ما يبينه بعرضه على سواه وهو المقابلة والمشابهة

فالمقابلة عند الحكماء هي امتناع وجود شيئين في موضوع واحد من جهة واحدة وتسمى التقابل أيضا كالجهل والعلم . والبر والعقوق . والزهد والطمع . وعملها وحب الفناء في الاقناع لأن الشيء إذا ما عرض على نقيضه يزيد جلاء وبيانا قال الشاعر

ضدان لما استجمعا حسنا

والضد يظهر حسنه الضد

وقديما قيل وبضدها تتميز الأشياء

والاحتجاج بالمقابلة على ثلاثة أوجه

الأول : أن تثبت أحد المتقابلين فتنفي الآخر كقول علي رضي الله عنه في إبطاله زعم قريش عدم علمه بالحرب «قالت قريش إن ابن أبي طالب شجاع ولكن لا علم له بالحرب . لله أبوهم . وهل أحد أشد لها مراسا وأطول تجربة

منى ؟ لقد مارستها وأنا ابن العشرين . وهأناذا قد نيفت على الستين »

الثانى : أن تنفى أحد المتقابلين فيثبت الآخر كقول الشاعر ينفى الحكمة عن المرء الملازم لهواه

وكيف تريد أن تدعى حكيما

وأنت لكل ماتهوى تبوع

وكقول بعضهم كيف تطلب علم مالم تعلم . وأنت لا تعمل بما تعلم

الثالث : أن تستنتج من متقابلين نتيجتين متباينتين كمقابلة الطرطوشى بين عدل السلطان وجوره إذ قال ما ملخصه — (إن السلطان إذا عدل انتشر العدل فى رعيته . وأقاموا الوزن بالقسط وتعاطوا الحق فيما بينهم ولزموا قوانين العدل فمات الباطل وذهبت رسوم الجور . وانتعشت قوانين الحق فانبتت السماء غياثها وأخرجت الأرض بركاتها وإذا جار السلطان انتشر الجور فى البلاد . وعم العباد فرقت أديانهم واضمحلت مروآتهم . وفشت فيهم المعاصى وذهبت أماناتهم . فمنعوا الحقوق . وتعاطوا الباطل وبخسوا

المكيال والميزان فرفعت منهم البركة وأمسكت السماء غيثها ولم تخرج الأرض زرعها ونباتها) ـ فبين أن عدله أصل كل خير لرعيته ثم استنتج أن جوره مصدر كل شر لدولته

والتشابه هو فى عرف الخطباء عرض أمر على آخر ليتخذ منه دليل على المقصود فإن قلت مثلا إن حياة الإنسان كسحابة استدللت من ذلك على فنائها وزوالها ومنه قولك كيف لا تموت أنت وقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم والأنبياء من قبله ـ وتكون المحاجة بالتشابه بأن تستنتج صحة أمر أو فساده من صحة أو فساد أمر آخر بشبهه وذلك يكون على ثلاثة أوجه

الأول : أن تعرض المقصود على ماهو أكبر أو أكثر فتستدل به على صحة ماهو أصغر أو أقل كقول أبي عبيدة يدعوا أهل الشام إلى فتح مدينتهم للعرب « لا يغرنكم عظم مدينتكم . وتشييد بنيانكم . وكثرة زادكم وهول أجسامكم فأننا نزلنا بلادا أخصب من بلادكم وفتحنا أمصارا محصرة . ومدائن أحرز من مدينتكم . وخرج علينا

أعلاج موفورة قواتهم، مدرعون مترسون لا يقر لوجوههم قرار. فصلد [1] نجمهم. وذهب أمامنا ريحهم ورددناهم على الأعقاب لا يلوى آخرهم على أولهم »

وغرضه بهذا أنه لم يثبت أمامنا من كان أقوى منكم فأنتم بذلك أولى

الثانى : أن تستدل على صحة أمر أعظم بعد أن أثبتّ صحته فيما هو أدق وأصغر كقول الغزالى يثبت أنه لا عجب من قصور الانسان عن إدراك كمالاته تعالى إذ لا يدرك الحقائق الطبيعية نفسها وهى أقرب منه

أنت لا تعرف إياك ولم
تدر من أنت ولا كيف الوصول
أين منك الروح فى جوهرها
هل تراها أو ترى كيف تجول

---

(١) المراد أفل نجمهم اخذا من قول صاحب القاموس صلد الزند صوت ولم يور اهـ — م

أنت أكل الخبز لا تعرفه
كيف يجرى فيك أم كيف يحول

فأذا كانت طواياك التى
بين جنبيك بها أنت جهول

كيف تدرى من على العرش استوى
لا تقل كيف استوى كيف النزول

الثالث : أن يعرض المقصود على ما يشبهه بالمساواة كقول علي رضى الله عنه فى حسن المعاملة مع الغير كمعاملته لنفسه « اجعل نفسك ميزانا فيما بينك وبين غيرك . فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك : واكره له ماتكره لها . ولا تظلم كما لا تحب أن تظلم . وأحسن كما تحب أن يحسن اليك . واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك . وارض من الناس ماترضاه لهم من نفسك . ولا تقل لهم مالا تحب أن يقال لك »

وكقول اسماعيل المقرى فيمن يطمع فى رحمة الله دون توبة وهو لا يطلب الرزق بغير سعى

تقول مع العصيان ربى غافر

صدقت ولكن غافر بالمشيئة

وربك رزاق كما هو غافر

فلم لم تصدق فيهما بالسوية

فكيف ترجى العفو من غير توبة

ولست ترجى الرزق إلا بحيلة

واعلم أن التشبيه المعروف عند البيانيين وإن كانت الغاية منه حسن البيان إلا أنه يأتى أيضا للاقناع وكثيرا مايتوصل به الخطباء إلى غرضهم كقول الشاعر مشبها سرعة زوال الدنيا ولذاتها بالحلم

ألا إنما الدنيا كأحلام نائم

وما خير عيش لا يكون بدائم

تأمل إذا مانلت بالأمس لذة

فأفنيتها هل أنت إلا كحالم

وكقول الحسن بن عبد الله فى مصاحبة الملوك . إن الملك كالجبل الشامخ فيه الثمار والأنهار . والوحش والسباع

والأخطار . فالوصول إليه صعب . والمقام فيه خطر . كثير المعاطب . وخيم العواقب .

وكثيراً ما يأتى التشابه على طريق المقابلة والطباق كقول سلام بن عبد الله الباهلى فى الزهد فى الدنيا

تبا لطالب دينا لا بقاء لهـا
كأنما هى فى تصريفها حلم

صفاؤها كدر سراؤها ضرر
أمانهـا غرر أنوارها ظلم

شبابهـا هرم راحاتهـا سقم
لذاتهـا ندم وجدانهـا عدم

فخل عنها ولا تركن لزهرتهـا
فأنهـا نعم فى طيهـا نقم

فاعمل لدار نعيم لا نفاد لهـا
ولا يخاف بها موت ولا هَرَم

ومن قبيل التشابه الأمثال — والمثل فى اللغة النظير وفى الاصطلاح قول يشبه به حال الثانى بالأول والأصل فيه التشبيه وهو أنواع

منها الأمثال السائرة (ومنها) ما جاء على ألسنة الحيوانات (ومنها) ما كان على نوع التشابه والحكم كما قال بعض الحكماء فى مودة الصالحين والأشرار ـ المودة بين الصالحين سريع اتصالها بطىء انقطاعها . ومثل ذلك مثل كوز الذهب فهو بطىء الانكسار سريع الاعادة هين الاصلاح ـ

والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها بطىء اتصالها ومثل ذلك مثل كوز الخزف فهو سريع الانكسار . ينكسر من أدنى سبب ولا وصل له أبدا

وفى هذا الباب تدخل تصاوير وهمية وافتراضات مخترعة يستنبطها الخطباء توسلا لمطالبهم كقول ابن المقفع وقد التمس صورة حسية لتبيان قصر الحياة ولذاتها الزائلة ـ التمست للانسان مثلا فاذا مثله مثل رجل لجأ من خوف فيل هائج إلى بئر فتدلى فيها وتعلق بغصنين كانا على سمائها فوقعت رجلاه فى طى البئر . فاذا حيات أربع قد أخرجن رءوسهن من أجحارهن . ثم نظر فاذا فى قعر البئر تنين[1] فاتح

---

(١) التنين ضرب من الحيات اهـ — م

فاه منتظر له ليقع فيأخذه . فرفع بصره إلى الغصنين فاذا في أصلها جرذان أسود وأبيض وهما يقرضان الغصنين دائبين لا يفترقان . فبينما هو في النظر لأمره والاهتمام لنفسه إذ أبصر قريبا منه كوارة فيها نحل عسل فذاق العسل فشغلته حلاوته وألهته لذته عن الفكرة في شيء من أمره وأن يلتمس الخلاص لنفسه . ولم يذكر أن تحت رجليه حيات أربع لا يدرى متى يقع عليهن . ولم يذكر أن الجرذين دائبان في قطع الغصنين ومتى انقطعا وقع على التنين . فلم يزل لاهيا غافلا مشغولا بتلك الحلاوة حتى سقط في فم التنين فهلك . فشبهت البئر بالدنيا المملوءة آفات وشرورا ومخافات وعاهات . وشبهت الحيات الاربع بالأخلاط الاربعة التي في البدن فانها متى هاجت أو أحدها كانت كحُمَةَ الأفاعي والسم المميت وشبه الجرذان الأسود والأبيض بالليل والنهار اللذان هما دائبان في إفناء الأجل .

وشبه التنين بالمصير الذي لا بد منه . وشبه العسل بهذه الحلاوة القليلة التي ينال منها الانسان فيطعم ويسمع ويشم

ويلمس ويتشاغل عن نفسه ويلهو عن شأنه ويصد عن سبيل قصده

وعلى الجملة فلضرب الأمثال أحسن موقع فى الخطابة قال ابن المقفع إذا جعل الكلام مثلا كان أوضح للمنطق وآنق للسمع وأوسع لشعوب الحديث. قال إبراهيم النظام وقد خص بقوله الأمثال السائرة : فى المثل أربعة لا تجتمع فى غيره من الكلام . إيجاز اللفظ . وإصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكناية فهو نهاية البلاغة

ومن حسن الشواهد فى هذا الباب قول عبد الملك ابن مروان . وكان حج فى بعض الأعوام . وأمر بالعطاء فأبى أهل المدينة قبول ما أعطى فرقى المنبر وخطب وقال فى أثناء خطبته « يامعشر قريش مثلنا ومثلكم ما قيل أن أخوين خرجا فى الجاهلية مسافرين فنزلا فى ظل شجرة تحت صفا[1]. فلما دنا الرواح خرجت اليهما من تحت الصفا حية تحمل دينارا فألقته إليهما فقالا إن هذا لمن كنز فأقاما عليها ثلاثة

---

[1]) الصفا بالقصر الحجارة الواحدة صفاة كحصى وحصاة اهم —

أيام كل يوم تخرج إليهما بدينار فقال أحدهما لصاحبه إلى متى ننتظر هذه الحية؟ ألا نقتلها فنحفر هذا الكنز فنأخذه؟ فنهاه أخوه وقال له ما تدرى لعلك تعطب ولا تدرك المال فأبى عليه ثم أخذ فأساً معه ورصد الحية حتى خرجت فضربها ضربة جرحت رأسها ولم يقتلها. فثارت الحية فقتلته ورجعت إلى جحرها. فقام أخوه فدفنه. حتى إذا كان من الغد خرجت الحية معصوباً رأسها ليس معها شيء فقال لها يا هذه إنى حقاً ما رضيت ما أصابك. ولقد نهيت أخى عن ذلك فهل لك أن نجعل الله بيننا لا تضرينى ولا أضرك. وترجعين إلى ما كنت عليه قالت الحية لا. قال ولم ذلك؟ قالت إنى لأعلم أن نفسك لا تطيب لى أبداً. وأنت ترى قبر أخيك ونفسى لا تطيب لك أبداً. وأنا أذكر هذه الشجة وأنشدهم شعراً للنابغة

فقالت أرى قبراً تراه مقابلى

وضربة فأس فوق رأسى فاغرة

فيا معشر قريش وليكم عمر بن الخطاب فكان شديداً عليكم فسمعتم له وأطعتم. ثم وليكم عثمان فكان سهلا لينا

فعدوتم عليه فقتلتموه. وبعثنا عليكم مسلما يوم الحرة فقتلتموه.
فنحن نعلم يامعشر قريش أنكم لاتحبوننا أبدا. وأنتم تذكرون
يوم الحرة. ونحن لانحبكم أبدا. ونحن نذكر مقتل عثمان»
(والمواضع الجدلية العرضية) هي كما سبق الأدلة المأخوذة
من مصادر خارجة عن الموضوع يحتج بها الخطيب لاثبات
قضيته —

وتلك المصادر نوعان ألهية. وبشرية فالألهية
ما كانت عن وحي كالكتب المنزلة. والبشرية سنن المشرعين
وأقوال مشاهير الأئمة وحكم الفلاسفة. ومألوف عوائد
الأمم كقول المسعودي وقد تحرى وصف حب الوطن
فأورد كثيرا من النصوص تأييدا لرأيه — إن من
علامة الرشد أن تكون النفس إلى مولدها مشتاقة.
وإلى مسقط الرأس تواقة — وقد ذكر العلماء أن من
علامة وفاء المرء. ودوام عهده حنينه إلى إخوانه. وشوقه
إلى أوطانه وبكاؤه على مامضى من زمانه. قال ابن الزبير —
ليس الناس بشيء من أقسامهم أقنع منهم بأوطانهم. وقال
بعض حكماء العرب. عمر الله البلدان بحب الأوطان. وقالت

لهند حرمة بلدك عليك مثل حرمة أبويك لأن غذاءك
منهما. وغذاؤهما منها. وقال آخرون أولى البلدان بالمرء بلد رضعت
ماءه . وطعمت غذاءه . وقال آخر . ميلك إلى موضع
مولدك من كرم محتدك . وقال بقراط يداوى كل عليل
بعقاقير أرضه لأن الطبيعة تتطلع بهوائها وتنزع إلى غذائها
وقال أفلاطون غذاء الطبيعة من أنفع أدويتها. وقال جالينوس
يتروح العليل بنسيم أرضه كما تتروح الحبة ببل القطر .
وللنفوس حنين إلى الأوطان . وإن لم يطب ماؤها وهواؤها
ولذا يقول بعض الأعراب يصف وطنه

وكنا ألفناها ولم تك مألفا

وقد يؤلف الشيء الذي ليس بالحسن

كما تؤلف الأرض التي لم يطب بها

هواء ولا ماء ولكنها وطن

ومن الشوق إلى الوطن حنين بلال لما هاجر إلى المدينة.
ففي البخاري من حديث عائشة أن بلالا كان إذا أقلع عنه
الحمى يرفع عقيرته يقول

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة
بواد وحولى أذخر وجليل [1]

وهل أردن يوما مياه مجنة
وهل يبدون لى شامة وطفيل [2]

وأحق البراهين الجدلية بالاقناع ما كان مع صحته . أكشف للمادة وأقرب إلى أفهام الجمهور . وأحسن وقعا فى النفوس — وعليه يلزم العدول عن الأدلة الغويصة المستوجبة بيانا علميا لا تتناوله عقول القوم بسهولة ما لم يكن السامعون من ذوى الخواطر الثاقبة أو ممن يغنيهم التلويح عن التصريح

المبحث الثانى — فى الآداب الخطابية

لما كانت غاية الخطيب إرضاء السامعين . لم يكفه فى

---

(١) الاذخر . الحشيش المعروف : وجليل نبت ضعيف وهو الثمام

(٢) مجنة . موضع على أميال من مكة . وشامة وطفيل جبلان على نحو ثلاثين ميلا منها

روّج مقصوده أن يظهر ما عنده من الحجج والأدلة بل لا بد أن يحتال على القلوب . ويجذبها إليه وهذا أمر سهل المتناول إذا راعى الخطيب الآداب المرضية التى بها تنقاد له القلوب . وآداب الخطابة صفات وأخلاق حسنة يتحراها الخطيب فيستدنى بها قلوب السامعين ويستميلها إلى ما يقول وهى نوعان : فإنها إما أن تعتبر فى نفس الخطيب أو فى نفس السامع

« النوع الأول . آداب الخطيب النفسية وهى عشر صفات »

الصفة الأولى ـ سداد الرأى وهو أصالة العقل وعلمه التام بالموضوع وتمييزه لوجوه الأمور ومعضلات المشاكل حتى يتأثر السامع لقول الخطيب . وينقاد له فلولا ذلك لانتكب عنه السامع استهوانا بضعف عقله . وسقطت حجته أمام خصمه قال الشاعر

متى ما تقد بالباطل الحق يأبه

وإن قدت بالحق الرواسى تنقد

ويثبت لدى السامعين سداد رأى الخطيب بإيراد

قضيته على صورة جلية قريبة المنال وتمكينها فى نفس السامع بالحجج اللامعة والشواهد النيرة : واستدراك اعتراضات الخصم وتفنيدها كقول الأمام على كرم الله وجهه من خطبة أراد أن يثبت فيها غرور الدنيا فقال ـ «أيها الناس إن الدنيا تغر المؤمل لها والمخلد فيها ولا تنفس بمن نافس فيها وتغلب من غلب عليها . وأيم الله ما كان قوم قط فى غضن نعمة من عيش فزال عنهم إلا بذنوب اجترموها . لأن الله ليس بظلام للعبيد . ولو أن الناس حين تنزل بهم النقم . وتزول عنهم النعم فزعوا إلى ربهم بصدق من نياتهم ووله من قلوبهم لرد عليهم كل شارد وأصلح لهم كل فاسد . وإنى لأخشى عليكم أن تكونوا فى فترة . وقد كانت أمور مضت ملتم فيها ميلة كنتم فيها غير محمودين عندى . ولئن رد عليكم أموركم إنكم إذا لسعداء»

الصفة الثانية — صدق اللهجة ـ وهى صفة يتصف بها الخطيب فى حاله وقاله ليثبت عند السامعين خلوص نيته واستقامة عمله وحرصه على الحقيقة . والوسيلة لقرب الخطيب من عقول السامعين بصدق لهجته أن يظهر على ملامحه فى

أثناء خطابه ما انطوت عليه نفسه من الصدق والصلاح وحسن الطوية وسلامة النية حتى تمتلىء الصدور ثقة به فيزيد ميلهم إلى رأيه . وركونهم إلى تصديقه . قال أبو العتاهية

والقول أبلغه ما كان أصدقه

والصدق في موقف مستسهل عال

الصفة الثالثة ـ التودد إلى الناس . وموجبات المودة كثيرة . منها الوقار . والتصون . ومنها . الوفاء . والأمانة والنزاهة . وعلو الهمة حتى يفهمهم أنه خال من الأغراض لا يسعى إلا للخير المحض . ويتمكن الخطيب من التحبب إلى سامعيه ببيان أن قصارى بغيته مصالحهم وأنه يؤثر أمرهم على شؤونه الخاصة وأنه يعنى بأمرهم فوق عنايتهم بأنفسهم ويسعى في ترويج أغراضهم وأنهم إذا أجابوه نالوا المنافع الجمة كقول ذى الوزارتين بن القصيرة على لسان الخليفة إلى أهل مكناسة وكانوا خلعوا ربقة الطاعة (أما بعد) أصلح الله من أعمالكم ما اختل . وأصح من وجوه صلاحكم ما اعتل فقد بلغنا ما أنتم بسبيله من التقاطع والتدابر . وما ركبتم رءوسكم فيه من التنازع والتهاتر قد استوى في ذلك عالمكم

وجاهلكم. وصار شرعا سواء فيه نبيهكم وخاملكم. لا تأتمرون رشدا . ولا تطيعون مرشدا . ولا تأوون سدادا . ولا تنحون مقصدا . ولا تفلحون إن لم تنزعوا عن غوايتكم أبدا فلا يسوغ لنا أن نترككم فوضى وندعكم سدى . ولا بد لنا من أخذ قناتكم بثقاف . إما أن تستقيم أو تتشظى قصدا . فتوبوا من ذنب التباغض بينكم والتباين . واعصوا شياطين التحاقد والتشاحن . وكونوا على الخير أعوانا . وفي ذات الله إخوانا ولا تجعلوا للعقوبة عليكم يدا ولا سلطانا . واعلموا أن من نزع بينكم بشر أو نفث في فتنة بضر . وقام عندنا عليه الدليل واتجه إليه السبيل أخرجناه عنكم وأبعدناه منكم. فاتقوا الله وكونوا من الصادقين. ولا تتولوا عن الموعظة وأنتم معرضون. ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون) وحسبنا هذا وبالله التوفيق .

الصفة الرابعة — رباطة الجأش — وشدة القلب . وهذه الصفة منشأ صفات كثيرة حسنة فإنها تحفظ له كرامته في أعين الجمهور وتستبقي كل عقله معه وهو يخطب فيسدد ويتفنن . ويرتب قوله ويحكم مقاطعه . ويلاحظ حركات الجمهور

حتى يتهالهم المناهل التى يسوقهم الظمأ إليها

الصفة الخامسة ـ البديهة الحاضرة . فقد يطرأ على الخطيب فى أثناء خطابته أو على أثرها ما يلجؤه إلى الكلام فأن لم تواته بديهته بكلام يماثل الأول أو يتفوق عليه سقط ما بناه . ولا كذلك إذا كان يغترف من طبع نافع

الصفة السادسة ـ أن يكون طلق اللسان بريئا من الحصر والعى . واللجلجة . والتمتمة [1] : والفأفأة [2] . والجمجمة [3] . والثرثرة وسماجة التكلف . والاغراب . وما شاكل ذلك من العيوب المشهورة .

الصفة السابعة ـ الحذق فى إدراك مقتضى الحال وملاحظة طوائف الناس من الأعلين . والأوساط . والأدنين . فيختار من الألفاظ ما يناسب كل طائفة . ولا يجرح أحدا ممن يتحبب اليهم حتى تبق لخطابته هزة فى كل قلب . وتستريح إلى مغزاها

---

(١) رد الكلام الى التاء . والميم

(٢) ترديد الفاء

(٣) عدم تبين الكلام

كل نفس . والحاذق من يعرف الطباع الغالبة على الجمهور فيأتى إليهم من ناحيتها . وسيأتى بيانها

الصفة الثامنة ـ المهارة فى إثارة أهواء الأنفس . وتحريك شهوات العقول حتى يجعل أزمّة الحب . والبغض والرغبة والنفور . والفرح والحزن . والرجاء واليأس . والشجاعة والجبن . والحمية والأنفة . والرحمة والأشفاق . والحلم والغضب وغير ذلك من مشاعر النفس فى قبضة يده . وتصرف بيانه وسيأتى بيان طرق الوصول إلى إثارة الأهواء

الصفة التاسعة ـ سعة الاطلاع فأن الخطابة كما تقدم ليس لها موضوع خاص تبحث عنه بل ترتبط بكل شأن من شؤون الناس فى دينهم ودنياهم ومسالك القول فيها متشعبة تشعب مسالك الكتابة فكما يكون الكاتب ملما بكل صنف من أصناف المعارف كذلك يكون الخطيب

ولهذا لا يسمى من يخطب خطبة محفوظة أو يجيد الخطبة فى شيء دون غيره خطيبا ـ وإنما يجوز أن يبرع بعض الخطباء فى فن حتى يكون به خصيصا كالذين يبرعون فى الخطب السياسية أو الوعظية . فأن هؤلاء لا يسمون خطباء

على الأطلاق إلا إذا كانوا يضمون إلى ما اختصوا به معرفتهم بسواه وإن كانت دونه

الصفة العاشرة – التجمل فى شارته وإشارته وملابسه وهيئته . وحب النظام فى كل ما يحتف بالخطبة . وهذا وإن لم يكن من الصفات التى تقوم عليها الخطابة إلا أنه أمر تجب العناية به لأنه مطمح الأنظار . والنظر يفعل فى القلب كما يفعل السمع فهو من هذه الناحية لا ينقص اعتباره عن اعتبار الصفات الأصلية .

وجملة القول أنه يجب على الخطيب أن يكون أحرص على الكمال وأبعد عن النقص فان الذى ينصب نفسه لقيادة الجمهور يجب أن يكون من الفطانة والسداد بمنجاة من أقل الهفوات فان أدنى هفوة تسقط اعتباره . وتهون على الناس أمره حتى يجعلوا مجلسه ملهاة من الملاهى لا عبرة من العبر وبالله تعالى التوفيق

« النوع الثانى – فى آداب السامعين وأخلاقهم »

معلوم أن لكل مقام مقالا . ولكل نفس إعراضا

وإقبالا فلا يخاطب أشراف الناس . وأوساطهم . وسوقتهم بخطاب واحد

فأولئك يفهمون الاشارة . وهؤلاء يحتاجون لبسط الكلام . فعلى الخطيب أن يوفى كلا حقه من الفهم والذكاء ويعطيه نصيبه من النباهة وسمة الأدب ثم ايراع أطوار الأعمار من شاب فى السن أو كهل تام القوة . أو شيخ وقور مهيب . فأن لكل سن خواص وأخلاقا تضطر الخطيب إلى التأنق فى مقاله . والتفنن فى كلامه مع كل صنف على مقدار مبلغه من الفهم . واستعداده لقبول ما يريد غرسه فى النفوس لئلا يجرى شعاع بلاغته فى غير مجراه . وينظم جوهر كلامه فى غير مسلكه . وقد غلب على الأعيان الاحرار أبهة السلطنة ، وهيبة الامر . وإباء الطبع . وعلو الهمة ، وتمام المروءة إلا أنه يظهر فيهم خيلاء وعظمة وتفاخر يحبون الاطراء ويأبون قبول التأديب . ولا ينقادون الى النصح .

وطبع الاغنياء على التيه . والصلف تبطرهم الكرامة ويطغيهم المال . ويشغلهم الحذر والحرص . يتعاظمون على

الفقير . ويتطاولون على من دونهم يتكلفون طباع السادة. ولا يقتصدون فى الملابس ولاسيما حديثو العهد منهم بالنعمة أما العلماء ففيهم كرم الأخلاق. وصحة الأعراض. وقلة المطامع فى المال يرتاحون إلى السمعة الحسنة . ويحبون التوقير والتعظيم والنعوت الدالة على التفوق فى العلوم العالية : وجملة القول أن لكل طبقة من الناس طباعا تميزهم على اختلاف مهنهم. وصناعاتهم وأديانهم وأوطانهم لابد للخطيب من مراعاتها . وعلى مقدار هذه المراعاة تسمو مكانته عند الجمهور

«المبحث الثالث ـ فى الأهواء»

قد عرفت أن غاية الخطيب إقناع السامع وحمله بالبرهان على فضيلة أو ترك رذيلة

ولما كان الانسان مركبا من روح وجسم لا يكفى الخطيب أن يوجه كلامه إلى القوى العقلية فقط : بل يجب عليه أيضا أن يثير من السامع القوى الحسية المشتركة بين النفس والجسد . كالمخيلة والأميال الغريزية التى تدفع الانسان إلى

طلب مايرغبه . وتنفره مما يرهبه . والأميال الغريزية هى المسماة بالأهواء

(حقيقة الأهواء . وأقسامها وكيفية تحريكها)

(فى نفس السامع)

الهوى فى اللغة مطلق الشهوة محمودة كانت أو مذمومة

وفى الاصطلاح ميل النفس إلى مايلائمها من الخير الحسى . أو إعراضها عما ينافرها من الشر المحسوس . وقد حدها أرسطو فى كتاب الخطابة بقوله . . . إن الأهواء انفعالات فى النفس تثير بها حزنا أو لذة بحيث إن حكمها فى الشئ الواحد يختلف عما كان .

وليست نفس الانسان الناطقة منفصلة عن نفسه الحيوانية فبمجرد إدراك العقل للخير أو الشر تهيج فى الانسان نفسه الحيوانية التى تستهوى النفس الناطقة لكن للناطقة الحكم الأعلى فاما أن تكبح ميل النفس الحيوانية . وإما أن تنقاد إليه طوعا . فتتأثر وتندفع إليه . مع النفس الحيوانية . وهو المراد من تحريك الأهواء

والمثير للأهواء قوتان فى الانسان ـ القوة الشهوانية . والقوةالغضبية فقوة الشهوة تدفع الانسان الى طلب الخير. المرغوب فيه : وقوة الغضب تنفره من الشر المرهوب ـ فرجع الأولى الى الحب ـ والثانية إلى البغض ومن الحب والبغض تتولد باقى الانفعالات .

والخطيب يستطيع أن يحرك عواطف الجمهور بالتعمق فى درس موضوعه حتى تتشرب به مخيلته . ويتأثر به شعوره وبذلك يتمكن من التأثير فى الغير ـ وبأن يبرز أدلته فى صورة محسوسة فيصف ماينتج عن الأمر من الخير والشر وصفا يعمل فى مخيلة السامع . ويبعث إرادته الساكنة فتتولد من ذلك العواطف الدافعة إلى مباشرة العمل أو اجتنابه

وأهواء النفس الشهوانية . هى المحبة والبغض والرغبة والنفور والفرح والحزن

وأهواء النفس الغضبية الرجاء . والقنوط .والشجاعة والجبن . والحلم . والغضب

ويتمكن الخطيب من تحريك المحبة في القلوب (أولا) بيان محاسن المحبوب ومزاياه (وثانيا) أن يذكر جميل

فضله . وحسن معروفه وسابغ نعمه كقول أبى تمام فى المعتضد بالله .

إلى قطب الدنيا الذى لو بفضله
مدحت بنى الدنيا كفتهم فضائله
من البأس والمعروف والجود والتقى
عيال عليه رزقهن شمائله
هو البحر من أى النواحى أتيته
فلجته المعروف والجود ساحله
تعوّد بسط الكف حتى لو انه
ثناها لقبض لم تطعه أنامله
ولو لم يكن فى كفه غير نفسه
لجاد بها فليتق الله سائله

ومثيرات البغض أضدادُ مثيرات الحب .

والرغبة حركة فى النفس تحملها على إرادة لذة مأمولة. وهى صنفان . محسوسة كلذات الحواس ـ ومعقولة كلذة العلم والفضيلة ويتوسل الخطيب إلى إثارة الرغبة فى النفوس بتعظيم المرغب فيه وتزيينه فى عيون السامعين مع

ذكر قرب مناله وحاجة الناس إليه . وذكر الفوائد التي تنجم عنه ـ وما يثير النفور ضد مايثير الرغبة بأن يصور للنفوس وجوه المضار الحاصلة عما أراد التنفير عنه مع قبحه وشناعته .

والفرح لذة في القلب لنيل المشتهى . وأصدق وسيلة لتحريك شاعرة الفرح في القلوب : أمور ثلاثة ـ الأول ـ صفة الفرح الناشيء عن إصابة الخير المقصود ـ الثاني ـ ذكر ما لحق الناس من المشقة والحزن قبل إدراكه ـ الثالث ـ الاسترسال في ذكر النعمة وجميل عقباها . وطيب جناها بعد طويل انتظارها . أو اليأس من الحصول عليها

ومن أقوى مثيرات الحزن .. بسط الكلام في هول الخطب وعظم المحنة ثم تعديد مزايا المفقود . وبيان جدارته بالجزع والحزن . مع إيراد الخطيب أشد الألفاظ سطوة على القلب في وصف ماتركت المصيبة من الأسى والكآبة

والذي يبعث الرجاء في القلوب أمران ـ الأول ـ أن يصف الخطيب عظم الخير المبتغى كي يحببه إلى النفوس . ويصرفها إلى طلبه ـ الثاني ـ أن يبين أن الامر المقصود

ليس ببعيد المنال . ولا عزيز المطلب بل سهل الملتمس . لما في اليد من الوسائل الصادقة المؤدية لأدراكه كالجنود المخلصين . والأقوات الموفورة . والعُدَد . وسمو الهمة . وحسن القيادة . والثقة بحول الله . وضعف العدو . إلى غير ذلك . كما روى المسعودي والطبري عن الأمام علي رضي الله عنه يوم صِفّين وهو يحض الأنصار على معاوية وأصحابه ويقوى فيهم روح الأمل في الظفر بهم «يامعشر الأنصار غضوا الاصوات . وأكملوا اللأمة [1] . واستشعروا الخشية وقلقوا السيوف في الأجفان قبل السلة والحظوا الشزر [2] واطعنوا الهبر . [3] ونافحوا بالظبا [4] وصلوا السيوف [5] بالخطا . والنبال بالرماح إن هؤلاء لن يزالوا عن موقفهم دون طعن يخرج منه النسيم . وضرب يفلق الهام . ويشج

---

(١) اللأمة الدرع المحكمة الملتئمة (٢) الشزر نظر الغضبان بمؤخر العين (٣) الهبر ضرب يقطع اللحم قطعا كبارا (٤) نافحوا دافعوا والظبا كالهدى جمع ظبة بالتخفيف وهي حد سيف أو سنان ونحوه (٥) اجعلوا سيوفكم متصلة بخطوات أعدائكم اهـ م

العظام . وتسقط منه المعاصم والأكف . حتى تشدخ جباههم بعمد الحديد . وتنثر لممهم [1] على الصدور والأذقان : أين أهل الصبر : وطلاب الأجر ؟ طيبوا عن أنفسكم نفسا فأنكم بعين [2] الله تعالى ومع ابن أبي طالب . عاودوا الكر . واستقبحوا الفر : فأنه عار فى الأعقاب ونار يوم الحساب . ودونكم هذا السواد الأعظم . والرواق [3] المطنب فاضربوا ثبجه [4] فأن الشيطان راكب صعيده مفترش ذراعيه . قد قدم للوثبة يدا . وأخر للنكوص رجلا فصبرا صبرا حتى ينجلى وجه الحق وأنتم الأعلون والله معكم . ولن [5] يتركم أعمالكم »

ومما يثير القنوط فى النفوس إذا أراد أن يصرفهم عن أمر يريدونه أن يبين الخطيب صعوبة الأمر الذى يتطلعون إليه وأنه معجز الدرك تحول دونه مخاطر ومشاق لا يقتحمها إلا الغبى الجاهل الباحث عن حتفه بظلفه

---

(١) جمع لمة بالكسر وهى الشعر الذى يجاوز شحمة الأذن
(٢) ملحوظين بها (٣) الرواق ككتاب وغراب الفسطاط والمطنب المشدود بالاطناب جمع طنب بضمتين حبل يشد به سرادق البيت
(٤) الثبج بالتحريك الوسط (٥) لن ينقصكم شيئا منها ا هـ — م

والشجاعة هيئة حاصلة للقوة الغضبية بها يقدم الأنسان على ما يجب الاقدام عليه مع التعرض للمكاره الحائلة دون المرغوب

قال يحي بن عدى والقزوينى : ومن أخص سمات الشجاعة الأقدام على الامور التى يحتاج الأنسان أن يعرض نفسه لها لدفع المكاره والآلام الواصلة إليه مع ثبات الجأش عند المخاوف والاستهانة بالموت وهو بالاشراف والملوك أليق بل لا يستحقون الملك مع عدم هذه الخلة

وبواعث الشجاعة لا تختلف كثيرا عن بواعث الرجاء وذلك بأن يرغب السامعين فى حصول المحبوب إذا كان شريفا جليلا ويشهيه إلى القلوب فيبعثها على طلبه

والفرق بين الرجاء والشجاعة أن الرجاء لا يقتضى الاقدام على الأمر بخلاف الشجاعة التى تهيجها المخاطر فتبعثها على مقاومة من يحول بين الشجاع ومرغوبه

ومن أقوى مثيرات الشجاعة ذكر الأمدادات الألهية والثقة بالله تعالى .

والجبن أو الخوف هيئة حاصلة للقوة الغضبية بها يحجم

المرء عن مباشرة أمر لما يتوهم به من المخاوف . وبتمكن الخطيب من إلقاء الخوف فى القلوب بانذار القوم بخطب عظيم . وطامة كبرى : وسوء المطالع : ووخيم العواقب . وغير ذلك من الأهوال التى تلقى الرعب فى القلوب كقول الزمخشرى فى التحذير من الدنيا « خف الزاد . وجف المزاد وطال السبيل . وحار الدليل . وما يدريك علام تقدم ؟ أتثبت أم تزل بك القدم ؟ ياجمود[1] العين : كأنك بغراب البين . أين أدمعك للذوائب[2] . وقد شابت منك الذوائب تمشش أم الردى وتبيض . حيث تطلع الشعرات البيض لم يبق إلا الحمل على الآلة الحدباء . والطرح تحت الرمل والحصباء » ولا يجوز للخطيب أن يستعمل ذلك إلا فى أحوال خاصة كفتنة تضر بالدين

والغضب حركة فى النفس تتوجه إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها . وإلى التشفى والانتقام بعد وقوعها وفوت

---

(١) من جمدت العين اذا بخلت بالدموع (٢) الذوائب الاولى جمع ذائبة وهى السائلة والذوائب الثانية جمع ذؤابة وهى ضفيرة الشعر وبينهما جناس تام ا هـ م

هذه القوة الغضبية وشهوتها الانتقام . وفيه لذتها ولا تسكن إلا به

والذى يهيج الغضب شيئان (الأول) ذكر الاهانة وتعظيم الاذى . وتحريك كامن الحفائظ . كما فعلت عفيرة بنت غفار . وكان بنو طسم انتهكوا حرمتها

أيجمل أن يؤتى إلى فتيانكم
وأنتم رجال فيكم عدد الرمل
أيجمل تمشى في الدماء فتاتكم
صبيحة زفت فى العشاء إلى بعل
فأن أنتموا لم تغضبوا بعد هذه
فكونوا نساء لا تغب من الكحل[1]
ودونكم ثوب العروس فانما
خلقتم لاثواب العروس وللغسل
فلو أننا كنا رجالا وكنتم
نساء لكنا لانقر على الذل

---

(١) فى رواية أخرى (فكونوا نساء فى المنازل والحجل)م

فموتوا كراما أو أميتوا عدوكم

وكونوا كنار شب بالحطب الجزل

وإلا تخلوا بطنها وتحملوا

إلى بلد قفر وموتوا من الهزل

فللموت خير من مقام على أذى

وللهزل خير من مقام على نكل [١]

فدبوا إليهم بالصوارم والقنا

وكل حسام محدث العهد بالصقل

ولا تجزعوا للحرب قومي فإنما

تقوم بأقوام كرام على رجل

فيهلك فيها كل وغد مواكل

ويسلم فيها [٢] ذو الجلادة والفضل

الثاني — بيان ضرورة التشفي كقول الحلي للسلطان الملك الصالح يحرضه على قوم عاثوا في أطراف بلاده من قصيدة قالها يوم عيد النحر

---

(١) النكل بوزن الطفل القيد وجمعه أنكال

(٢) في رواية ذو الطعان وذو القتل اهـ م

فيا ملكا قد أطمع الناس حلمه
لكثرة ما نهفوا فيعفو ويصفح
أعد غير مأمون على الضد كيده
وأذك له النار التي بات يقدح
فقد أيقن الأعداء أنك راحم
فباءوا (١) بأفعال الخناء وسجّحوا
إذا ما فعلت الخير ضوعف شرهم
وكل إناء بالذي فيه ينضح
تهن بعيد النحر وانحر به العدا
فجودك عيد للورى ليس يبرح
وضح بهم لازلت تنحر مثلهم
ومن دون مغناك العقائر تذبح
ويلحق بتحريك الغضب المستحسن تحريك عظم

---

(١) باء بالذنب اعترف به و سجح بالتشديد عرض ومعنى البيت ان هؤلاء الاعداء قد غرهم مايعرفون من رحمتك فصرحوا بافعالهم الذميمة وعرضوا بها واستهانوا بقوتك اعتمادا على عفوك اه م

الهمة وهو استصغار مادون النهاية من معالى الأمور . قال أبو العتاهية

ولم أر فى عيوب الناس عيبا
كنقص القادرين على التمام

ويلحق بالغضب أهواء أخرى يمتزج فيها الغضب بعواطف غيرها كالأنفة وهى ترفع النفس عن الأمور الدنيئة والغضب عند الاحساس بالنقص وكالحمية وهى المحافظة على الحرم والدين من التهمة . وكالغيرة وهى النخوة بتعدى الحقوق

وتثار الحمية والغيرة فى القلوب بأمور (منها) أن تصف لمن أردت تحريك حميته ماحازه خصمه من العز والرفعة على مافيه من اللؤم والأخلاق الذميمة وعدم التدين (ومنها) أن تقابل مساوى الخصم بمحاسن من تريد استنهاض همته وكرم أخلاقه بلؤم أخلاق قرنه فيستدل بذلك على انه أحق بهذا الشرف منه (ومنها) أن تبين ماسيلحق بصاحبك من العار إن لم يتنبه من غفلته وينتزع من يد خصمه حقوقه المغصوبة وما أخذه منه جورا وظلما مرددا قول الحريرى

المنايا ولا الدنايا وخير

من ركوب الخنا ركوب الجنازه

كما فعل الأمام علي رضي الله عنه وقد أراد تحريك عواطف الحمية والغيرة في نفوس أهل الكوفة وحملهم على حرب معاوية وأهل الشام «أيها الشاهدة أبدانهم الغائبة عقولهم المختلفة أهواؤهم. المبتلى بهم أمراؤهم. صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه. وصاحب أهل الشام يعصي الله وهم يطيعونه لوددت حقا أن معاوية صرفني بكم صرف الدينار بالدرهم. فأخذ مني عشرة منكم. وأعطاني رجلا منهم — يا أهل الكوفة منيت بثلاث واثنتين. صم ذوو أسماع. وبكم ذوو أحلام. وعمي ذوو أبصار لا أحرار صدق عند اللقاء ولا إخوان ثقة عند البلاء. يا أشباه الابل غاب عنها رعاتها. فكلما جمعت من جانب تفرقت من جانب آخر. حقا لكأني بكم إخال أن لو حمي الوغى وحمي الضراب انفرجتم عن ابن أبي طالب وخلفتموه شريدا طريدا: أما والذي نفسي بيده ليظهرن هؤلاء القوم عليكم ليس لأنهم أولى بالحق منكم ولكن لأسراعهم إلى باطل صاحبهم وإبطائكم عن حق. ولقد أصبحت الأمم

تخاف ظلم رعاتها وأصبحت أخاف ظلم رعيتي . استنفرتكم للجهاد فلم تنفروا . وأسمعتكم فلم تسمعوا . ودعوتكم سرا وجهارا فلم تستجيبوا ونصحت لكم فلم تقبلوا . أشهود كغياب ؟ وعبيد كأرباب ؟ أتلو عليكم الحكم فتنفرون منها . وأعظكم بالموعظة البالغة فتتفرقون عنها . وأحثكم على جهاد أهل البغي فما آتي على آخر القول حتى أراكم متفرقين أيادي سبا ترجعون إلى مجالسكم . وتتخادعون عن مواعظكم »

وربما أردفوا بهذا الباب المنافسة والحياء قال ابن عدى المنافسة هي منازعة النفس إلى التشبه بالغير فيما يراه المرء ويرغب فيه لنفسه والاجتهاد في الترقي إلى درجة أعلا من درجته . وهي محمودة في معالي الأمور وكل ما يكسب مجدا بشرط أن تكون من طريق شريف مشروع

وتثار المنافسة بذكر محاسن من يقتدى بهم وبيان العار الذي يلحق بالسامعين إذا لم يتشبهوا بهم كقول الإمام علي رضي الله عنه يذكر الزهاد ويحرض قومه على التأسي بهم « لقد رأيت من تقدمكم فما أرى بينكم أحدا يشبههم . لقد كانوا شعثا غبرا . وقد باتوا سجدا وقياما . يراوحون بين جباههم

وخدودهم ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم إذا ذكر الله هملت أعينهم حتى تبل جيوبهم ومادوا كما يميد الشجر يوم الريح العاصف خوفاً من العقاب ورجاء للثواب فالزموا سمتهم. ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا »

أما الحياء فهو أن يحسن ارتداع النفس عن الأمور التي يقبح تعاطيها والاقدام عليها لملاحظتها من ذلك قبح الأحدوثة وتحريكه في القلوب بأن يصف الخطيب سماجة الأمر الذي يريد الصد عنه مع بيان قبح الأحدوثة بفعله والحياء أعمل في قلوب الأشراف منه في غيرهم. ومن أحسن مثيرات الحياء قول على رضى الله عنه لأهل الكوفة وكانوا قد خذلوه في حروبه « أيها الناس المجتمعة أبدانهم. المختلفة أهواؤهم. كلامكم يوهي (١) الصم الصلاب. وفعلكم يطمع فيكم عدوكم. تقولون في المجالس كيت وكيت فإذا جاء القتال قلتم حيدي (٢) حياد ماعزت دعوة من دعاكم. ولا استراح قلب من قاساكم. أعاليل بأضاليل. سألتموني التأخير

---

(١) يشق (٢) كلمة تقال عند قصد الابتعاد عن الشيء من الحيدان بمعنى الميل أي تنحى عنا أيتها الحرب اهـ م

هيهات دفاع ذى الدين المطول . لا يمنع الضيم الذليل ولا يدرك الحق إلا بالجد : أى دار بعد داركم تمنعون . أم مع أى إمام بعدى تقاتلون المغرور والله من غررتموه . ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب . فلا أصدق قوالكم . ولا أطمع فى نصركم . فرق الله بينى وبينكم . وأعقبنى بكم من هو خير لى منكم لوددت أن لى بكل عشرة منكم رجلا من بنى فراس بن غنم صرف الدينار بالدرهم »

والحلم الطمأنينة عند ثورة الغضب . وقد حده ابن سينا فى كتاب علم الأخلاق بقوله هو الامساك عن المبادرة إلى قضاء الغضب فيمن يجنى عليه جناية يصل مكروهها إليه . وقد يسمى هـذا كرما وصفحا وعفوا وتجاوزا . واحتمالا وكظم غيظ . وأقرب الوسائل لحسم الغضب وكظم الغيظ أمور

الأول . الاقرار بالذنب فأنه كما قيل الاعتراف يزول به الاقتراف . قال ابن حازم

إذ اما امرؤ من ذنبه جاء تائبا

إليك فلم تغفر له فلك الذنب

الثانى . الأخبات والخضوع . وذلك إذا كان الجانى دون المستعطف رتبة وقدرا أو كان ذنبه عظيما فعليه أن يذلل نفسه ، ويستكين لذوى القدرة متضرعا كما فعل ابراهيم المهدى عند المأمون بعد عصيانه عليه فأنشده

أذنبت ذنبا عظيما وأنت للعفو أهل

فأن عفوت فمنٌّ وإن جزيت فعدل

الثالث . ذكر الحلم وفضل كظم الغيظ على التشفى والانتقام بما جاء فى ذلك من الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح

الرابع . وصف ما يجنيه الحليم من الشكر والثناء والاسم المخلد قال البحترى

إذا أنت لم تضرب عن الحقد لم تفز

بشكر ولا تسعد بتقريظ مادح

الخامس . حسن تبرىء الجانى من ذنبه كما لو ذكر صفاء مودته . وحسن نيته فى صنيعه . وأنه لم يأت ما أتى الا سهوا . ويدمج كل ذلك فى الأسف على تغيظ المعاتب وإبداء الرغبة فى الرجوع عما ساءه كما كتب أبو المظفر أسامة

ابن مرشد إلى أبيه وكان مغتاظا عليه

وما أشكوا تلون أهل ودى
ولو أجدت شكايتهم شكوت

مللت عتابهم ويئست منهم
فما أرجوهم فيمن رجوت

إذا أدمت قوارصهم فؤادى
كظمت على أذاهم فانطويت

ورحت عليهم طلق المحيا
كأنى ماسمعت ولا رأيت

تجنوا لى ذنوبا ماجنتها
يدى ولا أمرت ولا نهيت

ولا والله ماأضمرت غدوا
كما قد أظهروه ولا نويت

ويوم الحشر موعدنا وتبدوا
صحيفة ماجنوه وما جنيت

السادس . انتهاز الفرص كيوم عيد ومجلس أنس مع الاستعانة بمن يشفعون من ذوى المنزلة

بهذه الوسائل يخمد الخطيب نار الغيظ ويدعو الى الحلم والتثبت

ومن قبيل الحلم الرحمة وهي رقة القلب على من حل به شيء من المكاره ويتوسل الخطيب الى تحريك الرحمة في القلوب (أولا) ببسط الكلام فيما لحق المصاب من البلايا والخطوب من ذكر الظروف التي تزيدها فجعة وتأثيراً كشدتها وفظاعتها ولا سيما إذا كان المبتلى من الأصحاب والأنسباء أو سيد قومه — ومن جيد ماجاء في الاسترحام رسالة يحيى البرمكي الى هرون الرشيد بعد نكبته وسجنه وقتل ابنه جعفر « من عبد أسلمته ذنوبه . وأوبقته عيوبه . وخذله صديقه . ورفضه شقيقه . فراغ به الزمان وأناخ عليه الحدثان . فصار الى الضيق بعد السعة . وعالج البؤس بعد الدعة . وافترش السخط بعد الرضا . واكتحل السهر . وافتقد الهجوع . فليلته دهر . وساعته شهر . قد عاين الموت وشارف الفوت . جزعا يا أمير المؤمنين « حجب الله عني فقدك » لما أصبت به من بُعدك . لا لمصيبتي بالأهل والمال والولد . فأن ذلك كان بك . وعارية في يدي منك . ولا بأس

أن تسترد الهوادي . أما المحنة بجعفر فبجرمه أخذته . وبجريرته عاقبته فاذكر يا أمير المؤمنين حرمتي ونصيحتي . وخدمتي وارحم ضعفي وشيبتي وهيء لى رضا منك فمن مثلى الزلل ومن مثلك الأقالة . وقد رجوت أن يظهر عند الرضا وضوح عذرى وصدق نيتى وظاهر طاعتى

انظر الى الشيخ الكبير فنفسه لك راجيه
اليوم قد ساب الزمان كرامتى وبهائيه
ورمى سواد مقاتلي فأصاب حين رمانيه
يكفيك ماابصرت من ذلى وذل مكانيه
إن كان لا يكفيك الا أن أذوق حماميه
فلقد لقيت الموت من قبل الممات علانيه
وفجعت أعظم فجعة وفنيت قبل فنائيه
يا نعمة الملك الرضا عودي علينا ثانيه

ثانيا . أن يبين أن من طرأت عليه المحن من ذوى الأخلاق الكريمة والأعمال النافعة . أو أنه موضع الرحمة ومحل الشفقة لضعفه واستقامته مثلا

ثالثا . أن يأتى ببعض آثاره يعرضها على مرأى السامعين

فتعمل رؤيتها فى قلوبهم كالو أراد حمل القلوب على الاشفاق لفقير فيظهر أطماره [١] ويورى صغاره أو لقتيل فيعرض جثمانه أو ثوبه مضرجا بالدم ومثخنا بالجراح وهلم جرا

وابما. وهو من أخص ما يهيج الرحمة فى القلوب أن يلوح على وجه الخطيب ويؤخذ من كلامه ما عملت فى نفسه فاجعة المصاب فأن ذلك أسرع نفاذا فى القلوب متى كان صادرا عن شعور صحيح ووجدان صادق

(الأصل الثانى ـ التنسيق وفيه عدة فصول)

والتنسيق فى اللغة التنظيم والترتيب . وفى الاصطلاح هو عبارة عن انتظام معانى الخطبة . وسياق أجزائها . وسرد أدلتها على نظام واحد

والمقصود منه إحكام ترتيب الخطبة . وارتباط أقسامها بحيث تكون أبين غرضا وأحسن وقعا فى النفوس

والتنسيق من أعظم أركان البلاغة فهو بمنزلة المصاف [٢] فى العسكر : فلا نصرة لجيش لم يرع حسن النظام . وكذلك

---

(١) جمع طمر كحمل وهو الثوب الخلق البالى (٢) مواقف القتال ـ م

لولا ترتيب الخطبة ما أصغى السامع الى كلام الخطيب أو ما أدرك الموضوع الا بعد جهد وعناء فلا يتأثر لمقاله مهما كان بليغا

(أقسام الخطبة)

قد اختلف فى تقسيم الخطبة فمنهم من قسمها إلى سبعة أقسام هى الفاتحة . والقضية والتقسيم . وإيضاح المقصد والاثبات . ورد الخصم . والخاتمة

ومنهم من زاد على ذلك ومنهم من نقص . وترجع هذه الاقسام إجمالا إلى ثلاثة أشياء . المقدمة . والاثبات والخاتمة .

(الفصل الاول فى المقدمة ـ وفيه مباحث)

المقدمة هى فاتحة الكلام ومرجع فحواه . ولما كانت بمثابة الأساس من البناء والرأس من الأعضاء وجب على الخطيب أن يصرف العناية فى إحكام وضعها وتطريز بردتها وأغراض الخطيب فى المقدمة ثلاثة

الاول ـ أن يستجلب الخواطر ويؤلف القلوب وهذا يؤخذ من حسن الافتتاح

الثانى ـ أن يطلع السامعين على ما يريده إجمالا وهذا يستفاد من بيان المقصد

الثالث ـ أن يرغب إليهم الاستماع ويحملهم على الأصغاء والأذعان لما يقول . ومرجعه الى تقسيم الخطاب

(المبحث الاول ـ فى حسن الافتتاح)

الافتتاح مطلع الكلام فى الخطبة وله آداب على الخطيب ألا يتعداها لأنه أول ما يطرق السمع من الكلام فلا بد فيه من حسن الاختيار ـ منها ـ سهولة اللفظ وصحة الترتيب . ووضوح المعنى . وتجنب الحشو فأن كان كذلك توفرت الدواعى على استماعه . وقد عرفت أن خطباء الاسلام كانوا يفتتحون خطبهم بالحمد لله لأن النفوس تتشوق الى الثناء عليه تعالى ثم يردفون بالصلاة والسلام على النبى صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه

وحسن الافتتاح هو ان يكون الابتداء لائقا بالمعنى الوارد بأن يأتى الخطيب فى صدر الخطبة بما يدل على المقصود منها فيكون الافتتاح مرتبطا مع الخطبة ارتباط الرأس

الجسد ومشتقا منها كما تتفتح الأنوار (١) عن أكمامها وهو براعة الاستهلال — وجملة الأمر أن المطلع هو أول ما يستأذن على السمع من الكلام فأن كان حسنا رائقا طريفا مناسبا للموضوع أذن له وتقبلته النفوس وتطلعت الى مايورده الخطيب بعدُ وحثها الشوق الى الآتى باضافته الى الماضى (هذا)

ويستهجن فى افتتاحات الخطب أمور (الأول) أن تكون مسهبة مستطيلة فيضجر السامع اطولها

(الثانى) . أن تكون مبتذلة مشاعة تصلح لكل خطابة (الثالث) ألا توافق الموضوع فتكون قلقة غير ملتحمة معه

وللافتتاح موارد كثيرة هذه أخصها (أولا) التستهل بحكمه رائقة . أو مثل سائر . أو قول مسلم به كما قال الاحنف ابن قيس فى خطبة خطبها بين يدى أمير المؤمنين على كرم الله وجهه . وكان وفد فى أهل البصرة الى على رضى الله عنه يطلبون منه أن يحفر لهم قناة ماء عذب تتصل بدجلة

---

(١) جمع نور بفتح فسكون ونوار كرمان وهو الزهر والاكمام جمع كم بالكسر غطاؤه اه — م

والفرات ـ « يا أمير المؤمنين إن مفاتيح الخير بيد الله . وقد أتتك وفود أهل العراق . وإن اخواننا من أهل الكوفة والشام ومصر نزلوا منازل الامم الخالية والملوك الجبابرة منازل كسرى وقيصر وبنى الاصفر . فهم من المياه العذبة والجنان المختلفة فى مثل حولاء[1] السلى . وحدقة البعير . تأتيهم ثمارهم غضة[2] ـ وإننا نزلنا نشاشة[3] لها طرف فى فلاة وطرف فى ملح أجاج : جانب منها منابت القصب . وجانب سبخة نشاشة لا يجف ترابها ولا ينبت مرعاها . تأتينا منافعها فى مثل مرى[4] النعامة ـ يخرج الرجل الضعيف منا يستعذب الماء من فرسخين . وتخرج المرأة بمثل ذلك ترنق[5] ولدها ترنيق العنز تخاف عليه العدو والسبع فالا ترفع خسيستنا[6]

---

(١) هى كالمشيمة للناقة جلدة خضراء مملوءة ماء تخرج مع الولد فيها اغراس وخطوط حمر وخضر ومنه نزلوا فى مثل حولاء الناقة بكسر الحاء وفتح الواو يريدون الخصب وكثرة المال والخضرة والسلى الجلدة التى فيها الولد فان كان من الناس سميت المشيمة

(٢) طرية (٣) النشاشة هى الارض التى انحسر عنها الماء

(٤) المرى مسح الضرع للحلب وهو هنا كناية عن العدم

(٥) الترنيق تربيط الولد بالوالدة

(٦) يقال رفعت من خسيسته اذا فعلت به فعلا يكون فيه رفعة

وتنعش ركيستنا.[1] وتجبر فاقتنا وتزد في عيالنا عيالا. وفي رجالنا رجالا. وتصفر دوهمنا. وتكبر قفيزنا وتأمر لنا بحفر نهر نستعذب به الماء هلكنا»

(ثانيا). قد يبتدىء الخطيب بذكر قول خصمه أو عرض القضية المخالفة لما حاول تقريره أو يذكر القضية على الوجه العام قبل أن ينتقل الى تخصيصها كقول أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وقد استهل خطابه بنعت الرجل الصالح المتعبد — «إن من أحب عباد الله إليه عبدا أعانه الله على نفسه فاستشعر[2] الحزن وتجلبب الخوف فظهر مصباح الهدى في قلبه. وأعد القرى ليومه النازل به. فقرب على نفسه البعيد. وهون الشديد. نظر فأبصر وذكر فاستكثر[3] وارتوى من عذب فرات. سهلت له موارده فشرب[4] نهلا

---

(١) الركيسة المركوسة وهي الناقة يشد الحبل في خطمها الى رسغ يديها فيطيف عليها فيبقى رأسها معلقا

(٢) استشعر لبس الشعار وهو ما يلي البدن من اللباس وتجلبب لبس الجلباب وهو ما يكون فوق جميع الثياب اهـ — م

(٣) استزاد من جلال الله وما وعد وأوعد (٤) النهل اول الشرب

وسلك سبيلا جددا [١]. قد خلع سرابيل الشهوات. وتخلى من الهموم إلا هما واحدا انفرد به. فخرج من العمى. ومشاركة أهل الهوى. وصار من مفاتيح أبواب الهدى. ومغاليق أبواب الردى. قد أبصر طريقه. وسلك سبيله وعرف مناره. وقطع غماره [٢]. استمسك من العرى بأوثقها ومن الحبال بأمتنها فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس. قد نصب نفسه لله سبحانه وتعالى فى أرفع الامور من إصدار كل وارد عليه. وتصيير كل فرع إلى أصله»

(ثالثاً): وكثيرا ماتؤخذ معانى الافتتاحات من أحوال الخطيب والسامعين أو من ظروف الزمان والمكان. فأن ما يأتى به لسان الحال أمتع فى النفوس وأعطف للخواطر

وأنواع الافتتاح أربعة ـ السهل ـ والجزل. والبديهى والملوح.

فالسهل ما يبين فيه الموضوع بلا تكلف وهو أحرى بالخطب العادية ومحافل الادب ومجالس التشاور والعظات

---

(١) الجدد بالتحريك الارض الغليظة المستوية ومثلها يسهل السير فيه
(٢) الغمار جمع غمر بالفتح معظم البحر اهـ — م

كقول أبي بكر رضي الله عنه يوم بويع بالخلافة - أيها الناس إني قد وليت عليكم ولست بخيركم . فأن رأيتموني على حق فأعينوني . وإن رأيتموني على باطل فسددوني . أطيعوني ماأطعت الله فيكم فأذا عصيته فلا طاعة لي عليكم ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له . وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم »

والافتتاح الجزل هو ما كان أنيق اللفظ شريف المعنى يزينه حسن التعبير ورونقه . وهو يصلح للظروف الخارقة للعادة . والمواقع الشريفة إذ يتوقع الجمهور مايترجم عن عظائم الأمور كقول أبي بكر رضي الله عنه يوم موت رسول الله صلى الله عليه وسلم - « أيها الناس إنه من كان يعبد محمدا فأن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فأن الله حي لايموت ثم تلا آية (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل)

وكقول عبد الله بن الزبير لما بلغه قتل أخيه مصعب فحمد الله وسكت وجعل لونه يحمر مرة ويصفر أخرى

واشتد عليه ذكر مقتل سيد العرب ثم تكلم فقال - « الحمد لله الذى له الخلق والأمر . والدنيا والآخرة . اللهم تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء (أما بعد) فانه لم يعز الله من كان الباطل معه وإن كان معه الأنام طرا . ولم يذل من كان الحق معه وإن كان فردا - ألا وإن خبرا من العراق أتانا فاحزننا وأفرحنا فأما الذى أحزننا فأن لفراق الحميم [1] لوعة يحزننا جميعها . ثم دعوى ذوى الالباب إلى الصبر وكريم العزاء - وأما الذى فرحنا فأن قتل المصعب له شهادة ولنا ذخيرة أسلمه النعام [2] المصام - ألا وإن أهل العراق باعوه بأقل من الثمن الذى كانوا يأخذون منه . فأن يقتل فقد قتل أخوه وابوه وابن عمه وكانوا الخيار الصالحين - إنا والله لا نموت حتفا ولكن

---

(١) الحميم القريب وهو ايضا الماء الحار

(٢) شبه اصحاب مصعب الذين انهزموا واسلموه لأعدائه بالنعام لأنه يضرب به المثل فى شدة العدو ولا سيما اذا نفر من شىء يخافه فأنه يسبق الريح ولعل وصفه بالمصام اخذاً من قول صاحب القاموس صام النعام رمى بذرقه اه — م

قصفا بالرماح وموتا تحت ظلال السيوف ليس كما يموت بنو مروان . الا إنما الدنيا عارية من الملك الأعلى الذى لايبيد ذكر هؤلاء ولا بذل سلطانه . فأن تقبل الدنيا على لم آخذها أخذ الأشر (١) البطر . وإن تدبر عنى لم أبك عليها بكاء الخرق المهين (٢)

ومن الجزل أيضا افتتاح أبي الحسن الأنباري قصيدته فى رثاء الوزير أبي طاهر لما صلبه عضد الدولة فقال

علو فى الحياة وفى الممات لعمرى تلك إحدى المعجزات

والافتتاح البديهى ما أصاب السامع على غير انتظار وأبرز عن صميم العواطف . ومقامه المواقع الباغتة والطوارىء المفجعة كقول صالح بن علي لأهل المدينة وكانوا قد استصغروا همته «يا أعضاء النفاق . وعبيد الضلالة . أغركم لين أساس . وطول إيناس . حتى ظن جاهلكم أن ذلك لفلول حد . وفتور جد وخور قناة . كذبت الظنون إنها لعترة بعضها من بعض .

---

(١) الأشر كالبطر كفر النعمة وعدم شكرها

(٢) خرق الرجل خرقا من باب تعب اذا دهش من حياء أو خوف اهـ — م

فاذا قد استوليتم العافية فمندى فطام [١] وفكاك [٢]. وسيف يقد الهام »

والاستهلال الملوح أو المعرض فى اللغة خلاف المصرح وفى الاصطلاح ما يخرج مخرج الكناية — والتلويح يأتى به الخطيب إذا احتاج الى استعطاف الخواطر النافرة أو كان المقصود عسر الخطة بعيد المتناول

وكثير من خطباء هذا العصر يقلد خطباء أوربا فى ترك هذه المقدمات رأسا ويباشرون الموضوع بدونها وهو خروج عن الطريقة المألوفة فى الخطابة

(المبحث الثانى فى بيان المقصد)

هو أن يظهر الخطيب ما يبنى عليه كلامه بتلخيص ما سيلقى فى عبارة جامعة جلية موجزة لتكون كالعنوان للكتاب وانما يكون هذا فى الخطب المتفق على اظهار المقصد منها ، فأما الخطب التى تدعو الحاجة فيها إلى الأيماء

---

(١) ما افطمكم به — (٢) ما أفككم به من أضر الشهوات

وإبهام الغرض منه لئلا ينفر السامع مما أراده. فالبلاغة قاضية بحذفه أو وضع مقصد يؤول إليه وكذلك إذا كان الغرض بينا جليا لا ينبغي إظهاره

والصفات الملائمة لبيان المقصد أربع

الأولى: أن يكون مترتبا على قضية واحدة فقط كما لو أردت أن تبنى الكلام على العدل فانك تقول إن العدل أساس عمران الممالك

الثانية: أن يكون واضحا لأن الغرض إذا كان بعيد المأخذ تعاصى على السامع فتبرم منه مثلا إذا كان الكلام على حسن الخلق قلت من ساء خلقه تنكدت معيشته أو على شرف العقل تقول خير المواهب العقل وشر المصائب الجهل

الثالثة: أن ينشط السامعين بابتكار صورته ولطيف مخرجه كما تقول فى كثرة خطوب الدهر الليل والنهار غرسان يثمران للبرية صنوف البلية. أو زوايا الدنيا مشحونة بالرزايا. وكقول الامام الشافعى رحمه الله تعالى

محن الزمان كثيرة لا تنقضى   وسروره يأتيك كالأعياد

الرابعة : أن تعود اليه بقية أقسام الخطبة لأنه كما قيل الخروج عما بنى عليه الكلام إسهاب

(المبحث الثالث فى تقسيم الخطاب)

التقسيم فى اللغة مصدر قسمت الشىء إذا جزأته . وفى اصطلاح الخطباء هو تفصيل المقصد بأجزائه بعد ذكره مجملا كقول بعض الحكماء يعدد مرافق الدنيا . تطلب الدنيا لثلاثة أشياء الغنى . والعزة . والراحة . فمن قنع استغنى . ومن زهد فيها عز . ومن قل سعيه استراح

وللتقسيم فوائد كثيرة . منها ما يعود إلى نفس الخطيب من حيث إنه وقاية له من الهزر والخروج عن الموضوع وتكرار المعانى . ومنها ما يعود على السامعين لأن تفصيل الخطاب يسهل عليهم إدراك الموضوع ويروح خاطرهم هذا إلى أن التقسيم يفيد الخطبة حسنا وجمالا وإيضاحا كقول الخليفة المأمون فى تقسيم الأخوان : الأخوان على ثلاث طبقات . طبقة كالغذاء لا يستغنى عنه . وطبقة كالدواء يحتاج إليه أحيانا . وطبقة كالداء لا يحتاج إليه أبدا . وصفات التقسيم الحسن أربع (الأولى) أن تكون القسمة شاملة لكل

أجزاء الموضوع لا يخرج عنها جزء من أجزائه كقول يونس النحوى فى أصناف السكر ـ السكر خمسة: سكر الشباب . وسكر الشراب . وسكر المال.وسكر العشق . وسكر الولاية . وقد جمعت فى هذا البيت

سكرات خمس اذا منى المرء
بها صار عرضة للزمان
سكرة المال والحداثة والعشـ
ـق وسكر الشراب والسلطان

فليس من حسن التقسيم قول بعضهم.أشد أمور الدنيا وأصعبها محاربة العدو وركوب البحر . فأن الشدائد في الدنيا أكثر من أن يفى بها إحصاء

الثانية : أن تكون الأقسام متباينة لايدخل بعضها فى بعض فليس من حسن التقسيم قول البعض فى تقسيم الناس إن الناس ثلاثة . عاقل . وأحمق . وفاجر. لأن الفاجر يجوز أن يكون عاقلا أو أحمق ـ وقوله فى الصديق · الصديق لأمرين . إما ينفع وإما يشفع فأن الشفاعة من المنافع

الثالثة : أن تكون واضحة يتلقاها عقل السامع بسهولة

فترسخ فى ذهنه كقول على رضى الله عنه فى أفضل الوراثة ثلاثة هى أفضل ما يورثه الآباء الابناء. الثناء الحسن. والأدب الصالح. والأخوان الثقاة

الرابعة: أن تكون مبتكرة موجزة كقول الحسن بن على رضى الله عنه الذى قسم الناس الى ثلاثة أقسام فأنه أوجز وأصاب - الناس ثلاثة: فرجل رجل. ورجل نصف رجل. ورجل لا رجل. فأما الرجل فذو الرأى والشورى وأما نصف الرجل فالذى له رأى ولا يشاور. وأما الذى ليس برجل فالذى لارأى له ولايشاور - وكقول خوارزم شاه مأمون بن مأمون فى دواعى المحبة - ثلاثة تورث المحبة الادب. والتواضع. والدين - وقول آخر فى قصر الزمان

إنما هـذه الحياة متاع والسفيه الغبى من يصطفيها
ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التى أنت فيها

(الفصل الثانى فى الاثبات. وفيه مبحثان)

هو فى اللغة التمكين يقال أثبت الأمر جعله مستمكينا

وفى الاصطلاح عبارة عن تأييد القضية بالبرهان وهو قطب الخطابة وغاية مقصود السامعين

والاثبات قسمان إيجابي وهو ما اشتمل على تصديق القضية وتعزيزها بالأدلة اللامعة والحجج الدامغة ويسمى التبيان — وسلبي يفند به الخطيب حجج الخصم ويدحض مقاله ويسمى التفنيد

(المبحث الاول فى تبيان القضية)

وطريق التبيان معرفة علم البحث والجدل. والبحث فى اللغة الفحص وفى اصطلاح أهل النظر يطلق على حمل شيء على آخر ثم خصوه باثبات القضية بالدليل ويترتب علم البحث فى إثبات القضية على معرفة القياس: فبه يتوصل الخطيب إلى تأييد رأيه وتخطئة رأى خصمه والكلام على القياس وأنواعه والجدل وطرقه مبسوط فى علمى المنطق وآدب البحث وأمرهما هين عليك إلا ان القياس المنطقى يختلف عن القياس الخطابى من وجهين

الاول — أن المنطق يتبع اليقينيات أما الخطابى فانه

يستند إلى المقبولات والمظنونات لكفايتها فى الاقناع وهى القضايا التى يحكم بها لاعتقاد الناس صحتها ولثبوتها بحكم الظن كقولك فلان متلطخ بالدم فهو قاتل (والوجه الثانى) أن المنطقى عادة لا يتصرف فى القياس بخلاف الخطيب فانه يتصرف فى المقدمات بالتقديم والتأخير على ما يراه أقرب لغايته وأوفق كقول الامام على رضى الله عنه يحض أنصاره على اقتفاء آثاره — « إنى إمامكم وأسوتكم . فسيروا بسيرتى واقتفوا معالمى فان لكل مأموم إماما يقتدى به . ويستضىء بنور علمه . ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه[1] ومن طعامه بقرصيه » — وكقول صاحب كتاب زجر النفس وقد أراد أن يثبت ألا لذة فى الدنيا . يا نفس ينبغى أن تعلمى وتتيقنى أن حد اللذة بالحقيقة هو ما لا يمل . ومتى طلبت النفس فى السكون لذة فقد سمت الى غير موجود وطلبت ما لا يمكن . والدليل البين على هذا أن جميع ما تشتاقه النفس فى هذه الدنيا مملول . والمملول لا ينبغى أن يسمى لذة

---

(١) مثنى طمر وهو الثوب الخلق ويجمع على اطمار م

يستند إلى المقبولات والمظنونات لكفايتها فى الاقناع وهى القضايا التى يحكم بها لاعتقاد الناس صحتها ولثبوتها بحكم الظن كقولك فلان متلطخ بالدم فهو قاتل (والوجه الثانى) أن المنطقى عادة لا يتصرف فى القياس بخلاف الخطيب فانه يتصرف فى المقدمات بالتقديم والتأخير على ما يراه أقرب لغايته وأوفق كقول الامام على رضى الله عنه يحض أنصاره على اقتفاء آثاره — « إنى إمامكم وأسوتكم . فسيروا بسيرتى واقتفوا معالمى فان لكل مأموم إماما يقتدى به . ويستضىء بنور علمه . ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه[1] ومن طعامه بقرصيه » — وكقول صاحب كتاب زجر النفس وقد أراد أن يثبت ألا لذة فى الدنيا . يا نفس ينبغى أن تعلمى وتتيقنى أن حد اللذة بالحقيقة هو مالا يمل . ومتى طلبت النفس فى السكون لذة فقد سمت الى غير موجود وطلبت مالا يمكن . والدليل البين على هذا أن جميع ما تشتاقه النفس فى هذه الدنيا مملول . والمملول لا ينبغى أن يسمى لذة

(١) مثنى طمر وهو الثوب الخلق ويجمع على اطمار م

خوفهم منه فى بدء خطابه . يبيان فضلهم عليه ولو من بعض الوجوه (ومنها) مايفترضها الخطيب لتواترووقوعها ويعرضها على نفسه ويبطلها كتفنيد حجج من يتهاون بالمعاصى اتكالا على حلم الله تعالى وكرمه وسعة رحمته . أو من يؤجل التوبة رجاء أن ينيب إلى ربه فى ساعة الموت (ومنها) مايأتى بها الخصم فى المقاضاة والمشارعة فى الدعاوى

ومن أحسن أمثلة التفنيد فى باب الخطابة ما أخبر به المدائنى عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال كان عمرو فى موسم من مواسم العرب فأطرا معاوية بن أبى سفيان وذكر مشاهده بصفين واجتمعت قريش وأقبل عبد الله بن عباس على عمرو فقال ياعمرو إنك بعت دينك من معاوية وأعطيته ما بيدك ومناك ما بيد غيرك وكان الذى أخذ منك أكثر من الذى أعطاك والذى أخذت منه دون الذى أعطيت وكل راض بما أخذ وأعطى فلما صارت مصر فى يدك كدرها عليك بالعزل والتنغيص حتى لو كانت نفسك فى يدك ألقيتها . وذكرت مشاهدك بصفين فوالله ماثقلت على وطأتك ولقد كشفت فيها عورتك وإن كنت فيها لطويل اللسان . قصير

السنان آخر الخيل اذا أقبلت وأولها اذا أدبرت . لك يدان يد لا تبسطها إلى خير . وأخرى لا تقبضها عن شر . ولسان غرور ذو وجهين وجه موحش ووجه مؤنس ولعمرى إن من باع دينه بدنيا غيره لحرى أن يطول عليه ندمه . لك لسان وفيك خطل [١] . ولك رأى وفيك نكد [٢] ولك قدر وفيك حسد . وأصغر عيب فيك أعظم عيب فى غيرك فأجابه عمرو بن العاص . والله ما فى قريش أثقل علىّ مسألة ولا أمرّ جوابا منك . ولو استطعت ألاّ أجيبك لفعلت غير أنى لم أبع دينى من معاوية ولكن بعت الله نفسى ولم أنس نصيبى من الدنيا . وأما ما أخذت من معاوية وأعطيته فانه لا تعلّمُ [٣] العوانُ الخِمْرة واما ما أتى الىّ معاوية فى مصر فأن ذلك لم يغيرنى له . وأما خفة وطأتى عليكم بصفين فلِمَ استثقلتم حياتى واستبطأتم وفاتى ؟ وأما الجبن فقد علمت

---

(١) خطل فى منطقه ورأيه من باب تعب أخطأ

(٢) فى القاموس نكد زيد حاجة عمرو منعه اياها .

(٣) العوان المرأة التى كان لها زوج والخمرة بكسر فسكون هيئة لبس الخمار وهو ثوب تغطى به المرأة رأسها والجملة مثل يضرب لمن استغنى بعلمه وتجاربه عن الاستعانة برأى غيره . م

قريش انى أول من يبارز وآخر من ينازل . وأما طول لسانى فانى كما قال هشام بن الوليد لعثمان بن عفان

لسانى طويل فاحترس من شذاته[1]
عليك وسيفى من لسانى أطول

وأما وجهاى ولساناى فأنى ألقى كل ذى قدر بقدره . وأرمى كل نابح بحجره . فمن عرف قدره كفانى نفسه . ومن جهل قدره كفيته نفسى ولعمرى ما لأحد من قريش مثل يدرك ما خلا معاوية فما ينفى ذلك عندك وأنشأ عمرو يقول :ـ

بنى هاشم مالى أراكم كأنكم
بى اليوم جهال وليس بكم جهل

ألم تعلموا أنى سريع إلى الوغى
سريع إلى الداعى إذا كثر القتل[1]

وأول من يدعو نزال طبيعة
جبلت عليها والطباع هى الجبل[2]

---

(١) الشذاة ما كسر من العود جمعها شذى كحصاة وحصى
(٢) الجبل بضم فسكون الشجر اليابس اهـ ـ م

وأنى فصلت الأمر بعد اشتباهه

بدومة اذ أعيا على الحكم الفصل (١)

وأنى لا أعيا بأمر أريده

وانى إذا عجت بكاركمو خل

ومما يحتاج إليه الخطيب أيضا المغالطة لافحام الخصم وهى فى اللغة النسبة إلى الغلط وعند المنطقيين هى صناعة يعرف بها القياس الفاسد إما من جهة الصورة أو من جهة المادة أو منهما معا — ومو ادها المقدمات الشبيهة بالحق وليست به ثم إنها تنقسم إلى ما يتعلق بالألفاظ بأن تكون مختلفة الدلالة فيقع الاشتباه بين ما هو المراد وبين ما هو غيره ويدخل فيه الاشتراك والتشبيه والمجاز والى ما يتعلق بالمعانى وتأليف القياس كعدم صحة مقدماته أو مغايرة النتيجة

---

(١) يشير الى حادثة تحكيمه هو وأبو موسى الاشعرى فى نزاع على ومعاوية رضى الله عنهم أجمعين والقصة مشهورة م

لأحدى المقدمتين مثال المغالطة المعنوية قول الامام على يرد على معاوية وكان نسب إليه أشياء

(وزعمت أنى لكل الخلفاء حسدت. وعلى كلهم بغيت. فان يكن ذلك كذلك فليست الجناية عليك فيكون العذر اليك (وتلك شكاة ظاهر عنك عارها) وقلت إنى كنت اقاد كما يقاد الجمل المخشوش[1] حتى أبايع. ولعمر الله لقد أردت أن تذم فمدحت وأن تفضح فافتضحت. وما على المسلم من غضاضة فى أن يكون مظلوما ما لم يكن شاكا فى دينه ولا مرتابا بيقينه. وهذه حجتى إلى غيرك قصدها ولكنى أطلقت لك منها بقدر ما سنح من ذكرها. ثم ذكرت ما كان من امرى وامر عثمان فلك أن تجاب عن هذه لرحمك منه فأينا كان أعدى له وأهدى إلى مقاتله. أمن بذل له نصرته فاستقعده واستكفه أم من استنصره فتراخى عنه وبث المنون إليه. حتى أتى قدره عليه. ؟ كلا والله لقد علم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم الينا ولا يأتون البأس إلا قليلا وما كنت لأعتذر من انى كنت انقم عليه أحداثا

---

(١) المجعول فيه الخشاش وهو عود يجعل في عظم انف البعير — م

إن كان الذنب إليه إرشادي وهدايتي له فرب ملوم لا ذنب له . وقد يستفيد الظنة[١] المتنصح . (وما أردت إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) .

وللخطيب وسائل أخرى لمناقضة الخصم . منها التنديد بأن يعرض بمعايب الخصم لا بإبطال حجته كما جاء في كتاب إخوان الصفاء على لسان الببغاء ترد على الإنس وكانوا تفاخروا بملوكهم وساستهم وتنتصر للحيوان – « خذ الآن أيها الإنسي بإزاء ما ذكرت وافتخرت به واحدا مذموما وبدل كل جنس حسن مليح جنسا قبيحا سمجا ونحن بمعزل عنها وذلك أن منكم الفراعنة والنماردة والفسقة والمنافقين وقطاع الطرق واللصوص ومنكم أيضا الدجالون والكذابون والغمازون والمشاءون وكيت وكيت من كل أخلاق بني آدم المذمومة ونحن بمعزل عنها ونشارككم في أكثر الخصال المحمودة والسنن العادلة ولنا ملوك خير من ملوككم أو ما علمت أن لجماعة النحل والنمل والسباع والطيور رؤساء وجنودا وأعوانا

---

(١) الظنة بالكسر التهمة والمتنصح مأخوذ من التنصح وهو النصح قال أكثم يا بني إياكم وكثرة التنصح فإنه يورث التهمة م

ورعية وإن رؤساءها أحسن سياسة وأشد رعاية وتحننا عليها من رؤسائكم ذلك أن رئيس الانس لا ينظر فى أمور رعيته إلا لجلب المنفعة لنفسه أو لدفع المضرة عنه أو من يهواه لشهواته كائنا من كان من بعيد أو قريب وليس هذا من فعل الرؤساء العقلاء ولا أهل ذوى السياسة الرحماء فان من سياسة الملك وشرائطه وخصال الرياسة أن يكون الرئيس رحيما رءوفا برعيته مشفقا حنانا على جنوده وأعوانه اقتداء بسنة الله الرحيم الرحمن الودود بخلقه كائنا من كان وهو رئيس الرؤساء وملك الملوك

وأما أجناس الحيوانات وملوكها ورؤساؤها فهم اكثر اقتداء بسنة الله تعالى ذلك أن ملك النحل ينظر فى أمور رعيته ويتفقد أحوالها وهكذا بقية ملوك الحيوانات التى لها رؤساء ومدبرون لا يطلبون من رعاياهم عوضا ولا جزاء فيما يسوسونهم به ولا يطلبون من أولادهم برا ولا مكافأة فى تربيتهم بل تربى أولادها تحننا عليها ورأفة بها كل ذلك اقتداء بسنة الله إذ خلق عبيده وأنشأهم ورباهم وأنعم عليهم وأحسن إليهم وأعطاهم من غير سؤال منهم ولم يطالب على ذلك

جزاء ولا شكوراً . واليكم يوجه الأمر والنهى والوعد والوعيد معشر الانس دوننا لأنكم عبيد سوء يقع منكم الخلاف والكفر والعصيان والطغيان وانتم بالعبودية أولى منا ونحن بالحرية أولى منكم فمن أين زعمتم أنكم أرباب لنا ونحن عبيدلكم (ومنها) الاستدراك بأن يقابل اعتراضات الخصم باعتراضات مثلها توهن قواها وتفكك عراها كقول أبي حمزة الخارجي وقد بلغه أن اهل المدينة يعيبون أصحابه لحداثة أسنانهم . وخفة أحلامهم . فصعد المنبر وعليه كساء غليظ وهو [١] متنكب قوساً عربيا فقال : ـ «يا أهل المدينة بلغني انكم تنتقصون أصحابي . قلتم هم شباب أحداث واعراب جفاة . ولولا معرفتي بضعف رأيكم وقلة عقولكم لأحسنت آدابكم . ويحكم يا أهل المدينة وهل كان أصحاب نبينا المذكورون في الخير إلا احداثا شبابا . شباب والله مكتهلون في شبابهم . عفيفة عن الشر أعينهم . ثقيلة عن الباطل أقدامهم قد باعوا أنفسا تموت غدا بأنفس لا تموت أبدا فطوبى لهم وحسن مآب»

---

(١) تنكب قوسه وضعه على منكبه وهو مجمع رأس الكتف والعضد

ومنها التهكم بأن يبين أن ماجاء به الخصم من الأدلة لاقيمة له كقول الامام على رضى الله عنه لمعاوية رضى الله عنه وكان تهدده بالحرب وذكرت انه ليس لى ولاصحابى إلا السيف « فلقد اضحكت بعد استعبار » متى الفيت بنى عبد المطلب عن الاعداء نا كلين وبالسيوف مخوفين (فلبث قليلا يلحق الهيجا حمل) . فسيطلبك من تطلب . ويقرب منك ما تستبعد . وأنا مرقل [1] نحوك فى جحفل [2] من المهاجرين والانصار والتابعين لهم باحسان . شديد زحامهم . ساطع قتامهم [3] متسربلين سرابيل الموت أحب اللقاء إليهم لقاء ربهم قد صحبتهم ذرية بدرية وسيوف هاشمية قد عرفت مواقع نصالها فى أخيك وخالك وجدك وأهلك « وما هى من الظالمين ببعيد » وينبغى للخطيب أن يحترز فى تفنيد حجج الخصم ويصون نفسه من أربع خصال (الأولى) أن يؤخذ من رده أنه غافل عن حجة خصمه يجهل قوتها أو يتجاهل بها

---

(١) مأخوذ من أرقلت الناقة ارقالا وهو نوع من السير السريع
(٢) الجحفل كجعفر الجيش الكثير
(٣) القتام وزان كلام الغبار الأسود . ا . هـ . م

(الثانية) أن يكون جوابه ملتبسا ضعيفا أقرب الى التكلف لمناظرة الخصم منه لتقرير الحق وإظهار الصواب (الثالثة) أن يخرج عن الموضوع فيتشاغل بحل مالم يكلفه الخصم حله فيكون كالراقم على صفحات الماء (الرابعة) أن يخرج عن محجة الآداب المأنوسة ويذهل عن سنن الألفة والاخاء متى كانت الغاية نصرة الحق والأخذ بيد الفضيلة

(الفصل الثالث فى الختام)

هو آخر ماينتهى الى اذن السامعين من كلام الخطيب وهو مايشترك فيه الخطيب والأديب ويسمى حسن الانتهاء وحسن المقطع - وكما يجب التأنق فى المطلع تجب البراعة فى المقطع اذ هو الأثر الباقى فى نفوس السامعين بعد الاتمام وآخر ما يتردد صداه فى قلوبهم وبه تتم الفائدة ولأنه قد يستر عوار ماقبله عند النفوس التى لا تتعمد النقد: قال الحموى لابد أن يحسن المتكلم غاية الاحسان فى الختام لانه آخر مايبقى فى الاسماع وربما حفظ من دون سائر الكلام فى غالب

الأحوال فلا يحسن السكوت على غيره وأمثلة حسن الختام كثيرة فى القرآن الكريم وخطب البلغاء من ذلك خاتمة البقرة وآل عمران والنساء وبراءة . فانظرتها غاية فى الحسن ونهاية فى الابداع . فانها بين أدعية ووصايا وفرائض ووصف رسول الله صلى الله عليه وسلم ومدحه وتسليته ووصيته بالثقة بالله تعالى والتهليل والتفويض إليه سبحانه

والغاية من حسن المقطع . أمران : أن يتم إقناع السامعين حتى لا يبقى للنفوس بعده تطلع وهذا يكون بذكر مجمل ما أتى به مفصلا . وأن يهيج بهم الميل الى العمل بما أذعنوا له وذلك يكون بالمبالغة فى تحريك العواطف والمهارة فى التأثير — وعلى الخطيب اذا لخص الخطبة أن يكتفى بذكر أهم ما جاء فيها من البينات فيبرزها على صورة جديدة وأسلوب رشيق لئلا تذهب طلاوة الكلام . مثال ذلك ختام الشيخ جمال الدين الافغانى رحمه الله لمقالته فى مذهب الطبيعيين قال : — «فتبين مما قررنا أن الدين وإن جفاه أهله فهو أفضل من طريقة الدهريين وأمس بالمدنية ونظام الجمعية الاسلامية . وأجمل أثرا فى عقد روابط المعاملات . بل فى

كل شأن يفيد المجتمع الانسانى. وفى كل ترق بشرى الى أية درجة من درجات السعادة فى هذه الحياة الاولى - ولما كان نظام الأكوان قد بنى على أساس الحكمة ونظام العالم الانسانى جزء من جزء من النظام الكونى ألهم الله نفوس البشر أن تنزع الى مقاومة أولئك المفسدين (الدهريين) فى أى زمان ظهروا. أو مدافعة مايعرض من شرهم كما ألهمهم الفزع من الحيوانات المفترسة. والنفرة من الأغذية السامة. وأنهض حفاظ النظام المدنى الحقيقى (وهو الدين) لبذل الجهد وإفراغ الوسع فى محو آثارهم. واستئصال مايغرسون فى تعاليمهم. فكان عارض السوء منهم كسحابة الصيف كلما ظهر تقشع - والنظام الحقيقى لنوع الانسان (وهو الدين) لم يزل قارًّا راسخا فى جميع الاجيال. وعلى أى الاحوال.

فلم تبق ريبة أن الدين هو السبب الفرد لسعادة الانسان. فلو قام الدين على قواعد الامر الالهى الحق ولم يخالطه شىء من أباطيل من يزعمونه ولا يعرفونه فلا ريب أنه يكون سببا فى السعادة التامة والنعيم الكامل. ويذهب بمعتقديه فى جواد الكمال الصورى والمعنوى. ويصعد بهم الى ذروة

الفضل الظاهري والباطني . ويرفع أعلام المدنية لطلابها . بل يفيض على المتمدنين من ديم الكمال العقلي والنفسي ما يظفرهم بسعادة الدارين . والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم »

ولا يمكن للخطيب أن يصل الى تمام التأثير الا اذا أفرغ كنانة مجهوده في تحريك الأهواء فيلتجيء تارة الى التحذير والترهيب وأخرى الى الوعد والترغيب . وآونة يحمل السامعين على الرجاء وأخرى على الخوف والحياء وصفوة القول عليه ألا يترك باباً من أبواب التأثير الا ويقرعه ولا مسلكا الا وينهجه . ليغرس الفضيلة ويقلع الرذيلة وبالله تعالى التوفيق .

(الاصل الثالث ـ في التعبير)

غير خاف ان للتعبير شأناً عظيماً في الخطابة لأنه كساء الكلام به تنال الخطبة رونقها وبهاءها كما يزين الثوب لابسه . فاذا حرم الخطيب حسن التعبير فلا أثر له في إرادة السامع ولا سلطان له على قلبه بل تبقى عواطفه جامدة باردة . ولا يندفع الى العمل بما يقصده منه ويستحب فيه فضلاء

وضوحه وفصاحته أن يكون غزير المادة متمقا بالاشكال البديعة الملائمة آخذا بمجامع القلوب نحو الجوارح الى استماعه فيه من الانسجام والتفنن .

وإن التعبير يدخل فى فن الانشاء . ولما كان المنشىء والخطيب بمنزلة واحدة من حيث توجيه الكلام نحو الغير لم تكن للخطيب حاجة الى قواعد خاصة لتأدية مراده أكثر مما يعلم من فن الانشاء . وإنا نذكر لك الآن مايهم الخطيب منه وهو أمور :ـ

(الأول التفنن)

وهو أن يأخذ بأنواع من الكلام وأفانين من القول ويذهب فيه الى طرق شتى وأساليب متنوعة فيلبس المعنى الواحد عدة أثواب ويكسو غرضه حللا مختلفة من الجمل والتراكيب فيكون قد أتى بشيء يجذب النفوس الى استماعه فانها ميالة الى حب الجديد — بخلاف ما إذا التزم أسلوبا واحداً من الكلام فانه بذلك يوقع السامعين فى الملل والسآمة .
والقرآن الكريم شاهد على التفنن مع حسن الاسلوب

ومتانة السياق وعذوبة الالفاظ ودقة المعاني وبعدها عن مظنة التكرار وذلك كما في قصة آدم عليه السلام وأكله من الشجرة وهبوطه من الجنة ـ وكما في قصة ابراهيم عليه السلام مع ضيفه ـ وقصة موسى عليه السلام مع فرعون. فان هذه القصص ذكرت في القرآن الحكيم في عدة مواضع مع تفنن في العبارة مما يظنه الجاهل بأساليب البلاغة تكراراً وليس به . بل هو غاية في الابداع ونهاية في الاعجاز

(الثاني متانة الاسلوب)

ومما ينبغي رعايته أن يعمد الخطيب بعد استحضار المعاني الى الالفاظ التي يريد أداءها بها فيفرغ المعنى في قالب يناسبه ـ فالمعاني الجزلة لا بد لها من جمل وتراكيب في غاية الضخامة والفخامة. والمعاني الرقيقة المستملحة لا بد لها من ألفاظ تناسبها رقة وسلاسة ليحصل التشاكل في النوعين وتكون المعاني مع الألفاظ كالعروس المجلوة في الثوب القشيب

وأصدق شاهد على ذلك ما تراه في قوارع القرآن الكريم من جزالة المعاني وفخامة التراكيب عند ذكر مفارقة الدنيا

والحساب والعذاب وأهوال يوم القيامة

وما تراه أيضاً عند ذكر الرحمة والمغفرة وما يدل على البشارة والملاطفات فى خطابات الانبياء والمرسلين والتائبين والمنيبين من العباد . وغير ذلك مما استعمل فيه رقيق العبارة مع تمام الانسجام بين المعانى والالفاظ

فالأول كقوله تعالى (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض الا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون . الى . . . فبئس مثوى المتكبرين)

فهذه الآيات الكريمة المتضمنة ذكر الحشر على تفاصيل أحواله . وشديد أهواله وذكر النار والعذاب لاتجد فيها كلمة الا وهى جزلة مستعذبة على ما بها من الضخامة الملائمة لجزالة المعنى المقصود منها ـ وكذلك كل آية سيقت للأرهاب والتخويف ، والانذار والوعيد تراها فى منتهى الجزالة وضخامة التراكيب ومتانة الاساليب البالغة حد الاعجاز

والثانى كقوله تعالى (وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها

سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . . . الى آخر السورة ـ)
فانها لاشتمالها على دخول الجنة والتنعم بما فيها من النعيم المقيم
والحصول على ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين قد اشتملت على
رقيق الألفاظ ولطيف المعاني المسوقة للتشويق الى نيل
تلك المنزلة العالية الرفيعة .

وانظر الى حسن الملاطفة ولطف الملاينة في أدق معانيها
وأرق مبانيها في مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم في قوله
تعالى (والضحى والليل اذا سجى ما ودعك ربك وما قلى)
السورة . فانك تجدها تشف عن تمام العطف عليه والرضا
عنه صلوات الله وسلامه عليه

وانظر الى تقديم العفو قبل العتاب في قوله تعالى (عفا
الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين)
فانها على وجازتها دلت على عدم المؤاخذة وكمال
الملاطفة وتمام الرضا عنه صلى الله عليه وسلم : وبالتأمل نرى
سبيل القرآن الكريم في كلتا الحالتين من الجزالة والرقة على
هذا الاسلوب الحكيم الذي أعجز أساطين البلاغة عن
معارضته والاتيان بأقصر سورة من مثله

وكذلك سبيل قدماء العرب قبل الاسلام كما كان من قبيصة بن نعيم لما قدم على امرىء القيس فى أشياخ بنى أسد وأشرافهم يسألونه العفو عن دم أبيه حجر — وكان قبيصة ذا بصيرة بمواقع الامور ورداً وإصداراً. فلما علم امرؤ القيس بمكانهم أمر بانزالهم وتقدم باكرامهم والافضال عليهم واحتجب عنهم ثلاثاً فسألوا عنه فقيل لهم هو فى شغل باخراج ما فى خزائن أبيه حجر من السلاح والعدة. فقالوا اللهم غفراً إنما قدمنا فى أمر نتناسى به ذكر ما سلف. ونستدرك به ما فرط فليبلغ ذلك عنا. فخرج عليهم فى عمامة سوداء وكانت العرب لا تلبسها إلا فى الترات فقاموا له وبدر اليه قبيصة فقال له مستعطفاً: «انك فى القدر والمحل من المعرفة بتصرف الدهر وما تحدثه أيامه وتنتقل به أحواله بحيث لا تحتاج الى تذكير من واعظ ولا تبصير من مجرب. ولك من سؤدد منصبك وشرف اعراقك وكرم أصلك فى العرب محتد يتحمل ما حمل عليه من إقالة العثرة والرجوع عن الهفوة. ولا تتجاوز الهمم الى غاية إلا رجعت اليك فوجدت عندك من فضيلة الرأى وبصيرة الفهم وكرم الصفح ما يطول رغباتها ويستغرق

طلباتها . وقد كان ذلك الخطب الجلل الذى عمت رزيته نذارا والبين . ولو كان هالك يفدى بالأنفس الباقية بعده المخلت كرامنا بها على مثله ولكنه مضى به سبيل لا ترجع أخراه على أولاه . ولا يلحق أقصاه أدناه . فأحمد الحالات فى ذلك أن تعرف الواجب عليك فى أحد أمرين : — إما أن تختار من بنى أسد أشرفها بيتاً وأعلاها فى بناء المكرمات صوتاً فنقوده اليك بنسعة [1] تقتص منه كما تشاء فنقول رجل امتحن بهالك عزيز فلم يستل سخيمته [2] الا تمكنه من الانتقام . واما أن نفتديه بما ترضاه من نعم بنى أسد فهى ألوف فيكون ذلك فداء ترجع به القضب [3] الى أجفانها » فبكى امرؤ القيس طويلا ثم رفع رأسه وقال : لقد علمت العرب أن لا كف لحجر فى دم وانى لن اعتاض منه جملا ولا ناقة فأكتسب بذلك سبة الدهر وفتاً فى العضد . وسترون طلائع كندة من بعد ذلك تحمل فى القلوب حنقا . وفوق الأسنة علقا

(اذا جالت الحرب فى مأذق

تصافح فيه المنايا النفوسا)

---

(١) هى القطعة من النسع بالكسر وهو سير تشد به الرجال (٢) السخيمة الحقد (٣) جمع قضيب وهو السيف والاجفان جمع جفن وهو غمده — م

أتقيمون أم تنصرفون قالوا بلى ننصرف بأسوأ الاختيار وأبلى الاجترار . بمكروه واذية . وحرب وبلية — ثم نهضوا عنه وقبيصة يتمثل بقوله :ـ

لعلك أن تستوخم الورد إن غدت
كتائبنا فى مأزق الحرب تخطر

فقال لا والله ولكنى استعد به فرويداً ينفرج لك دجى الامر بفرسان كندة وكتائب حمير . ولقد كان ذكر غير هذا أولى بك إذ أنت نازل بربعى ـ فقال قبيصة نعم ولكنك قلت فأوجبت . فقال امرؤ القيس هو ذاك :

فانظر الى كلام قبيصة فى استعطافه امرأ القيس وما حواه من الرقة وحسن الاستعطاف فى استنزال امرىء القيس عما صمم عليه من سوء الانتقام بإثارة غبار الحرب لأخذ الثأر من قتلة أبيه ـ فإنك ترى ألفاظه رقيقة سهلة متناسبة مع المعنى الذى يقصده بخلاف كلام امرىء القيس فانه على جزالة ألفاظه وضخامتها قد اشتمل على الشدة والانذار بسوء العاقبة وشر المنقلب حتى أحرج صدر قبيصة فقابل الشدة بالشدة والخشونة بمثلها . وعلى الجملة فلكل مقام مقال يتسق مع

معنا. والقرآن الحكيم وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقوال السلف الصالح في الوعظ والارشاد والخطب والرسائل أعظم مرشد يهديك الى الغاية المقصودة وبالله تعالى التوفيق

(الثالث الاقتباس)

وهو أن يأخذ المتكلم شيئاً من كلام غيره فيدرجه فى كلام نفسه بعد التمهيد له لتأكيد ما أتى به من المعنى فانه كان قليلا فهو إبداع وان كان كثيراً فهو تضمين. وعلى كل فانه يكون من كلام الله عز وجل او من كلام رسوله صلى الله عليه وسلم او من كلام البلغاء وغيرهم. وقد رخص بعض العلماء فى تضمين بعض آيات القرآن في الخطب والمواعظ حتى استعمله كثير من الناس مالم يخرج القرآن فى التضمين عن الغرض المسوق له. وكان يعطى الكلام حلاوة وطلاوة والا منع منه. فمن الجائز قول بعضهم :—

أيها السائل قوما ما لهم فى الخير مذهب
اترك الناس جميعاً والى ربك فارغب

فانه لا إفراط فيه. وقول الحريري فى صفة عبد أراد شراءه.
«وقد لبس ثوباً من الجمال. وحلة من الكمال. فلما تأملت خلقه

القويم. وخلافه الصميم. خلته من ولدان جنة النعيم وقلت ماهذا بشرا إن هذا الا ملك كريم» ـ هذا والتضمين لا غنى للخطابة عنه لكن على الخطيب أن يكون فيه حكيما يضع كل شىء فى محله والله الهادى الى سواء السبيل

(الرابع الفصل والوصل)

غير خاف ان ذلك من أسرار البلاغة وربما لا يهتدى لتمام الصواب فيه ومعرفة كيفية إيقاع حروف العطف فى مواقعها. واستئناف الجملة بعد تاليتها الا المطبوعون على البلاغة بأصل فطرتهم حتى قال بعضهم فى حد البلاغة انها معرفة الفصل والوصل وذلك لغموض مسالكها ولأنه من أحرز الفضيلة فيها فقد سهل عليه ان يحرزها فى سائر أبواب البلاغة. وقد ذكر علماؤها للفصل ستة مواضع وللوصل ثلاثة وأمثلتها مبينة فى كتبهم أتم بيان ـ والخطيب فى حاجة الى تعرف تلك المواضع والاسترشاد بكتب البلاغة وتتبع الايات القرآنية والاحاديث النبوية وكلام البلغاء ليكون فى هذا الباب على بصيرة ويعرف كيفية العطف والاستئناف فيصل فى موضع الوصل ويفصل

فى موضع الفصل فارجع الى كتب البلاغة فالامر فى ذلك هين عليك

(الخامس الأداء الخطابى)

وهو إلقاء الخطبة بما يليق بها من حسن اللفظ وموافقة الصوت وحركات الجسم وشأنه فى الخطابة عظيم لأنه بحسن الأداء يحيز فى نفس السامع شواعره ويحرك أهواءه. ويجبر به الى حيث يقصد من الغاية — فالخطبة دون الأداء جسم بلا روح. وسيف مغمد لا يحسن حامله الضرب به ويدخل تحت حكم الأداء ثلاثة أشياء: الذاكرة ثم الصوت ثم الأشارة. (فالذاكرة) وتسمى الحافظة قوة تمكن النفس من حفظ المعانى التى يدركها العقل ثم من تأديتها عند الحاجة — وليس للخطيب غنى عن هذه القوة. لأن الخطب عادة تلقى عن ظهر القلب فان خانته ذاكرته تلعثم وأدركه الحصر فسقطت حجته. وان ارتجل خطبته لا بد له أيضا من اتقان رسمها وتقاسيمها وادلتها ومعانيها لئلا يخرج عن الموضوع أو يرتبج عليه. ولا يتم ذلك الا بحسن الذاكرة. وأقرب وسيلة

الى تقويتها الممارسة بأن يستظهر الخطيب طرفا من نظم القدماء وملحا من أقاويل البلغاء ويجهد ذاكرته على حفظها ومراجعتها والتمرين على القائها بصوت عال دون عي ولا لكنة ولا تمتمة ففي الحكم المأثورة : — من وقف حيث يكره وقف حيث يحب.
ومن آداب التأدية ان يتمهل قليلا بعد الوقوف قبل التكلم ليستجمع حواسه وفكره.

وللصوت في الخطابة أطيب موقع وأحسن أثر. لأنه الطريق الى قلب السامع فان نفر منه ذهبت مساعي الخطيب سدى . فيراعي الخطيب من جهة الصوت حسن اللفظ واعتدال الصوت والتفنن فيه . والمراد بحسن اللفظ أن يعطي كل حرف حقه من الوضع المتعارف بين الأدباء مع اجتناب لهجة العامة المبتذلة وضبط الالفاظ بحركاتها المقبولة . ولا بأس إن تكلم بين جمهور من الشعب أن يتقرب منهم ويتقلد نوع كلامهم دون ركة ووحشية — واعتدال الصوت موافقته للظروف فان الصوت يختلف باختلاف الحضور والمكان والزمان وموضوع الكلام

فالخطيب لا يتكلم أمام الرؤساء كما يتكلم أمام المرءوسين.

كذلك يحتاج المكان الرحب ووفرة السامعين الى صوت أدق وأجهر . وليس صوت الخطيب فى أوان الفرح كما يكون فى أوان الحزن . وبعض المواضيع يستدعى صوتا فخما وبعضها يستدعى صوتا بسيطا . ويتفنن الخطيب بصوته اذا راعى أقسام خطبته من افتتاح الكلام وتأدية البراهين وتحريك الأهواء وحسن الختام فأعطى كل قسم الصوت اللائق به على مقتضى الحال . وكذلك اذا طبق صوته مع العواطف التى يبرزها فلكل عاطفة صوت خاص بها يتناسب معها ألا ترى أن صوت الغضب يخالف صوت الرقة والحنان . وللرجاء صوت يباين صوت القنوط ولسان الخوف ينطق بصوت ضعيف خافت بخلاف صوت البطش والثورة وقس عليه بقية العواطف — ولزيادة البيان نقول : —

ينبغى للخطيب أن يستفتح خطبته بصوت متوسط لا خافت ولا جهير الى أن تدعوه الحالة الى الجهر شيئاً فشيئا . وأن يعطى ألفاظ الاستفهام والتعجب والتوبيخ واللوم والتقريع والزجر والتفخيم والتهويل والتحسر والتحزن والندم والحيرة والبشارة والنذارة ونحو ذلك حقها فى النطق فى كيف الصوت

فيها بكيفيات خاصة وانفعالات تتناسب مع المعنى الذى
يقصده حتى يؤثر ذلك فى نفس السامع الخوف والرهبة
والانزعاج والندم ويحدث فيها هزة الفرح والارتياح والنشاط
تبعا لسير المعنى الذى يتكلم فيه . وان يخفض صوته فى موضع
الخفض واللين. ويشتد فى موضع الشدة. ويتأفف فى موضع
التأفف . ويتطامن فى موضع التطامن . كالاستعطاف
والاسترحام واستنداء الأكف عند جمع المال للأعمال النافعة أو
الانفاق على بيوتات مجد أخنى عليها الدهر أو نحو ذلك. وأن
يشمخ بأنفه ويظهر العزة وعلو النفس فى مواضع الفخر والحماسة
وذكر شرف العلم والتقوى. وأن يتأثر حتى يظهر أثر الانفعال
المعتدل فى صوته وإشاراته وملامح وجهه عند ذكر حادثة
مؤلمة أو حكاية خطب فظيع أو ندم على فوات مطلب عزيز.
بحيث تكون لهجته فى جميع ذلك لهجة خطابة لا لهجة تلاوة
يسرد فيها الكلام سردا أو لهجة ترنمية تخرجها عن المألوف
إلى نوع من الأغانى . وعلى الجملة ينبغى للخطيب أن يعطى
الموضوع حقه من حسن العبارة وقربها من الافهام وجودة

الالقاء والتشخيص لمقامات الخطابة حتى يبكي أو يتباكى عند ماتدعو إلى ذلك حاجة مراعيا ما يناسب الخطب الدينية وغيرها من غير أن يظهر عليه أثر التصنع أو التكلف وإلا سقط من العيون وانصرفت عنه الاسماع وكان موضعا للنقد والسخرية كما يلزمه أن يتجنب التزام السجع البارد الممقوت والجناس المتكلف بل عليه أن يرسل الكلام إرسالا من غير تقعر ولا تكلف فان أتى السجع او الجناس عفوا وكان قارا في موضعه غير ناد عن الذوق ولم تظهر عليه مسحة التكلف فذاك وإلا فقد أساء حيث يريد الاحسان ـ أما الاشارة الخطابية فهي حركات تبدو من جسم الخطيب ووجهه ورأسه وجوارحه من شأنها تأييد الكلام الذي يفوه به وأفضل الاشارات المبنية على درس الفطرة المهذبة بالتثقيف والأدب المتوسطة بين غلظة العامة ومبالغة المتصنعين

وأما الوقفة الموافقة للجسم فهي الوقفة الطبيعية دون توتر في الجسم ولا تخنث بحيث يبعد الخطيب فيها عن عظمة المتجبرين واضطراب المهوجين

ويحسن بالرأس أن يحيد عن الانتصاب الزائد والانحناء

المفرط . وبالوجه والنظر أن يكونا كمرآة للنفس في بيان عواطفها . واليدين حركات خاصة : ولا تقانها فن يدرسه بعض الخطباء والممثلين لا حاجة لنا به والذي يهمنا ألا ترخيان مهملتين ولا تمدان بافراط او تلصقان بالصدر وان تحركت إحداهما ولا سيما اليمنى التي لها في الحركات النصيب الأوفى فلابد أن تشير بأشارات أنيقة حسنة الدلالة (هذا) وان الارتياض مع مراقبة الخطباء البلغاء أحسن معلم لهذا الفن

ويجب على الخطيب أن يراعى طبقات السامعين فيسبك كلامه على ما يلائم أحوالهم فيعدل إلى السذاجة مع العامة ويتأنق في الكلام مع الخاصة ويلتجىء إلى أفانين الكلام مع المسترشد ويسهب في العبارة مع محب الاكثار ويوجز مع من يؤثر الاقلال . وأن ينظر الى نفس السامع في كل حال من أحواله من حداثة أو كهولة وحنكة في أموره أوغرارة وهلم جرا كما سبقت الاشارة الى هذا وبالله تعالى التوفيق

(القسم الثانى في فنون الخطابة . وفيه فصول)

تقدم أن قوانين الخطابة قسمان أصول وفنون — وقد

من بيان الاصول فبقي الكلام على الفنون فنقول

فنون الخطابة وأنواعها أربعة — خطب التثبيت — والمشورة — والمشاجرة — والوعظ — ومبنى هذا التقسيم على أجناس السامعين . لأنه إن كان المقصود إفادتهم فهو القول التثبيتي — أو مناظرتهم فهو القول المشورى — أو محاكمتهم فهو القول المشاجرى — أو إرشادهم وانذارهم بايضاح الحقائق الدينية وحملهم على السيرة الصالحة فذلك بالوعظ

والغاية من القول التثبيتي المدح أو الذم فيمدح الحسن للتحلي به ويذم القبيح للتخلي عنه وهو مختص عموماً بالزمان الحاضر — ومن القول المشورى الاذن والمنع بحمل السامع على ما فيه النفع والعدول به عما فيه الضرر — وهو مختص بالمستقبل — والغاية من القول المشاجرى العدل أو الجور بمقاضاة المدعى عليه فيبرأ أو يقرر عليه الذنب فيلزمه الحكم وهو ينظر إلى الماضي — أما الوعظ فغايته الحقيقة الدينية وإثباتها في عقول السامعين وحضهم على السيرة الفضلى والطريقة المثلى ولا يختص بوقت — ثم إن أرسطو في كتاب

الخطابة قد اقتصر على الثلاثة الاول ـ لان الخطب الدينية لم تظهر إلا فى عهد المسيح عليه السلام ثم شاعت بعده

وأنواع الخطابة فى هذا العصر خمسة ـ خطب النوادى العلمية ـ الخطب السياسية ـ الخطب العسكرية ـ الخطب القضائية ـ الخطب الدينية

وترجع إلى ما تقدم فان الخطب السياسية والعسكرية من النوع المشورى ـ والخطب القضائية هى القول المشاجرى

(الفصل الاول ـ فى القول التثبيتى)

عرفت أن المقصود منه الافادة ـ وأن الغاية منه المدح أو الذم والحث على الفضيلة والتنفير من الرذيلة ويشمل خطب المدح ـ والتأبين ـ والتهانى ـ والشكر وما شاكل ذلك مما يلاحظ فيه المدح والذم

(المبحث الاول ـ فى الخطب المدحية)

هى التى يثنى فيها على عظيم أو صاحب فضل ومرجعها الأعلى الفضيلة لا غير . فان بها يمتاز الانسان

فيبين الخطيب فيها ماجبلت عليه نفسه من الأخلاق الكريمة والصفات الطيبة التى اكتسبها بجده وحسن عمله أما ماسواها من القوة والثروة وما ثر الآباء وكرم الأرومة فلا يمدح به الا تبعاً للفضيلة لكونه مظهراً لها ولهذه الخطب منهاجان — علمي — وتاريخي —

فالعلمي أن تصدر خطابك بالثناء على بعض الفضائل أو المزايا ثم تتخلص إلى أنها حازت كمالها فى الممدوح كما لو أتيت بالشجاعة والبلاغة والاقتصاد ثم بينت أنها من صفات على بن أبى طالب رضى الله عنه جرى مدحك على هذا المنهاج العلمى ومن هنا تعلم أن هذا المنهاج غير مقيد بقيد الزمان

أما المنهاج التاريخى فهو ما يتتبع أطوار حياة الممدوح فيذكر مايعرفه فى كل منها من الأمور الحميدة على مقتضى زمن ظهورها — والمنهاج العلمى أفضل فانه أوقع فى قلوب السامعين وأدل على اقتدار الخطيب — أما الثانى فأقرب وأسهل وينقسم إلى أزمنة ثلاثة — الزمان الذى يتقدم حياة الممدوح — وزمان حياته — والزمان الذى يلى وفاته — ففى الأول ينظر إلى ثلاثة أمور

الأول كرم المحتد - فان كان الممدوح شريف العنصر يثنى عليه بذكر مآثر آبائه وتعداد مفاخر أجداده لأن تلك المآثر بذور للفضيلة نبتت فى تربة النفوس الشريفة

وقد يؤخذ المدح من دناءة الحسب فيمدح من وصل بنفسه الى درجة عالية رغما من خمول آبائه كما قال الاديب

إن الفتى من يقول ها أنا ذا   ليس الفتى من يقول كان أبى

الثانى الوطن - إذا كان منشأ لقوم مشاهير لهم فى الفضيلة قدم وبالمعروف صلة

الثالث الظروف التى تتقدم ولادة الممدوح - ولك فيها مجال فسيح

فاذا ساعدك الحال تصف مثلا أحوال العصر من جهة الدين والعلم والأخلاق والسياسة وما أشبه ذلك ثم تبين ما كان من الملاءمة بين ولادة الممدوح والظروف المذكورة كأن تصف أحوال العرب قبل ظهور النبى صلى الله عليه وسلم ليتبين حاجة الناس إلى من يخرجهم من الظلمات إلى النور ومن الفوضى إلى النظام وإذا كان قد جرى شىء من الخوارق والمعجزات المشعرة بما سيكون من أمره وأن له شأنا عظيما فعلى المادح أيضا ألا يغفل

ذكره مثال ذلك ما حدث لأبوى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما كان في زمن حمله وليلة الولادة من الارهاصات

والاشياء التي يمدح بها الانسان في زمان حياته ثلاث ـ الفضائل ـ والعلوم ـ والارتياضات الصناعية

وأولى الفضائل بالذكر التمسك بجانب التقوى ومحبة الوطن والبر بالوالدين من ذلك خطبة أبي حمزة بمكة يمدح بها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة تقواهم وتدينهم قال

يأهل المدينة قد بلغنى مقالتكم فى أصحابى وما عبتموه من حداثة أسنانهم. ويحكم وهل كان أصحاب رسول الله المذكورون فى الخير إلا أحداثا شبابا؟ شباب مكتهلون فى شبابهم غضيضة عن الشر أعينهم ـ ثقيلة عن الباطل أرجلهم ـ أنضاء [1] عبادة قد نظر الله إليهم فى جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن كلما مر أحدهم بآية من ذكر الله شهق خوفاً. كان زفير جهنم بين أذنيه قد أكلت الارض جباههم وركبهم ووصلوا كلال الليل [2] بكلال النهار مصفرة ألوانهم ـ ناحلة

---

(١) جمع نضو بكسر فسكون وهو فى الاصل البعير المهزول

(٢) الكلال هو الاعياء والتعب اهـ م

أجسامهم - من طول القيام وكثرة الصيام) - ومنها العدل والحلم والرحمة بالضعفاء كما قال بعضهم فى صلاح الدين

(لقد كان عادلا . رءوفا رحيما . ناصرا للضعيف على القوى : وكان يجلس للعدل فى كل يوم اثنين وخميس فى مجلس عام بحضره الفقهاء والقضاة والعلماء . ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير وعجوز هرمة وشيخ كبير - وما استغاث إليه أحد إلا وقف وسمع ظلامته - وكشف قضيته وأخذ قصته)

ومنها الكرم والسخاء وأن يكون المرء عالى الهمة متوفر النخوة شجاعا مقداما على عظائم الأمور وما شابه كل ذلك من أصناف المروءات من ذلك ما جاء فى وصف صلاح الدين

(لقد كان صلاح الدين من أعاظم الشجعان قوى النفس شديد البأس . عظيم الثبات وكان إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ويخترق العساكر من الميمنة إلى الميسرة ويرتب الأطلاب [1] ويأمرهم بالتقدم والوقوف فى مواضع يراها)

---

(١) جمع طالب كما فى الاساس وهم جماعة الجيش الذين يطلبون أعداءهم اهـ - م

وقال أبو حمزة فى خطبة له يمدح بها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا رأوا سهام العدو قد فوقت [١] ورماحهم قد أشرعت وسيوفهم قد انتضيت وبرقت الكتيبة ورعدت بصواعق الموت استهانوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله فمضى الشاب منهم قُدُما [٢] حتى تختلف رجلاه على عنق فرسه وقد رملت [٣] محاسن وجهه بالدماء وعفر جبينه بالثرى وأسرع إليه سباع الأرض وانحطت عليه طير السماء فكم من مقلة فى منقار طائر طالما بكى صاحبها من خشية الله — وكم من كف بانت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها فى سجوده وكم من خد عتيق [٤] وجبين رقيق قد فاق بعمد الحديد رحمة الله على تلك الأبدان وأدخل أرواحها فى جنانه)

ويثنى عليه لصبره على البلايا وتواضعه كما وصف المسعودى الخليفة الأول أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال

---

(١) فوق السهم جعل الوتر فى فوقه عند الرمى . وأشرع الرمح أماله عند ارادة الطعن . وانتضى السيف سله من غمده
(٢) معنى قدما بضمتين تقدم الى الامام ولم ينثن
(٣) لطخت بالدم (٤) العتيق الجميل ا هـ — م

كان أبو بكر أزهد الناس وأكثرهم تواضعا فى أخلاقه ولباسه ومطعمه وكان لبسه فى خلافته الشملة والعباءة وقدم عليه زعماء العرب وأشرافهم وملوك اليمن وعليهم الحلل والحبر [1] وبرود الوشى المثقل بالذهب والتيجان فلما شاهدوا ما عليه من اللباس والتواضع والنسك وما هو عليه من الوقار والهيبة ذهبوا مذهبه ونزعوا ما كان عليهم حتى إنه رؤى يوما فى أسواق المدينة على كتفه جلد شاة ففزعت عشيرته لذلك وقالوا قد فضحتنا بين المهاجرين والأنصار والعرب قال أفأردتم منى أن أكون ملكا جبارا فى الجاهلية جباراً فى الاسلام، لا والله لا تكون طاعة الرب إلا بالتواضع لله والزهد فى هذه الدنيا)

فهذه الفضائل وأمثالها يذكرها الخطيب بلا مبالغة ولا تزلف إلى الممدوح وإلا كان كاذباً أو متملقا ولا يليقان بالخطيب الاجتماعى

ويمدح المرء بالعلوم والصنائع بذكر ما كان عليه من سعة

(١) الحبر كعنب جمع حبره كعنبة وهى برد يمانى والوشى نوع من الثياب وهو فى الأصل مصدر وشيت الثوب اذا نقشته ا ه

العقل وسرعة الادراك. والبراعة في الفنون على اختلاف أنواعها

والمدح بالفضائل النفسية أشرف وأصح وبعده بالعلوم والصنائع وإن أضيف إلى ذلك كله لواحق عرضية كالثروة أو صفاته الجسمية كالجمال كان ذلك جيداً قال ابن عباس فى على بن أبى طالب رضى الله عنهما

(ألا إن لأمير المؤمنين أشباها أربعة : الاسد الخادر[1] والبحر الزاخر — والقمر الباهر — والربيع الفاخر . فأما الاسد الخادر فأشبه منه صولته ومضاءه

وأما البحر الزاخر فأشبه منه جوده وعطاءه — وأما القمر الباهر — فأشبه منه نوره وضياءه — وأما الربيع الفاخر فأشبه منه حسنه وبهاءه)

أما الزمان الذى يلى وفاة الممدوح فيلاحظ فيه عند المدح أمران — نوعية الموت وسببه — كما لو مات وهو يخشى الله تعالى ولا يرهب المنية على ما يجدر بالرجل العاقل الفاضل وكما لو مات دفاعا عن الوطن أو مجاهدا فى سبيل

---

(١) الخادر الرابض فى خدره وهو الشجر الملتف يسكنه الاسد ويقال له أجمة اه — م

الله ومما ذكرنا من قوانين المدح يتبين طريق الذم فالاشياء تعرف بأضدادها

(المبحث الثانى — فى الخطب التأبينية)

وهى ما يعدد بها مآثر ميت يوم مأتمه أو يوماً آخر وأجزاؤها ثلاثة — وفاء الميت حقه من الثناء على أعماله الصالحة الحسنة — وتسلية الاهل والاحباء — وحث السامعين على أن يأتوا بفضائل الميت — وتستهل خطبة التأبين ببعض أقوال فى زوال الدنيا ودوران دوائرها كأن تقول — هى الدنيا لا يعجب من طوارقها ولا ينكر هجوم بوائقها. عطاؤها فى ضمان الارتجاع. وحباؤها فى قران الانتزاع — ما الدنيا إلا دار النقلة — وما المقام فيها إلا للرحلة — ثم يتصرف فى الاثبات بذكر الأجزاء الثلاثة — مدح الميت — وتسلية الأهل — وحث السامعين وقد عرفت قوانين المدح — وأما التسلية فمن أقوى أسبابها أن يظهر الخطيب المبتلى أنه مشاركه فى حزنه ومشاطره الأسى — ومنها أن يصف ما أبقى الفقيد لآله عند الخاصة والعامة من الذكرى الطيبة والآثار الجميلة

ومنها أن يؤمل السامعين بوصول الفقيد إلى محل الرحمة والرضوان . وقف محمد على قبر الحسن بن على وقد اغرورقت عيناه بالدموع وقال (رحمك الله يا أبا محمد فلئن عزت حياتك . فلقد هدت وفاتك — ولنعم الروح روح تضمنه بدنك — ولنعم الجسد جسد تضمنه كفنك — ولنعم الكفن كفن تضمنه لحدك — وكيف لا تكون كذلك وأنت سليل الهدى . وخامس أصحاب الكساء . وخلف أهل التقى غذتك أكف الحق . وربيت فى حجر الاسلام ورضعت ثدى الايمان فطبت حيا وميتا . فائن كانت الأنفس غير طيبة لوفاتك إنها غير شاكة أن قد خير لك وإنك وأخاك لسيدا شباب أهل الجنة فعليك منا يا أبا محمد السلام) ثم يذكر أن اهل بيته ورثوا عنه تلك الخصال الطيبة والسجايا الحميدة فهى لا تزال باقية فيهم متوفرة لهم وإذا فرغ من التسلية انتقل إلى الجزء الثالث ورغب السامعين فى الاقتداء بفضائل الفقيد ويختم الخطبة مبينا أن فضائل المؤبن تبقى فى القلوب ذكرا مستمرا وكأن فعله لم يمت

(المبحث الثالث ــ فى خطب الشكر)

الشكر المتعارف بين الناس هو إظهار النعمة والتحدث بها وبسط اللسان بالمحمدة والتعظيم لمنعم بها والتنويه بذكره ورفع قدره فخطبة الشكر هى التى فيها يثنى الخطيب على المحسن بذكر إحسانه ويحسن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام ــ

الأول ــ وبه تصدر غالباً خطبة الشكر أن نذكر صنيعة المحسن وارتياح المحسَن إليه بقبولها ــ الثانى أن تعظم قدر الاحسان ــ وعليه معظم كلام الخطيب فى الاثبات ــ الثالث وبه تختم الخطبة عادة أن تبين أن ذكر الصنيعة لن يبرح عن بال المنعم عليه فيشكره عليها طول حياته ــ ويمكن تعظيم قدر الاحسان من أربعة أوجه الأول . من قدر المحسن كما لو كان ملكاً أو وزيراً أو عظيما من عظماء الدنيا فان قدر النعمة على قدر مسديها

الثانى ــ بتعريف حالة المنعم عليه إذا نال النعمة عفواً من غير استحقاق وعلى حين حاجته إليها

الثالث ــ ببيان قدر النعمة فى ذاتها كقيمتها وحسنها وصعوبة البلوغ إليها

الرابع ـ من ظروفها كما لو جاد بها المنعم عن طيب خاطر ومن غير أن يسبقها التماس ومن غير أن تكون على سبيل المكافأة ـ وكونها معجلة فان خير البر عاجله كخطبة منذر بن سعيد بين يدى الخليفة وقد استوفى فيها كل شروط الشكر فاظهر فرحه بالنعمة وارتياحه الى شكر المنعم ثم تطرق الى تعظيم قدر المصطنع ثم اتسع باطراء صنيعه ـ قال

« فأصغوا إلى معشر الملأ بأسماعكم. والقنوا[1] عنى بأفئدتكم ان من الحق أن يقال للمحق صدقت وللمبطل كذبت . وإن الله تعالى فى سمائه . وتقدس بصفاته وأسمائه أمر كليمه موسى أن يذكر قومه بأيام الله جل وعز عندهم وإنى أذكركم بأيام الله عندكم وتلافيه[2] لكم بخلافة أمير المؤمنين التى لمت شعثكم[3] وآمنت سربكم ورفعت قوتكم بعد ان كنتم قليلا فكثركم ومستضعفين فقواكم ومستذلين فنصركم ولاه الله رعايتكم . وأسند اليه إمامتكم أيام ضربت الفتنة

---

(١) أمر من لقن الكلام فهمه وزنا ومعنى

(٢) التلافى التدارك

(٣) الشعث الانتشار والتفرق والمعنى جمعت خلافته أمركم اهـ م

سرادقها على الآفاق ـ وأحاطت بكم شعل النفاق حتى صرتم في مثل صدقة[1] البعير : من هنيمة الحال ونكيد العيش والتغيير فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء وانتقلتم بيمن سياسته إلى تمهيد[2] كنف العافية بعد استيطان البلاء ـ أنشدكم بالله معاشر الملأ . ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها والسبل مخوفة فأمنها ؟ والأموال منتهبة فحرزها وحصنها ؟ ألم تكن البلاد خرابا فعمرها : وثغور المسلمين متهضمة[3] فحماها ونصرها ؟ اذكروا آلاء الله عليكم بخلافته وتلافيه جمع كلمتكم بعد افتراقها بأمانته ـ حتى أذهب الله عنكم غيظكم وشفى صدوركم وصرتم يدا على عدوكم بعد أن كان بأسكم

---

(١) يريد تشبيه حالهم بحال البعير الذي يؤخذ في زكاة الابل فانه لايجد من طيب العيش وحسن العناية ما كان يجد عند صاحبه قبل ان يسلمه لعامل الصدقات

(٢) التمهيد التسوية والاصلاح والكنف الجانب واستيطان البلاء اتخاذه موطنا والمراد حمل النفس على الرضا بالمقام على مكروهه

(٣) ضعيفة لاتقوى على رد غارة الاعداء اهـ م

بينكم ـ فأنشدكم الله ألم تكن خلافته قفل الفتنة بعد انطلاقها من عقالها. ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها ـ ولم يكل ذلك إلى القواد والأجناد حتى باشره بالقوة والمهجة أو الأولاد ـ ورفض الدعة وهى محبوبة. وترك الركون الى الراحة وهى مطلوبة بطوية صحيحة ـ وعزمة صريحة ـ وبصيرة ثابتة نافذة ثاقبة ـ وريح هابة غالبة. ونصرة من الله واقعة واجبة. وسلطان قاهر ـ وجد ظاهر. وسيف منصور ـ تحت عدل مشهور ـ متحملا للنصب ـ مستقلا لما ناله فى جانب الله من التعب. حتى لانت الاحوال بعد شدتها وانكسرت شوكة الفتنة عند حدتها ولم يبق لها غارب [1] إلا جبه. ولا نجيح لاهلها قرن الا جده ـ فأصبحتم بنعمة الله إخوانا ـ وبلم أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائكم أعوانا ـ حتى تواترت لديكم الفتوحات ـ وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات ـ وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم. وآمال الاقصين والأدنين مستخدمة

---

(١) الغارب ما بين السنام الى العنق وجبه قطعه مستأصلا له وكذلك جده . اهـ م

إليه وإليكم - يأتون من كل فج[1] عميق. وبلد سحيق - لأخذ حبل بينه وبينكم جملة وتفصيلا. ليقضى الله أمرا كان مفعولا. ولن يخلف الله وعده ولهذا الأمر ما بعده - وتلك أسباب ظاهرة بادية. تدل على أمور خافية. وليلها قاتم[2] وجفنها غير نائم - (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم) وليس فى تصديق ما وعد الله ارتياب - ولكل نبأ مستقر ولكل أجل كتاب. فاحمدوا الله أيها الناس على آلائه - واسألوه المزيد من نعمائه. فقد أصبحتم بين خلافة أمير المؤمنين أيده الله بالعصمة والسداد - وألهمه خالص التوفيق إلى سبيل الرشاد - أحسن الناس حالا. وأنعمهم بالا. وأعزهم قرارا[3] وأمنعهم[4] دارا - وأكنفهم جمعا - وأجلهم صنعا »

---

(١) الفج بالفتح الطريق الواسع بين الجبلين والجمع فجاج بالكسر. والعميق البعيد. والسحيق مثله وزنا ومعنى

(٢) مظلم (٣) القرار المستقر الثابت من الأرض (٤) أعزهم وأقواهم يقال امتنع بقومه تقوى بهم وهو فى منعة قومه بفتح النون أى فى عزتهم فلا يقدر عليه من يريده . اهـ م

(المبحث الرابع فى خطب التهنئة)

هى الخطبة التى تلقى فى محفل يعرب الخطيب فيها عن فرحه لنعمة أصابها الجمهور أو أحد أشراف الناس ولا تختص بنعمة حادثة بل تشتمل الحوادث القديمة كاستقلال دولة والمواسم المدنية السنوية ، تذكارا لواقعة جليلة كمولد ملك أو تولية خليفة — وأخص أقسامها ثلاثة ففى القسم الاول يبين الخطيب الداعى لتلك الحفلة والنعمة الجزيلة التى احتشد القوم لتذكارها وسرورهم العظيم بها — وفى القسم الثانى يفيض فى وصف تلك النعمة وتعظيم قدرها ويتوسع فى سوابقها ولواحقها وعلائقها — وفى القسم الثالث يطلق لسانه بالمدح للمهنأ واستحقاقه لتلك النعمة لفضله وفضيلته كقول بديع الزمان يهنىء الملك سُبُكْتِكِين بفتح بها ضيَة من بلاد الهند فعظّم الانتصار بذكر وفرة مخاطر الحرب وصعوبة مباشرتها وبيان حسن تصرف الملك فى خوضها وانتصاره الباهر على العدو على كثرة عدده وعدده وشدة بطشه (وسنذكر من حديث الهند وبلادها وغاظاً كبادها

وشدة أحقادها ـ وقوة اعتقادها ـ وصدق جلادها: وكثرة أجنادها. ليعلم السامع أي غزوة غزاها الأمير السيد فنقول

إنها بلاد لو لم تحطها السحاب بدرها ـ لأمسكتها الشمس بحرها ؛ فهي دولة بين الماء والنار: ونوبة بين الشمس والامطار : تقدمها صعاب الجبال : وتحجبها رحاب القفار: ويعصمها ملتف الغياض (١) . وتحفها طواغي الأنهار ـ حتى اذا خرقت هذه الحجب خلص الى عدد الحصى والرمال رجالا : وشبه الجبال أفيالا . وأنزاع (٢) المخاض جلادا . ومِسناف (٣) الجمال طعانا . وأركان الجبال ثباتا . ثم لا يعرفون غدرا ولا بياتا (٤) ولا يخافون موتا ولا حياتا . ولا يبالون على أي جنبيه وقع الأمر . وينامون وتحتهم الجمر . وربما عمد أحدهم لغير ضرورة داعية. ولا حمية باعثة فاتخذ لرأسه من

---

(١) الغياض جمع غيضة وهي الشجر الملتف (٢) الناقة النازع هي التي تحن الى أوطانها ومرعاها والجلاد المضاربة ومنه تجالدوا بالسيوف (٣) المسناف البعير يقدم الرحل لقوته (٤) البيات بالفتح اسم من بيت الأمر دبره ليلا اه ـ م

الطين إكليلا. ثم قوّر قحفه[١] فخشاه فتيلا. ثم أضرم في الفتيل نارا ولم يتأوه والنار تحطمه عضوا فعضوا وتأكله جزأ فجزأ فأما محرق نفسه ومغرقها وآكل لحمه ومفصل عظمه والرامي بها من شاهق فأكثر من أن يعد. وأقلهم من يموت حتف[٢] أنفه. فاذا مات هـذه الميتة أحـدهم سب بها أعقابه وعظم عندهم عقابه. بلاد هذه حالها. وفيلة تلك أهوالها. وجبال في السماء قلالها[٣]. وفلاة يلمع آلها. وغياض ضيق مجالها. وأنهار كثيرة أوحالها. وطريق طويل مطالها. ثم الهند ورجالها. والهندوانية واستعمالها. زحم الأمير السيد أدام الله ظله هـذه الأهوال بمنكبه محتسبا نفسه معتمدا نصر الله وعونه. فركب إليهم بعون من الله لا يخذل ومدد من التوفيق لا يفتر. وقلب من الأهوال لا يجبن. وحث على المطلوب لا يقصر. وسيفه على الضريبة لا ينقل. فسهل الله له الصعب. وكشف به الخطب. ورجع ثانيا من عنانه بالأسرى. تنظمهم الأغلال. والسبايا تنقلهم الجمال. والفيلة

---

(١) القحف أعلى الدماغ. (٢) يقال مات حتف أنفه اذا مات على فراشه من غير ضرب ولا قتل

(٣) جمع قلة وهي أعلا الجبل اهـ م

كأنها الجبال . والأموال ولا الرمال . فتبحزخره الله عن الملوك السالفة الخالية . . الجبابرة العاتية . حتى وسمه بناره وجمله ببعض آثاره) وتختم هذه الخطب بالشكر لله تعالى على النعمة الممنوحة والدعاء لنائلها كى لاتزال حياته مقرونة بالهناء ودوام البركات

(الفصل الثانى ـ فى القول المشورى وفيه مباحث)

هو القول الذى يشير به الخطيب إلى مباشرة أمر أو العدول عنه فينقسم إلى إذن ومنع . والغاية منه دفع السامع إلى النافع أو إبعاده عن الضار . ولما كان للأمور النافعة درجات متفاوتة كالنافع والأنفع والغاية فى المنفعة : يمكن الخطيب المشورى أن يرجح نفعا على نفع . وكذلك للضار طبقات فيستطيع الخطيب أن يحمل السامع على ماهو أقل ضررا . وموضوع القول المشورى الأمور الاختيارية . أما الاضطرارية فلا سبيل إلى المفاوضة فيها ومثلها الأمور البعيدة الحصول لقلة الوسائل الى العمل بها فان الخطيب بأشارته إلى صنعتها يضرب الهواء أو يرقم على صفحات الماء . وأخص الخطاب

الداخلة فى القول الشورى هى الخطب السياسية والعسكرية وخطب التحريض . والتقريع . والطلب . والوصية . والشفاعة

(المبحث الأول فى الخطب السياسية)

وهى التى يلقيها الخطباء فى مجالس الشورى أو النوادى العمومية لتدبير أحوال الدولة وسياسة أمورها فيتباحث فيها أرباب الشورى في إصلاح شؤون الرعية وترقية الوطن بسن الشرائع العادلة وتنظيم الدوائر الرسمية من مالية ومعارف وفنون وزراعة وما يناط بكل منها وكالنظر فى الأمور الخارجية وعلائق الدولة مع الدول الأجنبية ولهذه الخطب أعظم شأن لأن عليها مدار حياة الدولة ورقيها ماديا وأدبيا وتكون فى الدول الدستورية سواء أكانت جمهورية يديرها نواب الأمة أم ملكية يخضع ملكها للدستور فيملك على الدولة ولا يسوسها إذ الحكم فيها لمجلس العموم والأعيان ومثلها الولايات المتحالفة أو الممتازة فى تدبير شؤونها الخاصة . أما الدول ذات السلطة المطلقة حيث أزمة الأمر

فى يد ملك يأمروينهى كما يشاء فلا تكون فيها . ثم الخطب السياسية يختلف نفعها أو ضررها بحسب الاهواء التى ينقاد إليها الخطيب فان أعماه الغرض وسولت له نفسه تغليب آرائه الواهنة . فموه الحق على السامعين وزخرف لهم الباطل فقد طوح بوطنه فى المهالك بحمل رصفائه على سن الشرائع الضارة بالبلاد أو مباشرة الحروب الجائرة إلى غير ذلك وعلى خلاف ذلك إذا نصر الحق وطلب لوطنه كل صلاح وضحى لرقيه النفس والنفيس فذلك هو السعيد الموفق الذى تسعد به الأمة ويعلو به شأن الوطن . لهذا يجب أن تتوفر فى الخطيب السياسى الصفات الآتية (الأولى) أن يتعمق فى درس الواجبات والحقوق الشخصية والدولية التى عليها مبنى المجتمع الانسانى ليتسنى له أن يعطى كل ذى حق حقه دون أن يلحق بوطنه ضررا ما (الثانية) أن يحب وطنه حبا خالصا مجردا عن كل أنانية وعن كل غرض شخصى أو تحزب لنصرة زيد أو مناهضة عمرو فلا يرى إلا خير الوطن العزيز (الثالثة) أن يحسن درس الأمور التى يتباحث فيها أرباب الدولة وينظر فى كل وجوهها ليكون

حكمه فيها عن بصيرة تامة بعيدة عن الخطأ (الرابعة) أن يكون رابط الجأش لسناً ذا عارضة ليستطيع أن يقوم فى وجه معارضيه ويجيبهم بداهة دون أن تفشله مناقضتهم وتحاملهم عليه أو تموه عليه سفسطتهم فما أحسن العلم وما أحسن الشجاعة وما أحسن الأمانة - ثم إن الذى يشير بعمل الشىء فيأذن فيه أو بتركه فيمنع عنه يحتاج لدرك غايته إلى أدلة يدفع بها السامعين إلى الاقبال على ما يرغبهم فيه والاعراض عما ينفرهم عنه والأدلة فى الاشارة بالعمل هى أن يبين كون الشىء المقصود صالحاً ونافعاً وضرورياً وسهلا ولذيذا وعلى عكس ذلك إذا أشار بالترك فيبين الوجوه المضادة للوجوه المذكورة ويبين صلاح الشىء المقصود بذكر محاسنه الذاتية التى تحببه إلى القلوب مع قطع النظر عن نفعه والنافع ما يطلب لخير ينجم عنه سواء أكان ذلك النفع مقروناً بالصلاح كرضا الخالق والفضيلة والشرف أم غير مقرون كصحة الجسم وهناء العيش والثروة والامان كقول منذر بن سعيد يحث قومه على التزام الطاعة لخليفتهم « فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لامامكم والتزام الطاعة لخليفتكم

فأن من نزع يدا من الطاعة وسعى فى تفريق الجماعة . ومرق من الدين فقد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين وقد علمتم أن فى التعلق بعصمتها والتمسك بعروتها حفظ الأموال وحقن الدماء وصلاح الخاصة والدهماء . وأن بقوام الطاعة تقام الحدود . وتوفى العهود . وبها وصلت الأرحام . ووضحت الأحكام وبها سد الله الخلل . وأمن السبل . ووطأ الأكناف . ورفع الاختلاف . وبها طاب لكم القرار . واطمأنت بكم الدار . فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به . » والضرورى — ما لا يسلم بدونه شرف الانسان أو حياته وفى هذا الدليل من القوة ما لا يخفى لأن الخطيب قد لا يصل إلى مقصوده من السامعين بطريقى الصالح والنافع فلا بد له حينئذ من الاستعانة بالدليل — من الضرورى

لما بلغ طارق ابن زياد لذريق قام فى أصحابه . فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم حث المسلمين على الجهاد ورغبهم فيه مبينا لهم ضرورته لسلامة شرفهم وصون حياتهم : ثم قال خطبته الآتية فى الخطب العسكرية

ويثبت الخطيب كون الأمر سهلا ببيان قرب مناله وقلة العناء فى تحصيله مع وفرة منافعه فان الحصول على الشيء بدون تعب والوصول إليه بأقرب وقت من أهم بواعث الاقتناع بما يشار به

والمقصود باللذيذ كل مايجدى فرحا بالقلب وراحة

وهذه الأمثلة كقول الأديب مرغبا فى طلب العلم بما يحصل لصاحبه من اللذة

ما تَطَعَّمْتُ لذةَ العيشِ حتى صرتُ فى وحدتى لكُتْبى جليسا
ليس عندى شيء ألذ من العلم فلا أبتغى سواه أنيسا

ولو أردت المنع من الشيء وجدت له أمثلة منها. ما قال يحيى البرمكى للهادى وكان قد عزم الهادى على أن يخلع أخاه هارون من الخلافة ويبايع لابنه جعفر فصده عن ذلك يحيى مبينا ضرر فعله فقال « يا أمير المؤمنين إن فعلت حملت الناس على نكث الأيمان ونقض العهود وتجرأ الناس على مثل ذلك ولو تركت أخاك هارون على ولاية العهد ثم بايعت لجعفر بعده كان ذلك أوكد فى بيعته .ولو حدث بك حادث الموت وقد خلعت أخاك وبايعت لابنك جعفر وهو صغير دون

البلوغ أفترى كانت خلافته تصح . وكان مشايخ بنى هاشم يرضون ذلك ويسلمون الخلافة إليه . فدع هذا الأمر حتى تأتيه عفوا ولو لم يكن المهدى بايع لهارون لوجب أن تبايع أنت له لئلا تخرج الخلافة من بيت أبيك »

ومثله أيضا قول الفضل بن العباس فى مشاورة المهدى لأهل بيته فى حرب خراسان يصد الخليفة عن محاربة تلك البلاد — « أيها المهدى إن ولى الأمور وسائس الحروب ربما نحى جنوده وفرق أمواله فى غير ماضيق أمر حزبه ولا ضغطة اضطرته . فيقعد عند الحاجة إليها وبعد التفرقة لها عديما منها فاقدا لها لايثق بقوة . ولا يصول بعدة . ولا يفزع إلى ثقة . فالرأى لك أيها المهدى وفقك الله أن تعفى خزائنك من الإنفاق للأموال . وجنودك من مكابدة الأسفار ومقارعة الأخطار وتغرير القتال . ولا تسرع للقوم فى الإجابة إلى ما يطلبون . والعطاء لما يسألون فيفسد عليك أدبهم وتجرىء من رعيتك غيرهم . ولكن اغزهم بالحيلة . وقاتلهم بالمكيدة وصارعهم باللين . وخاتلهم بالرفق . وأبرقهم بالقول . وأرعد نحوهم بالفعل وابعث البعوث . وجند الجنود . وكتب

الكتائب واعقد الألوية وانصب الروايات . وأظهر أنك موجه إليهم الجيوش مع أحنق قوادك عليهم وأسوإهم أثراً فيهم ثم ادسس الرسل وابثث الكتب وضع بعضهم على طمع من وعدك وبعضاً على خوف من وعيدك . وأوقد بذلك وأشباهه نيران التحاسد فيهم واغرس أشجار التنافس بينهم . حتى تملأ القلوب من الوحشة . وتنطوي الصدور على البغضة ويدخل كلا من كل الحذر والهيبة . فإن مرام الظفر بالغيلة والقتال بالحيلة والمناصبة بالكتب . والمكايدة بالرسل . والمقارعة بالكلام اللطيف المدخل في القلوب . القوي الموقع من النفوس المعقود بالحجج الموصول بالحيل المبني على اللين الذي يستميل القلوب . ويسترق العقول والآراء . ويستميل الاهواء ويستدعي المؤاتاة أنفذ من القتال بظبا السيوف وأسنة الرماح كما ن الوالي الذي يستنزل طاعة رعيته بالحيل . ويفرق كلمة عدوه بالمكائد . أحكم عملا وألطف منظراً وأحسن سياسة من الذي لا ينال ذلك إلا بالقتال والاتلاف للاموال والتغرير والخطار . وليعلم المهدي أنه إن وجه لقتالهم رجلا لم يسر لقتالهم إلا بجنود كثيفة تخرج عن حال شديدة . وتقدم على

أسفار ضيقة وأموال متفرقة. وفؤاد غششة . إن ائتمنهم استنفدوا ماله . وأن استنصحهم كانوا عليه لاله . »

وأخص العواطف التي يحسن بالخطيب المشورى أن يحركها الأمل . والثقة بالوصول الى الغاية المرغوبة . ثم المحبة والشوق إلى الحصول عليها بوصف محاسنها وتعظيم قدرها . ثم تحريك المنافسة ليجارى السامع من سبقه فيباريهم فى العمل ويظفر بما أصابوه أو تحرك العواطف المخالفة للأهواء المذكورة كالنفور والخوف كما فعل (هولاكو خان المغولى) إذ دعا الملك الناصر إلى طاعته وفتح مدينة حلب بجيشه فقال (يعلم الملك أننا جند الله فى أرضه ملكنا وسلطنا على من حل عليه غضبه فليكن لكم فى من مضى معتبر . وبما ذكرناه وقلناه مزدجر . فالحصون بين أيدينا لا تمنع . والعساكر للقائنا لا تضر ولا تنفع . ودعاؤكم علينا لا يستجاب ولا يسمع . فاتعظوا بغيركم . وسلموا إلينا مقاليد أمركم . قبل أن ينكشف الغطاء . ويحل عليكم الخطأ . فنحن لا نرحم من شكى ولا نرق لمن بكى . وقد أخربنا البلاد . وأفنينا العباد . وأيتمنا الأولاد . وتركنا فى الارض الفساد . فعليكم

بالحرب. وعلينا بالطلب . فمالكم من سيوفنا خلاص . ولا من سهامنا مناص . فخيولنا سوابق . وسهامنا خوارق . وسيوفنا صواعق . عقولنا كالجبال . وعددنا كالرمال . فمن طلب منا الأمان سلم . ومن طلب الحرب ندم . فان أنتم أطعتم أمرنا . وقبلتم شرطنا . كان لكم مالنا . وعليكم ماعلينا وإن أنتم خالفتم أمرنا . وفى غيكم عاديتم فلا تلومونا ولوموا أنفسكم فالله عليكم ياظالمون . فهيئوا للبلايا جلبابا . وللرزايا أترابا . فقد أعذر من أنذر . وأنصف من حذر . لأنكم أكلتم الحرام. وخنتم الأيمان. فأبشروا بالذل والهوان. فاليوم تجدون ما كنتم تعملون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون . فقد ثبت عندكم أننا كفرة . وثبت عندنا . أنكم فجرة. وسلطنا عليكم من بيده الأمور مقدرة. والأحكام مدبرة : فعزيزكم عندنا ذليل . وغنيكم لدينا فقير . ونحن مالكون الأرض شرقا وغربا. وأصحاب الأموال نهبا وسلبا . وأخذنا كل سفينة غصبا . فميزوا بعقولكم طرق الصواب قبل أن تضرم الكفرة بنارها وترمى بشرارها. فلا تبقى منكم باقية . وتبقى الارض منكم خالية . فقد أيقظناكم

حين راسلنا كم فسارعوا إلينا برد الجواب بتة . قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم تعلمون)

(المبحث الثانى فى الخطب العسكرية)

هى التى يلقيها قائد الجيش قبل الحرب ليحض جنده على مناهضة العدو ويدفعهم بها على الذب عن حياض الوطن — وخطرها عظيم لأن كثيراً ما يتوقف عليها انتصار الجيش فأن الجندى إذا تحمس بكلام رئيسه نشط للقتال وحارب العدو غير مبال بالخطر فيفوز بأحدى الحسنيين الظفر والغنيمة . أو الموت والشهادة — والخطب العسكرية — تدور على محور معلوم ثابت مختلف الأغراض : فالواجب على الخطيب فى ذلك أمران (الاول) ان ينهض همة الجندى ويعظم فى عينه شأن الوطن الذى تصدى للدفاع عنه . وما سيناله بحسن بلائه من المجد وحسن الذكرى عند مواطنيه ومن الثواب لدى الله تعالى إن مات شريف النفس شهيد حبه للوطن (الثانى) أن يبغض إليه العدو ببيان جوره وطمعه

في الاستبداد وحب السيادة على الناس بلا مسوغ . ثم يذلل الأمر ببيان ضعف قوته وسهولة الانتصار عليه . والفوز بعدده وذخائره . ولهذه الخطب أربع صفات (الأولى) أن يلقيها الخطيب بحماسة عظيمة فيجيز في قلوب سامعيه مافي نفسه من الحمية والنشاط (الثانية) أن تكون بليغة متضمنة الأفكار الشريفة . والمعاني المنيفة الموجبة للعواطف لاسيما الرجاء والثقة (الثالثة) أن تكون واضحة قريبة المنال يدركها الجند دون عناء (الرابعة) أن تكون موجزة لا يمل منها . فاذا توفرت فيها هذه الصفات خرجت من فم الخطيب كشهب النار الملتهبة وعملت في نفوس الجند عمل النبال الراشقة فيتهافتون على نزال العدو غير مبالين بالخطر : كقول الامام علي رضى الله عنه لأصحابه في الحرب « وأي امرئ منكم أحس من نفسه رباطة جأش عند اللقاء ورأى من أحد من إخوانه فشلا فليذب عن أخيه بفضل نجدته التي فضل بها عليه كما يذب عن نفسه فلو شاء الله لجعله مثله . إن الموت طالب حثيث لا يفوته مقيم ولا يعجزه الهارب . إن أكرم الموت القتل . والذى نفس ابن أبي طالب بيده لألف ضربة

بالسيف أهون علىّ من ميتة على الفرش . وكأنى أنظر اليكم تكشون (١) كشيش الضباب لا تأخذون حقا . ولا تمنعون ضيما . قد خليتم الطريق فالنجاة للمقتحم (٢) . والهلكة للمتلوّن . فقدموا الدارع . وأخروا الحاسر وعضوا على الأضراس فانه أنبا للسيوف عن الهام . والتووا (٣) فى أطراف الرماح فأنه أمور للأسنة . وغضوا الابصار فأنه أربط للجأش وأسكن للقلوب . وأميتوا الاصوات فأنه أطرد للفشل . ورايتكم فلا تميلوها ولا تخلوها ولا تجعلوها إلا بأيدى شجعانكم والمانعين الذمار منكم . فأن الصابرين على نزول الحقائق هم الذين يحفون براياتهم ويكتنفونها حفافيها (٤) ووراءها وأمامها ولا يتأخرون عنها فيسلموها . ولا يتقدمون فيفردوها . أجزأ امرؤ قرنه وآسى أخاه بنفسه ولم يكل قرنه الى أخيه فيجتمع

---

(١) تتراجعون هربا من القتال . والضباب السحاب . والضيم الظلم . (٢) المقتحم الرامى بنفسه فى ساحة الحرب أو غيره من المخاطر والمتلون الذى لايثبت (٣) التووا أمر من التوى اذا مال . وأمور ماخوذ من مار الشيء مورا تحرك بسرعة ا ـ هم

(٤) حفافيها جانبيها

عليه قرنه وقرن أخيه . وأيم الله لئن فررتم من سيف العاجلة لا تسلموا من سيف الآخرة وأنتم لهاميم[1] العرب . والسنام الأعظم . إن في الفرار موجدة[2] الله . والذل اللازم والعار الباقي . وإن الفار لا مزيد في عمره ولا محجوز بينه وبين يومه الرائح الى الله كالظمآن يرد الماء . الجنة تحت أطراف العوالي . اليوم تبلى الاخبار . والله لأنا أشوق إلى لقائهم منهم الى ديارهم . اللهم فإن ردوا الحق فافضض جماعتهم وشتت كلمتهم وأبسلهم[3] بخطاياهم . إنهم لن يزالوا عن مواقفهم دون طعن دراك يخرج منه النسيم . وضرب يفلق الهام ويطيح العظام ويندر السواعد والاقدام . وحتى يرموا بالمناسر[4] تتبعها المناسر . ويرجموا بالكتائب تقفوها الحلائب وحتى يجر ببلادهم الخميس يتلوه الخميس وحتى تزعق[5] الخيول في نواحر

---

(١) اللهاميم الاسخياء (٢) الموجدة الغضب (٣) أبسله أسلمه للهلكة

(٤) المناسر جمع منسر وهو الجيش لا يمر بشيء الا اقتلعه والكتائب جماعات الجيش والحلائب الا بل يحلب منها اللبن والخميس الجيش لانه خمس فرق المقدمة والقلب والميمنة والميسرة والساق

(٥) تزعق تصيح . والنواحر الاوائل والاعناق الجوانب . اهـ م

أوضنهم وبأعنان مشاربهم ومسارحهم »

ومن أحسن هذه الخطب خطبة طارق قبل فتوح الاندلس: لما بلغ طارقا دنو لذريق قام فى أصحابه فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم حث المسلمين على الجهاد ورغبهم ثم قال «أيها الناس أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر. واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الايتام فى مأدبة اللئام. وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته. وأقواته موفورة وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ولا أقوات الا ما تستخلصونه من عدوكم وإن امتدت بكم الايام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا. ذهب ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم. فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية فقد القت به اليكم مدينته الحصينة وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن ان سمحتم لأنفسكم بالموت. وإنى لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة. ولا حملتكم دونى على خطة أرخص متاع فيها النفوس. أبدأ بنفسى. واعلموا أنكم إن صبرتم على الاشق طويلا. استمتعتم بالارفه الألذ طويلا. فلا

ترغبوا بأنفسكم عن نفسي . فاحظكم فيه بأوفر من حظي .
وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الخيرات العميمة .
وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الابطال
عربانا ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا . ثقة منه
بارتياحكم للطعان واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان
ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته . وإظهار دينه
بهذه الجزيرة وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ومن دون
المؤمنين سواكم . والله تعالى ولى إنجادكم على ما يكون لكم
ذكرا فى الدارين . واعلموا أنى أول مجيب إلى مادعوتكم إليه
وأنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم (لذريق)
فقاتله ان شاء الله تعالى فاحملوا معى فأن هلكت بعده فقد
كفيتم أمره . ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه
وإن هلكت قبل وصولى إليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه واحملوا
بأنفسكم عليه واكتفوا الهم من فتح هذه الجزيرة بقتله »

ولما التقى الزحفان وتقارب القوم قام حنظلة بن ثعلبة
فقال يامعشر بكر بن وائل إن الشباب الذى مع الاعاجم

يفرقكم فاذا أرسلوه لم يخطئكم . فعاجلوهم اللقاء وابدءوهم بالشدة

ثم قام هانى بن مسعود فقال — ياقوم مهلك مقدور خير من نجاء مغرور — وإن الحذر لايدفع القدر . وإن الصبر من أسباب الظفر . المنية ولا الدنية . واستقبال الموت خير من استدباره . والطعن فى الثغر . أكرم من الطعن فى الدبر . ياقوم جدوا فامن الموت بد . فتح لو كان له رجال . أسمع صوتا ولا أرى قوما . ويا آل بكر شدوا واستعدوا واشتدوا وإلا تُرَدّوا

(المبحث الثالث فى التحريض والتقريع)

خطبة التحريض . هى خطبة حماسية يراد بها تهييج نفس السامع على مباشرة أمر أو تركه كقول اسماعيل بن عبدالله القشيرى فى رد الخليفة مروان عند التجائه مع أهله من أعدائه الى الروم بدلا من أجناد العرب « أعيذك بالله يا أمير المؤمنين من هذا الرأى أن تحكم آل الشرك فى

بناتك وحرمك وهم الروم لاوفاء لهم ولا تدرى ماتأتى به الايام . وأنت ان حدث عليك حادث بأرض النصرانية . «ولا يحدث عليك الا خير» ضاع من بعدك . ولكن اقطع الفرات ثم استنفر أهل الشأم جندا . فأنك فى كنف وعزة . ولك فى كل جند صنائع يسيرون معك حتى تأتى مصر فأنها أكثر أرض الله مالا وخيلا ورجالا . ثم الشأم أمامك وأفريقية خلفك فأن رأيت ماتحب انصرفت الى الشأم وان كانت الاخرى مشيت الى أفريقية »

وخطبة التقريع هى ماتاتى على سبيل التوبيخ واللوم لدفع المخاطب إلى قصد عظيم كطاعة بعد عصيان وعمل بعد فشل وإنابة بعد ذنب . ومن أحسن ماجاء فى ذلك خطبة الأمام على رضى الله عنه التى قالها بعد أن أوقع بأنصاره سفيان بن عوف فى الأنبار

حدث ابن عائشة فى إسناد ذكره أن عليا رضى الله عنه انتهى إليه أن خيلا لمعاوية وردت الأنبار فقتلوا عاملا له يقال له حسان بن حسان فخرج مغضبا يجر ثوبه حتى أتى

النخيلة (١) واتبعه الناس فرقى رباوة (٢) من الأرض فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم قال «أما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله الذل وسيماء (٣) الخسف. وديث بالصغار. وقد دعوتكم إلى حرب هؤلاء القوم ليلا ونهارا وسرا وإعلانا وقلت لكم اغزوهم من قبل أن يغزوكم فو الذى نفسى بيده ماغزى قوم قط فى عقر (٤) دارهم إلا ذلوا فتخاذلتم وتواكلتم وثقل عليكم قولى واتخذتموه وراءكم ظهريا (٥) حتى شنت عليكم الغارات . هذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار وقتلوا حسان بن حسان ورجالا منهم كثيرا ونساء. والذى نفسى بيده لقد بلغنى أنه كان يدخل على المرأة المسلمة والمعاهدة فتنتزع احجالهما (٦) ورعاثهما ثم انصرفوا موفورين لم يكلم

---

(١) النخيلة كجهينة موضع بالعراق حدثت به وقعة بين الخوارج وعلى رضى الله عنه (٢) الرباوة مثلثة ما ارتفع من الارض وكذا الربوة .

(٣) سيماء الخسف علامة الذل والهوان وديث ذل . (٤) عقر الدار أصلها (٥) رميتم به وراء ظهوركم أى لم تلتفتوا اليه . وشنت صبت (٦) الاحجال الخلاخيل واحدها حجل . والرعاث جمع رعثة وهى الشنوف من الذهب يحلى بها الانف اهـ — م

أحد منهم كلها فلو أن امرأ مسلما مات من دون هذا أسفا ما كان عندي فيه ملوما بل كان به عندي جديرا . ياعجبا كل العجب عجب يميت القلب ويشغل الفهم ويكثر الأحزان من تضافر هؤلاء القوم على باطلهم وفشلكم عن حقكم حتى اصبحتم غرضا (١) ترمون ولا ترمون ويغار عليكم ولا تغيرون ويعصى الله عز وجل فيكم وترضون . اذا قلت لكم اغزوهم في الشتاء قلتم هذا أوان قر (٢) وصر . وإن قلت لكم اغزوهم في الصيف قلتم هذه حمارة (٣) القيظ أنظرنا ينصرم الحر عنا . فأذا كنتم من الحر والبرد تفرون فأنتم والله من السيف أفر . ياأشباه الرجال ولا رجال ويا طغام (٤) الأحلام . وياعقول ربات الحجال . والله لقد افسدتم على رأيي بالعصيان ولقد ملأتم جوفي غيظا حتى قالت قريش إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لارأى له في الحرب لله درهم ومن ذا يكون أعلم بها مني أو أشد لها مراسا (٥) . فو الله لقد نهضت

---

(١) الغرض بالتحريك هدف يرمى فيه (٢) القر بالضم البرد وكذا الصر بالكسر (٣) القيظ الصيف وحمارته اشتداد حره . وانظرنا اخرنا . وينصرم ينقطع (٤) الطغام من لاعقل له ولا معرفة (٥) المراس المعالجة اهـ — م

فيها وما بلغت العشرين . ولقد نيفت اليوم على الستين ولكن لا رأى لمن لا يطاع يقولها ثلاثا »

وخطبة الحجاج لما ولى العراق . دخل مسجد الكوفة معتما بعمامة قد غطى بها اكثر وجهه متقلدا سيفا متنكبا قوسا فصعد المنبر وحسر اللثام عن فيه ونهض فقال . من جملة كلامه «إني والله يا أهل العراق ما يقعقع (١) لى بالشنان ولا يغمز جانبي كتغماز التين ولقد فررت عن ذكاء وفتشت عن تجربة وإن أمير المؤمنين اطال الله بقاءه نثر كنانته (٢) بين يديه فعجم عيدانها فوجدني أمرها عودا وأصلبها مكسرا فرماكم بي لأنكم طالما أوضعتم (٣) في الفتنة في مراقد الضلال والله لأحزمنكم حزم السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع

---

(١) القعقعة في الاصل حكاية صوت السلاح والشنان جمع شن وهو القربة الخلق . وهو مثل يضرب لمن لا يتضع لحوادث الدهر ولا يروعه ما لا حقيقة له . (٢) الكنانة وعاء السهام . وعجم العود عضه ليعرف صلابته من خوره (٣) المراد سعيتم في الفتنة مسرعين اهـ — م

والخوف بما كانوا يصنعون وإني والله ما أقول الا وفيت ولا أهم إلا أمضيت ولا أخلق (١) إلا فريت وإن امير المؤمنين أمرني بأعطائكم أعطياتكم وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة وإني أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه »

وخطبته بعد وقعة دير الجماجم التي فرع فيها أصحابه تقريعا لا مزيد عليه . . « يا أهل العراق قد اتخذتم الشيطان دليلا تتبعونه . وقائدا تطيعونه ومؤامرا تستشيرونه وكيف تنفعكم تجربة أو تعظكم وقعة أو يحجزكم إسلام أو يردكم إيمان . أولستم أصحابي بالأهواز حيث رمتم المكر وسعيتم بالغدر . واستجمعتم للكفر وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته وأنا أرميكم بطرفي وأنتم تتسللون لواذا (٢) وتنهزمون سراعا يوم الزاوية وما يوم الزاوية . بها كان فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ونكوص وليه عنكم إذ وليتم

---

(١) خلق النطع والاديم قدره قبل أن يقطعه فاذا قطعه قيل راه . يريد انه لا يعتزم أمرا الا نفذه (٢) لواذا . اي يلوذ بعضكم ببعض اهـ — م

كالإبل الشوارد إلى أوطانها . النوازع إلى أعطانها لا يسأل المرء منكم عن أخيه . ولا يلوي الشيخ على بنيه حتى عضكم السلاح وقصمتكم الرماح يوم دير الجماجم وما دير الجماجم به كانت المعارك والملاحم بضرب يزيل الهام عن مقيله . ويذهل الخليل عن خليله . يا أهل العراق . أهل الكفرات والفجرات والغدرات بعد الخترات والثورة بعد الثورات إن بعثتكم إلى ثغوركم غللتم وخنتم وإن أمنتم أرجفتم . وإن خفتم نافقتم لا تذكرون نقمة . ولا تشكرون نعمة . يا أهل العراق هل استخفكم ناكث أو استغواكم غاو أو استفزكم عاص أو استنصركم ظالم أو استعضدكم خالع إلا وثقتموه وآويتموه وعزرتموه ونصرتموه ورضيتموه وأرضيتموه . يا أهل العراق هل شغب شاغب أو نعب ناعب أو نعق ناعق أو زفر زافر إلا كنتم أتباعه وأنصاره . يا أهل العراق ألم تنهكم المواعظ ألم تزجركم الوقائع — ثم التفت إلى أهل الشام فقال — يا أهل الشام إنما أنا لكم كالظليم (١) الذاب عن فراخه ينفي عنها المدر ويباعد

---

(١) الظليم ذكر النعامة اهـ — م

عنها الحجر ويكنوا من المطر ويحموها من الضباب ويحرسوها من الذباب . يا أهل الشام أنتم الجبة والرداء . وأنتم العدة والحذاء »

(المبحث الرابع فى خطب الطلب والوصية)

خطبة الطلب . ما يلتمس بها الخطيب خيراً لنفسه أو لغيره — والوصية الأمر بالخير . ومنه يوصيكم الله فى أولادكم أى يأمركم

والطريقة المثلى فى خطبة الطلب أن تمهد نفس المنعم لقبول طلبك باستعطاف قلبه . ثم تعرض المطلوب مبينا أسبابه وصلاحيته وقدرة المخاطب على منحه . ثم تختم بالشكر للمنعم مع الثناء والرجاء من الله تعالى أن يكافئه على حسن صنيعه . ومثالها الخطب التى تقال لمساعدة المبؤوسين وإعانة المنكوبين بحرب أو حريق . وفك الأسرى . والخطوب العامة .

ومن الأمثلة الحسنة فى الطلب ماقاله بعض الادباء يستعطف أحد الامراء « إليك يامن استأثر النفوس بكرمه

واسترق الأحرار بجميل صنعه أرفع خطابا تبعثه الى ناديك عوامل الحاجة وتسديه إلى ساحتك دواعي الشدة . مؤملا أن يكون تذكرة بأمري والذكرى تنفع المؤمنين. فقد كان سيدي رفع الله قدره وأعلى قرنه وعدني ومثله من يتمسك من الوفاء بالعروة الوثقى ويقطع حبل الإخلاف بسيف الوفاء. وينجز خلعة الوعد بوشى العطاء . أن يرسل لى من خيراته ويوليني من آلائه وحسناته ما أشد به أزرى على الزمان وأطاول به نوائب الحدثان. فقد بارزني الدهر بسيوفه ورماني بسهامه وأناخ على بكلا كله: وأملى فى ذلك فسيح فأن سيدي من اكرم الناس نسبا وأشرفهم حسبا ومثله جدير بحفظ العهد وإنجاز الوعد. فأن رأى سيدى أن يخفف ثقل الحاجة عنى ويرد ماسلبه الدهر منى بقطرة من بحر عطائه ومنة من بعض آلائه ويجبر ما كسره الفقر من جناحى ويرد عنى النوائب التى لا تفتأ تتوالى فى عقدت لسانى على مدحه ووقفت نفسى على شكره فيحرز من الله أجرا جزيلا ومنى شكرا جميلا إن شاء الله »

ومن أجود خطب الوصية ما قال أبو بكر الصديق رضى

الله عنه لاحد قواد جيشه — «إذا سرت فلا تعنف أصحابك في السير ولا تغضبهم وشاور ذوى الآراء منهم واستعمل العدل وباعد عنك الجور فإنه ما أفلح قوم ظلموا ولا نصروا على عدوهم . وإذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الادبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله . وإذا نصرتم عليهم فلا تقتلوا شيخا ولا امرأة ولا طفلا ولا تحرقوا زرعا ولا تقطعوا شجرا ولا تذبحوا بهيمة إلا ما يلزمكم للأكل ولا تغدروا إذا هادنتم ولا تنقضوا إذا صالحتم . وستمرون على أقوام في الصوامع رهبان ترهبوا لله قد عوهم وما انفردوا إليه وارتضوه لانفسهم فلا تهدموا صوامعهم ولا تقتلوهم والسلام » — ومن رسالة لعمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى بعض قواد جيشه «أما بعد فأني أوصيك ومن معك من الأخيار بتقوى الله في كل حال فأن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى المكيدة في الحرب وأن تكون أنت ومن معك أشد احتراسا من المعاصى منكم من عدوكم فأن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم

ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم. فأن استوينا فى المعصية. كان لهم الفضل علينا فى القوة. وان لم ننصر عليهم بطاعتنا لم نغلبهم بقوتنا. واعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من الله يعلمون ماتفعلون فاستحيوا منهم واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم. وأقم بمن معك فى كل جمعة يوما وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وامتعتهم. ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق به. وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم ثم أذك أجراسك على عسكرك وتيقظ من البيات جهدك. والله ولى أمرك ومن معك وولى النصر لكم على عدوكم»

(المبحث الخامس فى خطب التوصية والشفاعة)

التوصية طلب الخير لثالث كالشفاعة وأفضل طريق

في خطبة التوصية وصف خلال الموصى به التي تؤهله للنعمة المطلوبة لاسيما حسن سيرته وصدق أمانته وكمال إخلاصه واستقامة عمله ثم يبين الخطيب احتياج الموصى به إلى الالتفات إليه ومد يد المساعدة له ويختمها بالشكر الدائم لمعروف المنعم من قبله وقبل الموصى به . وخطب الشفاعة هي التي يستملك بها الخطيب رضا المخاطب ويسأله التجاوز عن ذنب المسيء إليه وأقوم طريق لخطب الشفاعة أن يتخذ الشفيع كل الوسائل لإخماد نار الغضب عند من حاول استعطافه ويفتتح كلامه بالأقرار بالذنب ثم يتدرج إلى طلب الصفح عن المسيء إما ببيان جهله وخطئه . وإما بذكر ما نزل به من العقاب أو التوبيخ بسوء فعله مع أسفه وندمه على ما اجترحه . ثم بذكر ما في التجاوز عن إثم المسيء من الكرم وحسن الذكرى وجميل الجزاء في الدارين . ويختم بوعد الشكر المؤبد لمن يصفح عن الإساءة مع القصد بالتعويض عنها ما أمكن الجاني فضلا عن الإنابة عن ذنبه

(الفصل الثالث في القول المشاجري)

القول المشاجري خاص بالمحاكم القضائية أهلية كانت

أوشرعية وينقسم إلى قسمين شكاية من جناية — أودفاع عن متهم . . . والغاية منه العدل والجور . فيؤخذ بناصر المظلوم — ويرد جور الظالم . . والخطيب المشورى فى الغالب هو المحامى القانونى الذى يتولى أعمال المحاكمات إما لتأثيم متهم — وإما لتزكيته — وأخص صفات الخطيب المشاجرى ثلاث (الأولى) النزاهة والاستقامة - بحيث يقوم بالأمر الموكول إليه بكل غيرة وأمانة ونشاط . إذا رأى القضية عادلة . وترجح عنده صحتها . أما إذا عرفها على غير ذلك فلا يجوز له قبولها (الثانية) معرفة الأصول الشرعية . والقوانين العادلة . ليحيد عن الضلال وتثق به هيأة القضاء (الثالثة) تمام الوقوف على وقائع الدعوى وأسانيدها وتفاصيلها لئلا يطوح بالأبرياء . أو يبرىء ساحة المجرمين (هذا) وإن القوانين الشرعية التى يجرى عليها القضاء العادل فى عصرنا هذا لاتدع مجالا كبير البلاغة الخطيب . غير أنه إذا كان محنكا يستطيع فى كثير من الدعاوى أن يؤثر ببلاغته فى عقول القضاة وأرباب المحاكمة سواء كان بشرح مادة خفية . أو بذكر بعض الظروف المخففة عن الجانى أو إيضاح

بعض تلاعب الخصوم فى الدعوى وغير ذلك مما يبنى عليه
كلامه فى تبرئة المتهم أو تذنيب الخصم

وعلى الجملة فلا نفيض القول فى هذا الفصل فأنه كما
عرفت مهمة المحاماة وقد انفرد بها طائفة معروفة . وفيما
ذكرناه فى واجب هذه الطائفة فى كتابى الأخلاق والبدع
كفاية وبالله تعالى التوفيق

(الفصل الرابع فى خطاب الوعظ)

قد عرفت أن الوعظ الدينى نوع من الخطابة العامة
وفن من فنونها إلا أنه يتميز عن باقى أنواع الخطابة بشروط
خاصة وآداب لا بد منها وإن كان كل نوع من الأنواع
المتقدمة كذلك شأن الأنواع المندرجة تحت جنس واحد
والقدر المشترك الذى بيناه فى أصول الخطابة يكفى الخطيب
إذا دعته الحاجة إلى مباشرة أى فن من فنونها المتقدمة —
ومعلوم أن الحاجة إلى الوعظ الدينى أشد والمزاولة له أكثر
فيحتاج من يتصدى له مع ما تقدم فى الخطابة العامة إلى
زيادة تفصيل وإيضاح

ونحن قدمنا الكلام على الوعظ والأرشاد اهتماما بشأنه وذكرناه فى باب على حدة بينا فيه مبادئه وما ينبغى أن يكون عليه الواعظ من الصفات الحميدة والآداب المستحسنة إلى غير ذلك مما تقدم فى بابه — ولتمام الفائدة فى فن الوعظ والارشاد نقول

غير خاف عليك أن مصادر الوعظ والأرشاد ويناببيعه الصافية هى الكتاب والسنة ثم خلاصة أفكار ذوى النفوس العالية التى لا تخرج عنهما فأن كل ماتراه من طرق الوعظ والارشاد إنما هو معانى الكتاب والسنة تكيفها العقول بكيفيات مختلفة بالتصريح أو الاستنباط — وإن أجود الناس فى هـذا التكييف والابداع هم الكملة من حملة الشريعة والاخلاقيون . ولذلك كان المتحققون من الصوفية هم أكثر الناس أثرا فى هـذا الباب وبقدر ما يكون اقتراب المعنى الأرشادى من الكتاب والسنة يكون تأثيره فى النفوس وتلقى العقول له بالقبول

ومن هذا تعلم سر إعجاز القرآن الحكيم وأنه جاء بأبلغ الأساليب وأعجز العالم بلفظه ومعناه ومتانة أسلوبه

ووقوفه على أحوال البشر جليها وخفيها واستقصائه أمراض النفوس ظاهرها وباطنها لأن منزله هو الخالق لكل شيء والعليم بكل شيء فقرع بشدة وعظه وقوة تأثيره النفوس العاتية والقلوب القاسية بالكفر والعناد والأنفة والكبرياء وأمر عباده الصالحين الداعين إليه أن يصلحوا به أمر العباد فمن كان على استعداد تام للتأثير به كفاه في الرجوع إلى الله تعالى إسماعه له بسلامة ذوقه وفطرته فسليم الفطرة . والذوق يكفيه أقل منه إذا عرضت له الغفلة شأن الإنسان الحي فكيف بأعظم وأكبر مؤثر

لذلك كانت الخطابة وأساليب الوعظ في الصدر الأول تدور حول الكتاب والسنة لا غير . ولما تراجع الذوق العربي في المسلمين وكثرت الأمراض النفسية أخذ الخطباء والوعاظ يتصرفون في أساليب الوعظ بما يؤثر على السامعين حسب أحوالهم واستعدادهم والكل مرجعه الكتاب والسنة سواء في المسائل الاعتقادية أو العملية أو الاخلاقية أو الاجتماعية ـ وكل ذلك نتيجة تولد الافكار الراقية المهذبة ومن هذا يتبين لك فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم

وأنه رحمة للعالمين وفضل القرآن الكريم وأنه هدى وشفاء بخلاف الكتب السماوية السابقة عليه. إذ لو جاءت بهذا الاعجاز لما ظهر أمام العقول فضل لهذا الكتاب ولا لمبلغ الكتاب: وستعلم ان شاء الله تعالى عند مرورك على خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين والتابعين لهم بإحسان مايزيدك إيمانا بهذا القول فانك إذا نظرت إلى خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى قليلة موجزة جدا تجدها دائرة حول التوحيد ونبذ العوائد المستحكمة الضارة بنظام العالم - أما بقية كلامه صلى الله عليه وسلم فكان يدور حول تقرير الشرع وتبيين الحلال والحرام والحث على مكارم الأخلاق التى لم يعلموها ولم يتعودوها - ولكل كلامه مقتضيات دعت اليه فأن الكتب كانت تبعث إلى الكفار لدعوتهم إلى التوحيد وأمهات الفضائل العامة التى لا يختلف فيها العقلاء وبعد أن دخل الناس فى دين الله أفواجا وأشربوا فى قلوبهم حبه والتفانى فيه والغيرة عليه لم تكن مهمته معهم إلا بيان ما شرع الله من الحلال والحرام واقتلاع العوائد المستحكمة فيهم مخافة أن تهيج عليهم

واقتداؤهم به صلى الله عليه وسلم وإخلاصهم في محبته كان حاجزا منيعا من تمرد نفوسهم خصوصا بعد الاقناع التام وإيمانهم بعين اليقين كذلك كان شأن الخطب الدينية يبين فيها ما تدعو الحاجة اليه من الأحكام التشريعية المناسبة للحال مع التذكير بالله واليوم الآخر ليصابروا على مشاق الجهاد واحتمال مكايد الاعداء لأعلاء كلمة الله والمحافظة على دينه القويم ولذلك كانت نفوسهم متشوقة إلى الشهادة زاهدة في الدنيا راغبة في لقاء الله تعالى كذلك كان شأن أبي بكر وعمر وعثمان رضوان الله عليهم لم تتغير في عصرهم أساليب الوعظ والخطابة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا في أحوال خاصة قليلة دعت اليها الحاجة كخطبهم في أول بيعتهم لأن لذلك ظرفا خاصا يدعو إلى الاختلاف وككلام أبي بكر رضي الله عنه مع أهل الردة وهكذا من الأحوال التي حدثت في المسلمين ولم تكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولذلك كانت خطبهم في الأحوال الخاصة قليلة جدا - بخلاف الامام على رضي الله عنه

فأنه خطب في فنون مختلفة لأن الفتن كثرت بعد

قتل عثمان رضى الله عنه كما سبق وكان التنازع فى الخلافة شديدا ولذلك أكثر من الكلام فى الجهاد وذم المنافقين والمنشقين وأهل العصيان . وتكلم فى الوعظ وأكثر من ذم الدنيا والتحذير منها كأنه رضى الله عنه أحس أن سبب هذه الانقلابات حب الدنيا والغفلة عن الله تعالى فكان يعظ الناس بحسب أحوالهم وما هم عليه من الأخلاق والأهواء وإن عليا كرم الله وجهه أول من تفنن فى أساليب الوعظ ووسع مادته . وكل ذلك نتيجة الانفعالات النفسية الحقة والاحتكاكات الفكرية الصادقة التى أوجبت تلك الحكم البالغة المقتطفة من ينابيع الكتاب والسنة وقضايا العقل الصحيح وقد ساعد على إبرازها عوامل الفساد المنتشرة فى المسلمين وقد كبر عليه ذلك وعظم لديه خصوصا فى شباب الاسلام وفى عصر الصحابة الذين اهتدوا بهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم واستناروا بنوره : وإن أكبر مادة يستمد منها الخطيب بعد الكتاب والسنة خطب الامام على وحكمه . وصفوة القول أن الخطابة الدينية الاسلامية ابتدأها رسول الله صلى الله عليه وسلم واستمرت إلى يومنا هذا وقد اشتهر

فيها بعد الامام على كرم الله وجهه أبو يحيى عبد الرحيم الشهير بابن نباتة وله ديوان خطب عنى بشرحه كثيرون واشتهر بعده أبو القاسم الزمخشرى فى كتاب أطواق الذهب فى المواعظ والخطب ومن مشاهير العهد الأخير الشيخ نعمان الالوسى صاحب غالية المواعظ والشيخ شعيب صاحب الروض الفائق (أما الخطابة الاسلامية المدنية) فأول من توسع فيها الامام على رضى الله عنه ثم بعض الخلفاء وعمالهم كمعاوية ويزيد ابنه والمنصور العباسى وزياد بن أبيه عامل معاوية على البصرة وعتبة بن أبى سفيان عامله على البصرة والحجاج بن يوسف عامل عبد الملك بن مروان على العراق وقتيبة بن مسلم عامل يزيد بن مروان على خراسان وبعض الخوارج كقطرى بن الفجاءة وأبى حمزة الشارى . ولكل منهم خطب قليلة تروى فى كتب الأدب وقد ألقاها أصحابها بداهة فهيجوا بها بعض الأهواء لاسيما الغضب والأنفة والخوف وسنذكر لك إن شاء الله تعالى نموذجا من الخطب على اختلاف أنواعها تنفعك فى مهمتك والله الموفق .

(حال الخطب اليوم وما يجب أن تكون عليه

إذا تتبعت تاريخ الاسلام بعد القرون المشهود لها بالخير تجد الخطب الدينية فى كل دولة قد تراجعت إلى الوراء حتى بلغت إلى ما هى عليه الآن من التأخر والانحطاط فأنها لما كانت بيد الملوك كان أكبر مهمتهم حث الناس على الطاعة لهم والاستنهاض إلى محاربة الاعداء بحق أو بغير حق وقل من ينظر فى احوال الناس وأمراضهم النفسية فيعظهم من ناحيتها. ولما تركها الملوك والأمراء لترفعهم أو لغيره ووكلوا أمرها إلى أئمة المساجد ساروا فيها على أهواء الملوك والأمراء إلا من رحم الله حتى سقطت فى تلك المهواة ووقعت فى أيدى من لا يجيدها ما عدا القليل من الخطباء الذين لم يبلغوا بها مكانها اللائق بها ولم يكف لندوره فى دعوة العالم الى الله وأصبحت الخطب اليوم عبارة عن كلمات تحفظ وتلقى وكلها تدور حول الدنيا وذمها والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بعبارات مجملة لا تغنى عن أمراض النفوس شيئا ولا تصل إلى أعماق القلوب. وما يسمعه الناس من الخطيب

اليوم يسمعونه غدا وما يلقى فى هـذا العام يدور فى العام القابل مع أن الواجب كما عرفت مراعاة الخطيب لمقتضى الحال وإصلاح السامعين على قدر ما فيهم من الفساد لافرق بين عالم وجاهل وأمير ومأمور شأن الهداية بالقرآن وشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين رضى الله عنهم أجمعين

وحيث كان الغرض من الخطابة الدينية دعوة الناس إلى الحق وتحريك عواطفهم لنشر الفضيلة وإماتة الرذيلة وإصلاح فساد قلوبهم وتطهيرهم من الأمراض النفسانية تعلم أن الخطب المجملة لا تفيد الجمهور لأنها لم تقف على داء ولم تصف دواء

فمثل من يقول إن المعاصى تزيل النعم وإن التعلق بالدنيا مبعد عن الله وقد استحق الناس العذاب لظهور الفساد فى البر والبحر ولو استقمنا ما انتقمنا . ما للمساجد خربت . ما للقلوب قست . ما للعيون لا تبكى . ما للقلوب لا تتألم قد انتهكتم الحرمات وتعديتم الحدود وأغضبتم الجبار فأنا الله

وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله وما شاكل ذلك من مجملات القول. مثل الطبيب الذى يخاطب الجمهور فى قواعد الصحة العامة وفيهم المسلول والمحموم والمجذوم والمصدوع والمبطون وذو الرمد والبول الدموى وماشاكل ذلك من الامراض الفتاكة التى تحتاج الى دواء خاص وعلاج خاص وحمية خاصة ويقول نظفوا غرف النوم وقللوا من الغذاء ولا تأكلوا المخلطات ولا تبصقوا فى أماكن الاجتماع وما شاكل ذلك من الكليات التى تصلح للصحيح كما تصلح المريض فهم لا يلتفتون إليها لأنها أصبحت فى حكم المعلوم بالضرورة ولا تؤثر فيهم أقل التأثير لانها لم تمس موضع الألم فيحس المريض ولم تصف دواء فيعلق عليه الأمل وينشط فى العمل

لذلك يجب على الخطيب الدينى أن يتكلم على الموضوع الخاص ويحلله تحليلا دينيا أخلاقيا اجتماعيا فيتكلم على الشرك بالله مثلا وأنه نتيجة البله والسقوط من مرتبة الانسان الحق مهما كان صاحبه ذكيا مخترعا فى الدنيا لأن هذه الآثار الحقة والعوالم الكبيرة من لم يتأثر بها يكون كالانعام بل

هو أضل وذلك سر كون الله تعالى . لا يغفر أن يشرك به لأن المشرك به عطل كل حواسه عن النظر وانكب فى الشهوات على وجهه

ثم إذا أراد أن يتكلم على الشرك الخفى الواقع فى المسلمين سواء جاء من طريق الرياء أو من طريق الاعتماد على الأسباب يقول إن مثل هذا قد تغلب عليه الشيطان بخيله ورجله فأضاع عليه الوقت بضياع عمله لأن من يعمل لغيره لا بد له من جزاء إن كان عاقلا بل من يعمل لنفسه لا بد له من ثمرة يتوخاها والناس والأسباب المادية لا تمين ولا تجازى بثواب وقد انقطع مدد الله عنه لأنه لم يعمل له وهذا هو الخسران المبين . ثم يذكر آيات وأحاديث الشرك بنوعيه المنذرة بسوء العاقبة

ومن يخطب فى الزنا . يذكر مضاره من اختلاط الانساب وتفريق الوحدة وأن زوج الزانية معرض لصرف ماله على أولاد الاجانب وأن الزانية والزانى قد تعرضا لهتك حرمة الزوج واعتديا على حقه الشرعى وهتكا حرمة العائلات وسجلا عارا لا ينمحى وتشبها بالحيوان العجماوى

حيث ينزو ذكره بأثناه في أي وقت بلا شرط ولا قيد
فضلا عن المضار البدنية التي قد تلحق احدهما لان من اجترأ
على الله يجترىء في سبيل شهوته على ضرر العباد ثم يذكر
آيات الزنا وفظاعة عقوبته حيث كان فاحشة وساء سبيلا .
ثم ينفر الناس من الزاني والزانيـة بأنهما وباء على المجتمع
لان من استحكم فيه مرض يود أن يكون الناس مثله .
والتنفير باب عام ينبغي دخوله في كل المهلكات

وبالجملة ينظر إلى شعب الايمان شعبة شعبة : وأضدادها
فيتكلم على الشعبة كالصلاة والصوم والزكاة والحج والصدق
والوفاء والأمانة والحياء مبينا حكمة مشروعيتها وفوائدها
التي تعود على صاحبها وعلى المجتمع الانساني - وكذلك يعمد
الى المنهيات ويحللها على هذا النحو الا أنه يبدأ دائما بالاهم بحيث
ينظر الى أصعب الأمراض وأشدها ضررا في الامة التي
يخطب فيها ويعالجهم بالطرق المختلفة والأساليب المتنوعة
وهكذا يتدرج معهم في كل أمراضهم.

ويتكلم في أيام المواسم بما يناسب الحال فيتكلم في رمضان
مثلا على وجوب الصوم ومشروعيته حتى في الأمم القديمة

وحكمة المشروعية وأن الغرض منه تهذيب النفوس وتمرينها
على تحمل المشاق لأن الانسان معرض لذلات وكبح جماحها
إذا هاجت عليه فى شهوة من الشهوات حيث استطاع كبح
جماحها فى أهم ما تحتاج اليه من الغذاء ثم يبين عظيم المثوبة
على هذا الجهاد العظيم وما ورد فيه من أحاديث الترغيب:
ثم يلفت الصائم الى العطف على الفقير ويحرك فيه عاطفة
الرحمة بقوله انظر ألم الجوع وقد تركت الأكل مختارا عن
عز وغنى فكيف بالفقير التارك له طول حياته عن ذل
وفاقة الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من فى الارض يرحمكم
من فى السماء

ويتكلم فى العيدين عن الاعمال المطلوبة من صدقة
وأضحية وتهليل وتكبير وصلة رحم وعطف على بائس
واكرام ليتيم وتعلق بالله واصلاح بين الناس وغير ذلك مما ورد
ويحذر الناس من العوائد المحرمة والبدع القبيحة التى تقع
فى العيدين على حسب مألوف السامعين ويبين أن رضا الله
فى مثل هذه الأيام أكبر. وغضبه أعظم. ويضرب لهم الامثال
بأن لكل ملك حالات غير معتادة عند رعيته يعطى فيها الآلاف

ويطلق المساجين ويعفو عن المجرمين كذلك أيام الله بالنسبة للملك الملوك. وإن غضب الملك فى أوقات الصفاء يخرجه عن مألوف الغضب فى بقية الأيام - ينبغى أن يتكلم على صدقة الفطر فى الجمعة التى قبل العيد ليحسن الناس أداءها فى وقتها الأفضل على الوجه المطلوب. وهكذا يتكلم فى كل وقت بما يناسبه مع مراعاة حال السامعين وأمراضهم واستمدادهم. ويتكلم فى شهر ربيع على حياة النبى صلى الله عليه وسلم وأنه بعث رحمة للعالمين ويذكر ذلك بالدلائل الواضحة ويبين حقه على أمته. وأن هذا الخير وتلك السعادة التى فيها العالم كلها من مدده صلى الله عليه وسلم. ولذلك شرعت الصلاة والتسليم عليه قياما له ببعض حقه. ثم يذكر مافاساه من الأهوال فى سبيل الدعوة الى الله تعالى

وعلى الجملة يتكلم على سيرته صلى الله عليه وسلم بعبارات واضحة يفهمها العامة قبل الخاصة لأن فى ذلك تعلق الناس بهذا الرسول العظيم والتمسك بدينه والتأدب بأدبه

ولا يكفى ذكر صفاته كما يفعله بعض الخطباء اليوم

بل دائما يشرح متاعبه الشديدة وآثاره الخالدة . وأخلاقه الكريمة المبنية على الكتاب والسنة الصحيحة مجانبا كل مالم تثبت صحته عند علماء الحديث . وإذا تكلم على وفاته فلا يذكرها مجردة . وإنما يتكلم على مالاقاه من الشدائد فى مرض الموت مع الصبر والرضا . وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا لاقى مثل تلك الأهوال وهو المغفور له والمعصوم فكيف بنا ونحن المذنبون ولا ندرى مايفعل بنا ؟ ثم ينبه العقول الى الاحتفاظ بسيرته وتعظيمه ومحبته والعمل على احياء سنته وإطعام الطعام شكراً لله على نعمة وجوده العظمى وحث الناس على اكثار الصلاة والسلام عليه لتكون قلوبهم دائما معمورة بمحبته صلوات الله وسلامه عليه — ويبين لهم أن المحبة دائما تقتضى الجرى على مايهوى المحبوب وأن العاصى كاذب فى دعواه حب الله ورسوله

وأول مايخطب فيه تحذيرهم من البدع الضارة بالدين والعوائد التى لا أصل لها فى الشرع . خصوصا مايقع فى المساجد والمقابر والأضرحة

ويتكلم على القرآن وما يجب على التالى والسامع له

مبينا أن القارىء إنما يتكلم بلسان الله وأن من أعرض عن القارىء فإنما أعرض عن الله وأن من أخل بالأدب عند سماعه فإنما يخل بالأدب بين يدى ملك الملوك ويضرب لذلك الأمثال. ويذكر للناس ما فى القرآن الكريم من القوانين العادلة والأخلاق الفاضلة . التى تكفل لمن سار عليها سعادة الدين والدنيا وأن تلاوته عبادة وسماعه عبادة عندها تنزل الرحمات وأن الخضوع عند سماعه والتأثر به خضوع لله وجلاله وآية الفلاح والهداية. وعلى الجملة يحض الناس على احترام القرآن ويحذرهم من انتهاك حرمته بالتغنى به أو الأعراض عنه ثم يلفت الناس الى تعلمه وتفهمه لتكبر عقولهم وتستنير أبصارهم ويحث المسلمين على المحافظة عليه بحفظ طائفة كثيرة له فى كل عصر محافظة على ينبوع الملة وأساس السعادة فى الدين والدنيا

وأن منهلك الصافى فى هذا كله كتب السنة الصحيحة لاسيما كتاب الايمان والعلم والمغازى وفضائل القرآن وكتب حكمة التشريع. واياك أن تذكر شيئا من الآثار التى لم تثبت صحتها فى مثل هذه المقامات وإلا كنت

هذا للطعن عليك فى معلوماتك والشك فى طريقك وما أغناك عن هذا

فعلى هذا المنهاج تكون الخطب الدينية حتى تفيد فائدتها المقصودة منها وبالله تعالى التوفيق

الخاتمة

(فى نماذج من الخطب والمواعظ فى العصور الاسلامية)

نذكر لك فى هذه الخاتمة جملة من الخطب البليغة لتكون لك نبراسا تهتدى به ومثالا صالحا تنسج على منواله ان شاء الله تعالى ولا بأس ان نزيدك فيها خطبتين أجمع علماء الادب على متانتهما خطبة أكثم بن صيفى وخطبة قس بن ساعدة إكمالا للفائدة

(خطبة أكثم بن صيفى)

لما جمع قومه وخطب فيهم يدعوهم إلى الاسلام وقد كان أرسل ابنه ليشافه النبى صلى الله عليه وسلم ويجىء له بخبره فلما رجع ابنه اليه جمع قومه وقال — يا بنى تميم لا تحضرونى سفيها فانه من يسمع يخل. إن السفيه يوهن من فوقه ويثبت(١) من دونه. لا خير فيمن لا عقل له. كبرت سنى ودخلتنى زلة

(١) يهلك

فأذا رأيتم منى حسنافاقبلوه وان رأيتم منى غير ذلك فقوموني
أستقم . ان ابنى شافه هـذا الرجل مشافهة وأتانى بخبره
وكتابه يأمر فيه بالمعروف وينهى عن المنكر ويأخذ فيه
بمحاسن الأخلاق ويدعو إلى توحيد الله تعالى وخلع الأوثان
وترك الحلف بالنيران . وقد حلف ذوو الرأى منكم أن الفضل
فيما يدعو إليه وأن الرأى ترك ماينهى عنه . إن أحق الناس
بمعونة محمد ومساعدته على أمره أنتم . فأن يكن الذى
يدعو إليه حقا فهو لكم دون الناس وإن يكن باطلا كنتم
أحق الناس بالكف عنه والستر عليه . وقد كان أسقف
نجران يحدث بصفته . وكان سفيان بن مجاشع يحدث به قبله
وسمى ابنه محمدا . فكونوا فى أمره أولا ولا تكونوا آخرا .
ائتوا طائعين قبل أن تأتوا كارهين . إن الذى يدعو إليه محمد
لو لم يكن دينا كان فى أخلاق الناس . أطيعونى واتبعوا أمرى
أسأل لكم أشياء لاتنزع منكم أبدا وتصبحوا أعز حى فى
العرب وأكثرهم عددا وأوسعهم دارا . فانى أرى أمرا لايجتنبه
عزيز الاذل . ولايلزمه ذليل الاعز . ان الاول لم يدع للآخر
شيئا . وهذا أمر له مابعده (ولعله يريد الخصب) من سبق

إليه عمر الغالى واهتدى به القالى والمزية حزم والاختلاف عجز — (ومن خطبه المشهورة) — يابنى تميم لا يفوتنكم وعظى إن فاتكم الدهر بنصحى . إن بين فمى وصدرى لكلاما لا أجد له مواقع الا أسماعكم ولا مقار الا قلوبكم تتلقوه بأسماع مصغية وقلوب واعية تحمدوا مغبته . الهوى يقظان والعقل راقد . والشهوات مطلقة والحزم معقول . والنفس مهملة والروية مقيدة . ومن جهة التوانى وترك الروية يتلف الحزم . ولم يندم المشاور مرشدا . والمستبد برأيه موقوف على مداحض الزلل . ومن سمّع سُمّع به . ومصارع الرجال تحت بروق الطمع ولو اعتبرت مواقع المحن ما وجدت إلا فى مقاتل الكرام وعلى الاعتبار طريق الرشاد . ومن سلك الجد أمن العثار — يابنى تميم الصبر على جرع الحلم أعذب من جنى ثمر الندامة . ومن جعل عرضه دون ماله استهدف للذم . وكلم اللسان أنكى من كلم السنان والكلمة مرهونة مالم تنجم من الفم فإن نجمت فهى أسد محرب أو نار تلهب . وإنما الناصح اللبيب دليل لا يجوز . ونفاذ الرأى فى الحرب أجدى من الطعن والضرب

(خطبة قس بن ساعدة الأيادى)

يأيها الناس اسمعوا وعوا. وإذا وعيتم فانتفعوا. إنه من عاش مات. ومن مات فات . وكل ما هو آت آت. مطر ونبات. وأرزاق وأقوات . وآباء وأمهات . وأحياء وأموات . جمع وشتات. وآيات بعد آيات. إن فى السماء لخبرا . وإن فى الارض لعبرا ليل داج . وسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج. وبحار ذات أمواج. مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون . أرضوا بالمقام فأقاموا . أم تركوا هناك فناموا . أقسم قس قسما حقا لا حانثا فيه ولا آثما . ان لله دينا هو أحب إليه من دينكم الذى أنتم عليه ونبيا قد حان حينه . وأظلكم أوانه وأدرككم إبانه. فطوبى لمن أدركه فآمن به وهداه . وويل لمن خالفه وعصاه

ثم قال ــ تبا لأرباب الغفلة والأمم الخالية . والقرون الماضية يامعشر إياد. أين الآباء والأجداد . وأين المريض والعواد. وأين الفراعنة الشداد . أين من بنى وشيد. وزخرف

ونجد . أين المال والولد . أين من بغى وطغى . وجمع فأوعى وقال أنا ربكم الأعلى . ألم يكونوا أكثر منكم أموالا . وأطول منكم آجالا . طحنهم الدهر بكلكله . ومزقهم بطوله فتلك عظامهم بالية وبيوتهم خالية عمرتها الذئاب العاوية كلا بل هو الله الواحد المعبود ليس بوالد ولا مولود ثم انشأ يقول

في الذاهبين الأولـ ـين من القرون لنا بصائر

لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر

ورأيت قومي نحوها يمضي الأصاغر والأكابر

لا يرجع الماضي الـ ـيّ ولا من الباقين غابر

ايقنت انى لا محا لة حيث صار القوم صائر

(خطبة من خطب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم)

خطب النبي صلى الله عليه وسلم بعشر كلمات. حمد الله وأثنى عليه ثم قال — «أيها الناس إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم . وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم . إن المؤمن بين مخافتين : بين عاجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع به . وبين آجل قد بقي لا يدرى ما الله قاض فيه . فليأخذ العبد من

نفسه لنفسه . ومن دنياه لآخرته . ومن الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل الموت . فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب . ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار »

ومن خطبه صلى الله عليه وسلم أيها الناس كأن الموت فيها على غيرنا قد كتب . وكأن الحق فيها على غيرنا قد وجب . وكأن الذي نشيع من الاموات سفر عما قليل الينا راجعون نبوؤهم اجداثهم ونأكل من تراثهم كأنا مخلدون بعدهم . ونسينا كل واعظة . وامنا كل جائحة . طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس . طوبى لمن أنفق مالا اكتسبه من غير معصية وجالس أهل الفقه والحكمة وخالط اهل الذل والمسكنة . طوبى لمن أنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله ووسعته السنة ولم تستهوه البدعة »

(ومن خطبه صلى الله تعالى عليه وسلم خطبة حجة الوداع وهي)

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهد الله فلا

مضل له ومن يضلل فلا هادى له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته واستفتح بالذى هو خير. أما بعد أيها الناس اسمعوا منى أبين لكم. فأنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا (أيها الناس) إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ألا هل بلغت. اللهم اشهد فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها «وإن» ربا الجاهلية موضوع «وإن» أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب «وإن» دماء الجاهلية موضوعة «وإن» أول دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب «وإن» مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية. والعمد قود وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير فمن زاد فهو من أهل الجاهلية (أيها الناس) إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحتقرون فى أعمالكم (أيها الناس) إنما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما

ليواطؤا عدة ما حرم الله (وإن) الزمان قد استدار كهيئته
يوم خلق الله السموات والأرض (وإن) عدة الشهور عند
الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والارض
منها أربعة حرم ثلاثة متواليات وواحد فرد ذو القعدة
وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان ألا هل
بلغت. اللهم اشهد (أيها الناس) أن لنسائكم عليكم حقاً ولكم عليهن
حق لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم. ولا يدخلن أحدا
تكرهونه بيوتكم إلا باذنكم. ولا يأتين بفاحشة فأن فعلن
فأن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع
وتضربوهن ضربا غير مبرح. فأن انتهين وأطعنكم فعليكم
رزقهن وكسوتهن بالمعروف وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن
لأنفسهن شيئاً. أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن
بكلمة الله. فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً. ألا هل
بلغت. اللهم أشهد

(أيها الناس) إنما المؤمنون إخوة ولا يحل لامرىء
مال أخيه ألا عن طيب نفس منه ألا هل بلغت اللهم اشهد
فلا ترجعُنَّ بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض فأني

قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده. كتاب الله ألا هل بلغت. اللهم اشهد (أيها الناس) ان ربكم واحد وان أباكم واحد. كلكم لآدم وآدم من تراب. أكرمكم عند الله أتقاكم وليس لعربى على عجمى فضل الا بالتقوى ألا هل بلغت. اللهم اشهد قالوا نعم قال فليبلغ الشاهد الغائب (أيها الناس) ان الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا يجوز لوارث وصية فى أكثر من الثلث والولد للفراش وللعاهر الحجر من ادعى[1] الى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. لا يقبل منه صرف ولا عدل والسلام عليكم ورحمة الله »

وهذه أطول خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم والناظر فيها يحكم بأنها فذلكة التشريع لما اشتملت عليه من أمهات المسائل والكليات العامة للدين. وأكثر ماتعرضت له التحذير من العوائد المستحكمة فى الجاهلية والتنفير منها وتنبيه العقول اليها بأعظم المؤثرات حيث يقول بعد تقرير الحكمة أو الاحكام ألا هل بلغت اللهم اشهد

---

(١) ادعى انتسب

(خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه لما ولى الخلافة[1])

حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال (أما بعد) فانى وليت عليكم ولست بخيركم ولكن نزل القرآن وسن النبي صلى الله عليه وسلم وعلمنا فعلمنا. واعلموا أن أكيس الكيس التقى . وأن أحمق الحمق الفجور . وأن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ له بحقه وان أضعفكم عندى القوى حتى آخذ منه الحق . (أيها الناس) انما أنا متبع ولست بمبتدع . فان رأيتمونى على حق فأعينونى . وان رأيتمونى على باطل فردونى . وأطيعونى ما أطعت الله فيكم . فاذا عصيته فلا طاعة لى عليكم . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم »

وهذه الكلمة مجمل الطريقة التى سار عليها فى خلافته . ذكر لهم مايجب عليهم وهو اعانته . وما يجب لهم وهو رده اذا صدف عن الحق . وفى هذا ضمان لحريتهم فى القول . أعطاهم عهدا أن يعدل فيهم فلا يعنه ضعف المظلوم

(١) كانت الخطبة بعد تمام البيعة عادة للخلفاء بعد ابى بكر يظهرون بها الخطة التى سيسيرون عليها فى سياسة امتهم اجمالا

أن ينصفه من ظالمه ولا تمنعه قوة الظالم أن ينصف منه المظلوم . أخبرهم بأنه خليفة لينفذ الشريعة فاذا عدل عنها فلا طاعة له عليهم

(خطبة أخرى له ايضا رضى الله عنه)

الحمد لله الذى أعزنا بالاسلام . وأكرمنا بالايمان . ورحمنا بنبيه صلى الله عليه وسلم فهدانا به من الضلالة . وجمعنا به من الشتات . وألف بين قلوبنا . ونصرنا على عدونا . ومكن لنا فى البلاد . وجعلنا به اخوانا متحابين . فاحمدوا الله على هذه النعمة . واسألوه المزيد فيها . والشكر عليها فأن الله قد صدقكم الوعد بالنصر على من خالفكم . وإياكم والعمل بالمعاصى . وكفر النعمة . فقلما كفر قوم بنعمة ولم ينزعوا الى التوبة إلا سلبوا عزهم . وسلط عليهم عدوهم . (أيها الناس) ان الله قد أعز دعوة هذه الأمة . وجمع كلمتها . وأظهر فلجها . ونصرها وشرفها . فاحمدوه عباد الله على نعمه واشكروه على آلائه . جعلنا الله وإياكم من الشاكرين

(وله رضى الله عنه حين أشار عليه الصحابة بعدم جهاد أهل الردة وأن لا طاقة له بالحرب)

بعد أن حمد الله وأثنى عليه وكبر وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ـ أقبل على الناس وقال (أيها الناس) من كان يعبد محمدا فأن محمدا قد مات . ومن كان يعبد الله فأن الله حى لا يموت أن كثر أعداؤكم وقل عددكم . ركب الشيطان منكم هذا المركب . والله ليظهرن هذا الدين على الأديان كلها ولو كره المشركون . قوله الحق ووعده الصدق (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فأذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون) (وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بأذن الله والله مع الصابرين) (أيها الناس) لو أفردت من جمعكم . وجاهدت فى الله حق جهاده حتى أبلغ من نفسى عذرا . وأقتل مقتلا . والله أيها الناس لو منعونى عقالا لجاهدتهم عليه واستعنت بالله خير معين ـ والناظر لها يرى أنها آية الشجاعة وصدق العزيمة

(خطبته حين اسناده الخلافة لعمر رضى الله عنهما)

(أيها الناس) احذروا الدنيا فأنها غرارة . وآثروا الآخرة

على الدنيا وأحبوها فبحب كل واحدة منهما تبغض الأخرى وإن هذا الأمر الذى هو أملك بناء لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله . ولا يحتمله إلا أفضلكم مقدرة . وأملككم لنفسه : وأشدكم فى حال الشدة . وأسلسكم فى حال اللين وأعلمكم برأى ذوى الرأى . لا يتشاغل بما لا يعنيه . ولا يحزن بما ينزل به ولا يستحى من التعلم . ولا يتحير عند البديهة قوى على الأمور . لا يجوز لشىء منها حده بعدوان ولا تقصير يرصد لما هو آت عتاده (١) من الحذر والطاعة وهو عمر بن الخطاب ثم نزل فأجمع الكل على مبايعة عمر رضى الله عنه

وكان آخر كلام أبى بكر الذى إذا تكلم به عرف أنه قد فرغ من خطبته « اللهم اجعل خير زمانى آخره وخير عملى خواتمه وخير أيامى يوم لقائك

(خطبة عمر رضى الله عنه لما ولى الخلافة)

صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال أيها الناس إنى داع فأمنوا اللهم إنى شديد فلينى لأهل طاعتك بموافقة

---

(١) العتاد ما يهيأ للامر

الحق ابتغاء وجهك والدار الآخرة وارزقني الشدة على أعدائك وأهل الدعارة والنفاق من غير ظلم مني لهم ولا اعتداء عليهم اللهم اني شحيح فسخني في نوائب المعروف قصدا من غير سرف ولا تبذير ولا رياء ولا سمعة واجعلني أبتغي بذلك وجهك والدار الآخرة . اللهم ارزقني خفض الجناح ولين الجانب للمؤمنين. اللهم إني كثير الغفلة والنسيان فألهمني ذكرك على كل حال وذكر الموت في كل حين . اللهم اني ضعيف عن العمل بطاعتك فارزقني النشاط فيها والقوة عليها بالنية الحسنة التي لا تكون الا بفضلك وتوفيقك اللهم ثبتني باليقين والبر والتقوى وذكر المقام بين يديك والحياء منك وارزقني الخشوع فيما يرضيك عني والمحاسبة بنفسي واصلاح الساعات والحذر من الشبهات . اللهم ارزقني التفكر والتدبر لما يتلوه لساني من كتابك والفهم له والمعرفة بمعانيه والنظر في عجائبه والعمل بذلك مابقيت انك على كل شيء قدير

ومن خطبه رضى الله عنه

أيها الناس أنى قد وليت عليكم ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم وأقواكم عليكم وأشدكم استطلاعا بما ينوب من مهم أموركم ما توليت ذلك منكم ولكفى عمر مهما محزنا موافقة الحساب بأخذ حقوقكم كيف آخذها ووضعها أين أضعها وبالسير فيكم كيف أسير . وربى المستعان فأن عمر أصبح لا يثق بقوة ولا حيلة ان لم يتداركه الله عز وجل برحمته وعونه وتأييده .

ومن خطبه أيضا

أيها الناس انما الدنيا أمل مخترم وأجل منتقص وبلاغ الى دار غيرها وسير إلى الموت ليس فيه تعريج فرحم الله امرأ فكر فى أمره ونصح لنفسه وراقب ربه واستقال ذنبه بئس الجار الغنى يأخذك بما لا يعطيك من نفسه فأن أبيت لم يعذرك اياكم والبطنة فأنها مكسلة عن الصلاة مفسدة للجسم ومؤدية الى السقم . وعليكم بالقصد فى قوتكم فهو أبعد من السرف وأصح للبدن وأقوى على العبادة وإن العبد لن يهلك حتى

يؤثر شهوته على دينه – وكان آخر كلام عمر الذى يعرف به انه فرغ من خطبته – اللهم لا تدعنى فى غمرة ولا تأخذنى على غرة ولا تجعلنى من الغافلين – وكفاه شرفا قول النبى صلى الله عليه وسلم فيه (ان الله جعل الحق على لسان عمر)

خطبة عثمان بن عفان رضى الله عنه

بعد ما بويع بالخلافة

صعد المنبر وخطب الناس فقال – أيها الناس الحمد لله اتقوا الله فأن الدنيا كما أخبر الله لعب ولهو وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد فخير العباد فيها من عصم واستعصم بالله وكتابه وقد وكلت من أمركم لعظيم لا أرجو العون عليه الا من الله فأنه لا يوفق للخير الا هو وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب :

وخطب حينما نقم الناس عليه تقديم بنى أمية على غيرهم فقال – ان لكل شىء آفة ولكل نعمة عاهة وإن آفة هذه الأمة وعاهة هذه النعمة عيابون طعانون يظهرون لكم ما تحبون ويسرون ما تكرهون يقولون لكم وتقولون

طغام مثل النعام . يتبعون أول ناعق ، أحب مواردهم اليهم النازح [1] اما والله يا معشر المهاجرين والانصار لقد أقررتم لابن الخطاب بأكثر مما نقمتم على ولكنه وقمكم [2] وقمكم وزجركم زجر النعام المخزم [3] حتى لا يجترىء أحد منكم تملأ بصره منه ولا يشير بطرفه الا مسارقة اليه أما والله اني لأقرب به ناصرا وأعز نفرا إن قلت هلم أن تجاب دعوتى من عمر هل تفقدون من حقوقكم شيئا فالى لا أفعل فى الحق ما أشاء اذا فلم كنت اماما أما والله ما عاب على من عاب منكم أمرا أجهله . ولا أتيت الذى أتيت الا وأنا أعرفه

ومن خطب الامام على رضى الله عنه

حين بويع بالخلافة

قال ان الله أنزل كتابا هاديا بين فيه الخير والشر . فخذوا بالخير ودعوا الشر . الفرائض أدوها الى الله تؤديكم الى الجنة . إن الله حرم حرما غير مجهولة وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها . وسدد بالاخلاص والتوحيد حقوق المسلمين فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده

---

(١) البعيد (٢) قهركم وأذلكم (٣) مثقوب الانف

إلا بالحق لا يحل أذى المسلم إلا بما يجب فأدوا أمر العامة وخاصة أحدكم الموت فان الناس أمامكم وإنما خلفكم الساعة تذكركم تخففوا تلحقوا فإنما ينتظر بالناس أخراهم اتقوا الله عباد الله في عباده وبلاده فانكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم أطيعوا الله ولا تعصوه وإذا رأيتم الخير فخذوا به وإذا رأيتم الشر فدعوه واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض

ولہ رضی الله عنه في الوعظ أيضا

أعجب ما في الانسان قلبه وله مواد من الحكمة وأضداد من خلافها فان سنح [1] له الرجاء أذله الطمع وإن هاجه الطمع أهلكه الحرص وإن ملكه اليأس قتله الأسف وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ . وإن أسعد بالرضا نسى التحفظ وإن أتاه الخوف شغله الحذر وإن اتسع له الأمن استلبته العزة وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع وان استفاد مالا أطغاه الغنى وإن عضته فاقة بلغ به البلاء وان جهده الجوع قعد به الضعف وإن أفرط في الشبع كظته [2] البطنة فكل تقصير به مضر وكل إفراط له قاتل

---

(١) ظهر (٢) ملأته حتى لا يطيق النفس — م

(ومن خطبة أيضا كرم الله وجهه)

حمد الله وأثنى عليه ثم قال — أوصيكم عباد الله ونفسي بتقوى الله ولزوم طاعته وتقديم العمل . وترك الأمل فإنه من فرط في عمله لم ينتفع بشيء من أمله . أين التعب بالليل والنهار المقتحم للجج البحار ومفاوز القفار يسير من وراء الجبال وعالج الرمال يصل الغدوّ بالرواح والمساء بالصباح في طلب محقرات الأرباح . هجمت عليه منيته فعظمت بنفسه رزيته فصار ما جمع بورا وما اكتسب غرورا ووافى القيامة محسورا أيها اللاهي الغار بنفسه كأني بك وقد أتاك رسول ربك لا يقرع لك بابا ولا يهاب لك حجابا ولا يقبل منك بديلا ولا يأخذ منك كفيلا ولا يرحم لك صغيرا ولا يوقر فيك كبيرا حتى يؤديك إلى قعر مظلمة أرجاؤها موحشة كفعله بالأمم الخالية والقرون الماضية

أين من سعى واجتهد وجمع وعدد وبنى وشيد . وزخرف ونجد . وبالقليل لم يقنع . وبالكثير لم يُمَتَّع . أين من قاد الجنود ونشر البنود . أضحوا رفاتا . تحت الثرى أمواتا . وأنتم بكأسهم

شاربون ولسبيلهم سالكون — عباد الله فاتقوا الله وراقبوه واعملوا لليوم الذى تسير فيه الجبال وتشقق السماء بالغمام وتتطاير الكتب عن الأيمان والشمائل فأى رجل يومئذ تراك ؟ أقائل هاؤم اقرءوا كتابيه . أم ياليتنى لم أوت كتابيه . نسأل من وعدنا بإقامة الشعائر جنته أن يقينا سخطه . إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد

هذا وإن كتاب نهج البلاغة قد جمع من خطب الإمام على رضى الله عنه ونصائحه ومواعظه ما فيه الكفاية بعد كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لمن رام التضلع فى كل فن من الفنون الكلامية

(وصية زياد رضى الله عنه)

قال عمرو بن عبيد رحمه الله . كتب عبد الملك بن مروان وصية زياد بيده وأمر الناس بحفظها وتدبر معانيها — « ان الله عز وجل جعل لعباده عقولا عاقبهم بها على معصيته وأثابهم بها على طاعته فالناس بين محسن بنعمة الله عليه

ومسيء بخذلان الله إياه . ولله النعمة على المحسن والحجة على المسيء . فأولى من تمت عليه النعمة فى نفسه ورأى العبرة فى غيره بأن يضع الدنيا بحيث وضعها الله فيعطى ما عليه منها ولا يتكثر بما ليس له منها . فأن الدنيا دار فناء ولا سبيل إلى بقائها ولا بد من لقاء الله . فأحذركم الله الذى حذركم نفسه وأوصيكم بتعجيل ما أخرته العجزة قبل أن تصيروا إلى الدار التى صاروا اليها فلا تقدرون على توبة . وليس لكم منها أوبة وأنا استخلف الله عليكم واستخلفه منكم »

(خطبة زياد رضى الله عنه بالبصرة ـ البتراء)

قال أبو الحسن المدائنى . ذكر ذلك عن مسلمة بن محارب وأبى بكر الهذلى قالا قدم زياد البصرة واليا لمعاوية بن أبى سفيان وضم إليه خراسان وسجستان . والفسقُ بالبصرة كثير فاش ظاهر قالا فخطب خطبة بتراء لم يحمد الله فيها وقال غيرهما بل قال الحمد لله على افضاله وإحسانه ونسأله المزيد من نعمه وإ كرامه اللهم كما زدتنا نعما فألهمنا شكرا

(أما بعد) فإن الجهالة الجهلاء . والضلالة العمياء . والغي الموفي بأهله على النار مافيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته في الزمن السرمدي الذي لا يزول . أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية . ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الاسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه . من ترككم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله . هذه المواخير المنصوبة . والضعيفة[1] المسلوبة في النهار المبصر والعدد غير قليل . ألم تكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار . قربتم القرابة وباعدتم الدين . تعتذرون بغير العذر وتغضون على المختلس . كل امرىء منكم يذب عن سفيه . صنيع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معادا . ما أنتم بالحلماء . ولقد اتبعتم السفهاء . فلم يزل بكم ماترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حُرَم الاسلام ثم

---

(١) في رواية والصفقة المسلوبة

اطرقوا وراءكم كنوسا فى مكانس الريب . حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدما وإحراقا . أنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح ألا بما صلح به أوله . لين فى غير ضعف ؛ وشدة فى غير عنف وأنى أقسم بالله لآخذن الولى بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصى والصحيح منكم فى نفسه بالسقيم حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول (أنج سعد فقد هلك سعيد) أو تستقيم قناتكم . ان كذبة المنبر بلقاء مشهورة فاذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتى ـ فاذا سمعتوها منى فاغتمزوها فى . واعلموا أن عندى أمثالها . من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب منه . فأياى ودلج الليل . فأنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه . وقد أجلتكم فى ذلك بمقدار ما يأتى الخبر الكوفة ويرجع اليكم . واياى ودعوى الجاهلية فأنى لا أجد أحدا دعا بها الا قطعت لسانه ـ وقد أحدثتم احداثا لم تكن . وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة . فمن غرق قوما غرقناه . ومن أحرق قوما أحرقناه ومن نقب بيتا نقبنا عن قلبه ومن نبش قبرا دفناه حيا فيه ـ فكفوا عن أيديكم وألسنتكم

ا كفف عنكم يدى ولسانى . ولا تظهر من أحد منكم ريبة بخلاف ماعليه عامتكم ألا ضربت عنقه . وقد كانت بينى و بين أقوام إحَنٌ فجعلت ذلك دَبْر أذنى وتحت قدمى فمن كان منكم محسنا فليزدد احسانا ومن كان منكم مسيئا فلينزع عن أساءته . أنى لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضى لم أكشف له قناعا ولم أهتك له سترا حتى يبدى لى صفحته فاذا فعل ذلك لم أناظره . فاستأنفوا أموركم واعينوا على أنفسكم . فرب مبتئس بقدومنا سيسر . ومسرور بقدومنا سيبتئس . أيها الناس انا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة . نسوسكم بسلطان الله الذى اعطانا ونذود عنكم فىء الله الذى خولنا . فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ولكم علينا العدل فيما ولينا . فاستوجبوا عدلنا وفيأنا . بمناصحتكم لنا . واعلموا أنى مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث ـ لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ولو أتانى طارقا بليل . ولا حابسا عطاء ولا رزقا عن إبانه ـ ولا مجمرا لكم بعثا ـ فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فأنهم ساستكم المؤدبون لكم وكهفكم الذى اليه تأوون . ومتى يصلحوا تصلحوا .

ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم ولا تدركوا له حاجتكم مع انه لو استجيب لكم فيهم لكان شرا لكم . أسأل الله أن يعين كلا على كل . واذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر فانفذوه على أذلاله . وايم الله أن لي فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرىء منكم إن يكون من صرعاى

(خطبة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه)

خطب عمر بن عبد العزيز بخناصرة خطبة لم يخطب بعدها حتى مات رحمه الله تعالى . فحمد الله وأثنى عليه ثم قال - أيها الناس انكم لم تخلقوا عبثا ولم تتركوا سدى . وإن لكم معادا يحكم الله فيه بينكم . فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء وحرم الجنة التي عرضها السموات والأرض -- واعلموا أن الأمان غداً لمن خاف ربه وباع قليلا بكثير وفانيا بباق . ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين وسيخلفها من بعدكم الباقون . كذلك حتى تردوا إلى خير الوارثين . ثم أنتم في كل يوم تشيعون غاديا

ورائحا إلى الله قد قضى نحبه وبلغ أجله . ثم تغيبونه فى صدع من الأرض . ثم تدعونه غير موسد ولا ممهد . قد خلع الأسباب وفارق الأحباب وواجه الحساب . غنيا عما ترك فقيرا إلى ماقدم . وأيم الله إنى لا أقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندى . فأستغفر الله لى ولكم . وما تبلغنا حاجة يتسع لها ماعندنا إلا سددناها ولا أحد منكم إلا وددت أن يده مع يدى ويحمى الذين يلونى حتى يستوى عيشنا وعيشكم . وايم الله أنى لو أردت غير هذا من عيش أو غضارة لكان اللسان منى ناطقا ذلولا عالما بأسبابه لكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنة عادلة دل فيها على طاعته ونهى فيها عن معصيته ، ثم بكى فتلقى دموع عينيه بطرف ردائه ثم نزل فلم ير على تلك الاعواد حتى قبضه الله تعالى

(خطبة قطرى بن الفجاءة)

صعد قطرى بن الفجاءة منبر الازارقة وهو أحد بنى مازن بن عمرو بن تميم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال — أما بعد

فأني أحذركم الدنيا فأنها حلوة خضرة حفت بالشهوات وراقت بالقليل وتحببت بالعاجلة وحليت بالآمال وتزينت بالغرور لا تدوم حبرتها ولا تؤمن فجعتها ، غرارة ضرارة خوانة غدارة وحائلة زائلة ونافدة بائدة أكالة غوالة بدلة نقالة لا تعد واذاهي تناهت الى أمنية أهل الرغبة فيها والرضى عنها أن تكون كما قال الله تعالى (كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا) مع أن امرأ لم يكن منها في حبرة ألا أعقبته بعدها عبرة ولم يلق من سرائها بطنا ألا منحته من ضرائها ظهرا ولم تطله غيثة رخاء ألا أهطلت عليه مزنة بلاء ، وحرى اذا أصبحت له منتصرة أن تمسى له خاذلة متنكرة وان جانب منها اعذ وذب واحلولى أمر عليه جانب وأوبى وان أتت امرأ من غضارتها ورفاهتها نعما أرهقته من نوائبها تعبا ، ولم يمس امرؤ ، منها في جناح أمن الا أصبح منها على قوادم خوف ، غرارة غرور مافيها ، فانية ما عليها لا خير في شيء من زادها ألا التقوى ، من أقل منها استكثر مما يؤمنه ، ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه ، ويطيل حزنه

ويبكى عينيه ، كم واثق بها قد أفجعته وذى طمأنينة اليها قد صرعته وذى اختيال فيها قد خدعته ، وكم من ذى أبهة بها قد صيرته حقيرا وذى نخوة قد ردته ذليلا ، وكم من ذى تاج قد كبته لليدين والفم . سلطانها دول وعيشها رنق [1] وعذبها أجاج وحلوها صبر وغذاؤها سمام وأسبابها [2] رمام وقطافها سلع [3] . حيها بعرض موت وصحيحها بعرض سقم ومنيعها بعرض اهتضام . مليكها مسلوب وعزيزها مغلوب وسليمها منكوب وجامعها محروب ، مع أن وراء ذلك سكرات الموت وهول المطلع والوقوف بين يدى الحكم العدل . ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى . ألستم فى مساكن من كان اطول منكم اعمارا وأوضح منكم آثارا وأعد عديدا واكثف جنودا وأعتد عتودا تعبدوا للدنيا أى تعبد وآثروها أى إيثار وظعنوا عنها بالكره والصغار فهل بلغكم أن الدنيا سمحت لهم نفسا بفدية أو أغنت عنهم فيما قد أهلكتهم بخطب بل قد أرهقتهم بالفوادح وضعضعتهم بالنوائب وعفرتهم بالمصائب . وقد رأيتم تنكرها لمن دان

---

(١) رنق — كدر (٢) حبالها بالية (٣) سلع

لها وأخلد إليها حتى ظعنوا عنها لفراق الابد إلى آخر المسند
هل زودتهم إلا الشقاء وأحلتهم إلا الضنك ؟ أو نورت لهم
إلا الظلمة أو أعقبتهم إلا الندامة . أفهذه تؤثرون أم على هذه
تحرصون أم إليها تطمئنون ؟ يقول الله (من كان يريد الحياة
الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون اولئك
الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها
وباطل ما كانوا يعملون) فبئست الدار لمن أقام فيها ـ فاعلموا
وأنتم تعلمون انكم تاركوها لابد فانها كما وصفها الله
باللعب واللهو وقد قال الله تعالى (أتبنون بكل ريع
آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) وذكر الذين
قالوا من أشد منا قوة ثم قال ، حملوا الى قبورهم فلا يدعون
ركبانا وأنزلوا فلا يدعون ضيفانا ، وجعل لهم من الضريح
أجنان ومن التراب اكفان ومن الرفات جيران ، فهم جيرة
لا يجيبون داعيا ولا يمنعون ضيما . أن اخصبوا لم يفرحوا وإن
أقحطوا لم يقنطوا . جمع وهم آحاد . وجيرة وهم ابعاد متناؤون (1)

---

(1) متبعدون.

لايزورون ولا يزارون . حلماء قد ذهبت أضغانهم وجهلاء قد ماتت أحقادهم لايخشى فجعهم ولا يرجى دفعهم . وكما قال الله تعالى (فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين) استبدلوا بظهر الارض بطنا وبالسعة ضيقا وبالاهل غربة وبالنور ظلمة فجاءوها كما فارقوها حفاة عراة فرادى غير أن ظعنوا بأعمالهم الى الحياة الدائمة والى خلود الابد يقول الله تعالى (كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين) فاحذروا ماحذركم الله وانتفعوا بمواعظه واعتصموا بحبله عصمنا الله واياكم بطاعته ورزقنا واياكم أداء حقه

(خطبة المهدى)

الحمد لله الذى ارتضى الحمد لنفسه ورضى به من خلقه أحمده على آلائه وأمجده لبلائه . وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه توكل راض بقضائه وصابر لبلائه وأشهد أن لا اله الا الله وحده لاشريك له وأن محمدا عبده المصطفى ونبيه المجتبى

ورسوله الى خلقه وأمينه على وحيه أرسله بعد انقطاع الرجاء وطموس العلم واقتراب من الساعة الى أمة جاهلية مختلفة أمية أهل عداوة وتضاغن وفرقة وتباين. قد استهوتهم شياطينهم وغلب عليهم قرناؤهم واستشعروا الردى وسلكوا العمى. يبشر من أطاعه بالجنة وكريم ثوابها وينذر من عصاه بالنار واليم عقابها (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة وإن الله لسميع عليم) — أوصيكم عباد الله بتقوى الله فأن الاقتصار عليها سلامة والترك لها ندامة وأحثكم على إجلال عظمته وتوقير كبريائه وقدرته والانتهاء الى مايقرب من رحمته وينجى من سخطه وينال به مالديه من كريم الثواب وجزيل المآب. فاجتنبوا ماخوفكم الله من شديد العقاب واليم العذاب ووعيد الحساب يوم توقفون بين يدى الجبار وتعرضون فيه على النار يوم لاتكلم نفس الا بأذنه فمنهم شقى وسعيد يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه يوم لاتجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون. يوم لايجزى والد عن ولده ولا مولود هو جازعن

والده شيئا. إن وعد الله حق. فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور. فأن الدنيا دار غرور وبلاء وشرور واضمحلال وزوال. وتقلب وانتقال. قد أفنت من كان قبلكم وهى عائدة عليكم وعلى من بعدكم. من ركن اليها صرعته ومن وثق بها خانته ومن أملها كذبته ومن رجاها خذلته. عزها ذل وغناها فقر. والسعيد من تركها والشقى فيها من آثرها والمغبون فيها من باع حظه من دار آخرته بها. فالله الله عباد الله. والتوبة مقبولة والرحمة مبسوطة. وبادروا بالأعمال الزكية فى هذه الأيام الخالية قبل أن يؤخذ بالكظم وتندموا فلا تنالون الندم في يوم حسرة وتأسف وكآبة وتلهف ليس كالأيام وموقف ضنك المقام. إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله يقول الله تبارك وتعالى واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لكم ترحمون. أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر الخ السورة. أوصيكم عباد الله بما أوصاكم الله به وأنهاكم عما نهاكم الله عنه وأرضى لكم طاعة الله واستغفر الله لى ولكم

(خطبة هارون الرشيد)

الحمد لله نحمده على نعمه ونستعينه على طاعته ونستنصره على أعدائه. ونؤمن به حقا ونتوكل عليه مفوضين اليه. وأشهد ان لا اله الا الله وحده لاشريك له وأشهد ان محمدا عبده ورسوله بعثه على فترة من الرسل ودروس من العلم وأدبار من الدنيا وإقبال من الآخرة بشيرا بالنعيم المقيم ونذيرا بين يدي عذاب اليم فبلغ الرسالة ونصح الأمة وجاهد فى الله فأدى عن الله وعده ووعيده حتى أتاه اليقين فعلى النبي من الله صلاة ورحمة وسلام أوصيكم عباد الله بتقوى الله فأن فى التقوى تكفير السيئات وتضعيف الحسنات وفوزا بالجنة ونجاة من النار. وأحذركم يوما تشخص فيه الأبصار وتبلى فيه الأسرار يوم البعث ويوم التغابن ويوم التلاق ويوم التنادي يوم لا يستعتب من سيئة ولا يزداد فى حسنة يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم

لا يظلمون . عباد الله انكم لم تخلقوا عبثا ولم تتركوا سدى
حصنوا إيمانكم بالأمانة ودينكم بالورع وصلاتكم بالزكاة
فقد جاء في الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا ايمان لمن
لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له ولا صلاة لمن لا زكاة له .
إنكم سفراء مجتازون وأنتم عن قريب تنتقلون من دار
بقاء فسارعوا الى المغفرة بالتوبة والى الرحمة بالتقوى وإلى
الهدى بالأمانة فان الله تعالى ذكره أوجب رحمته للمتقين
ومغفرته للتائبين وهداه للمنيبين فقال الله عز وجل . وقوله
الحق . (ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون
ويؤتون الزكاة) وقال . (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا
ثم اهتدى) وإياكم والأماني فقد غرت وأوردت وأوبقت
كثيرا حتى أكذبتهم مناياهم فتناوشوا التوبة من مكان
بعيد . وحيل بينهم وبين ما يشتهون فأخبركم ربكم عن المثلات
فيهم وصرف الآيات وضرب الأمثال فرغب بالوعد وقدم
اليكم الوعيد وقد رأيتم وقائعهم بالقرون الخوالي جيلا فجيلا
وعهدتم الاباء والأبناء والأحبة والعشائر باختطاف الموت
اياهم من بيوتكم ومن بين أظهركم لا تدفعون عنهم ولا

تحولون دونهم فزالت عنهم الدنيا وانقطعت بهم الأسباب فأسلمتهم إلى أعمالهم عند المواقف والحساب والعقاب، «ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى» ان أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله يقول الله عز وجل. «واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون». أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم إنه هو السميع العليم بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله الى آخر السورة فيما أمركم بما أمركم الله به وأنهاكم عما نهاكم الله عنه واستغفر الله لي ولكم

(خطبة المأمون فى يوم الجمعة)

الحمد لله مستخلص الحمد لنفسه ومستوجبه على خلقه أحمده وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه وأشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له وأشهد ان محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون أوصيكم عباد الله ونفسي بتقوى الله وحده والعمل لما عنده والتنجز لوعده والخوف لوعيده فأنه لا يسلم الا من اتقاه ورجاه وعمل له وأرضاه. فاتقوا الله عباد الله وبادروا آجالكم

بأعمالكم وابتاعوا ما يبقى. بما يزول عنكم ويفنى. وترحلوا عن الدنيا فقد جد بكم. واستعدوا للموت فقد أظلكم وكونوا كقوم صيح بهم فانتبهوا واعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا. فأن الله عز وجل لم يخلقكم عبثا ولم يترككم سدى وما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به وإن غاية تنقصها اللحظة. وتهدمها الساعة الواحدة. لجديرة بقصر المدة وإن غائبا يحدوه الجديدان الليل والنهار لجدير بسرعة الاوبة. وإن قادما يحل بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدة فاتقى عبد ربه. ونصح نفسه وقدم توبته وغلب شهوته فأن أجله مستور عنه وأمله خادع له والشيطان موكل به يزين له المعصية ليركبها ويمنيه التوبة ليسوفها حتى تهجم عليه منيته أغفل ما يكون عنها فيالها حسرة على كل ذى غفلة أن يكون عمره عليه حجة وتؤديه منيته إلى شقوة نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن لا تبطره نعمة ولا تقصر به عن طاعة ربه غفلة. ولا يحل به بعد الموت فزع إنه سميع الدعاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير فعال لما يريد:

ومن نظر إلى خطب الأمراء فى الوعظ بعد عهد النبى

صلى الله عليه وسلم وعهد أصحابه يراها تدور على معان واحدة والفاظ معينة لا تتجاوزها . وهى التزهيد فى الدنيا والترغيب فى الآخرة وتبشير المطيع وإنذار العاصى . ولا عيب عليهم فى ذلك فأنهم كانوا يرون ذلك كافيا فى أزمانهم لكثرة أهل المعرفة فيها وقرب عهدهم من النبوة

أما فى زماننا هذا فلا يكفى ذلك فى تحقق الدعاء إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإحياء الفضيلة والقضاء على الرذيلة ومحاربة البدع المذمومة والعادات القبيحة كما سبق فى صدر هذا المبحث . وإليك نموذجا من الخطب المصرية التى تلائم حال الناس اليوم وتنطبق تماما على القانون الخطابى الذى يجب أن تكون عليه الخطب الدينية فى الوعظ والأرشاد .

(الخطب المصرية)

(خطبة فى التحذير من تقليد الأجانب فى الأخلاق والعادات)

الحمد لله الذى وفق السعداء لادراك الفضائل والكمالات . وأوجب على الناس النظر فى جميع الكائنات . فقال تعالى

(قل انظروا ماذا فى السموات والارض) لا إله إلا هو العزيز الحكيم نشكره تعالى ميز لنا القبيح من الحسن . ونلجأ إليه مما نزل بنا من الضعف والوهن ونعوذ به من التقليد فى سيء الاخلاق وقبيح العادات. وأشهد أن لا إله إلا الله هدانا بدين الاسلام إلى خير وسائل السعادة. وأشهد أن سيدنا محمد رسول الله أوضح لنا سبيل الرقى والسيادة . اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الذين عملوا بآداب الدين فبلغوا ذروة الكمال (أما بعد) فيأيها المسلمون أمامنا طريق السعادة مفتوح فلماذا لا نسلكه ؟ أمامنا سبيل الرقى واضح فلماذا نعدل عنه ونتركه ؟ ونسلك طريق الشقاء والخسران . أرأيتم أن دينكم دين الفضيلة والكمال قصر فى إرشادكم إلى سبيل الفلاح حتى عدلتم عنه وهجرتموه . أم قرأتم فى تعاليمه ما يصدكم عن كرائم الصفات وجلائل الأعمال حتى رغبتم فى تقليد الغير ونبذتموه ؟ كلا إنه دين الله الذى يبقى طريقا للسعادة إلى يوم تبعثون . مامن فضيلة إلا حث على التخلق بها . ومامن رذيلة إلا نفر من قبحها وبين سوء عاقبتها . فلماذا نسير على غير هدى . ونقلد الغير فيما ينهى عنه الدين

وتأباه الغيرة والمروءة. لقد جر علينا تقليد الأجانب شراً وبيلاً فقد فقد كثير من أبنائنا ثقتهم بالله وخضوعهم للقادر المتعال. والرضا بقضاء الله وقدره. فاستهانوا بحقوقه. وعبثوا بواجباته وأصبح الكثير منهم إذا نزلت به حادثة من حوادث الايام يذهب عنه الصبر ويستولى عليه اليأس والجزع فينتحر ويقتل نفسه بيده. وبذلك يترك وراءه الخزى والعار. ولا يجد أمامه إلا الغضب من المنتقم الجبار. ولقد قادنا تقليدهم إلى التهاون بالدين وعدم المبالاة بأنواع الفجور. وصار الكثير منا جريئا على كل ما لا يرضى به الشرع والعقل من الشرور والقبائح — قلدناهم في شرب الخمر ولم نبال بمضارها العقلية والبدنية. قلدناهم فى لعب القمار ولم نبال بما يلحقنا من المضار المالية. قلدناهم فى التبرج والتهتك وقلنا حرية. أخذنا عنهم أنواع اللهو والخلاعة وقلنا إننا بذلك نكون متمدنين. ربينا بناتنا على عاداتهم فنشأن عاريات من الفضائل جاهلات بآداب الدين. وطرحن ثوب الحشمة والحياء. وبرزن فى الشوارع بالأزياء الافرنجية. فأذا رأيت المسلمة رأيت منها امرأة افرنجية فى ملابسها وحركاتها وسكناتها وهى

ابنة أو زوجة من يعد نفسه من جماعة المسلمين . وأقبح من ذلك أن يذهب المسلم الى أماكن الرقص وبيوت الفسوق والفجور . وبدل أن ينفق المال فى الأعمال النافعة يضيعه فى النقائص والرذائل . وهو يعلم أن هذه الأماكن ما أقيمت ألا لسلب ماله وفساد أخلاقه والقضاء على دينه . فيجنى على نفسه وعلى أمته ويكون لبناء الفضيلة والدين من الهادمين . أيها الناس إن لكل أمة محاسن وقبائح يعرفها الأعمى والبصير فمن العار أن نقلد غيرنا فيما ينهى عنه الدين . ولا يتفق مع آداب المسلمين . إننا بهذا التقليد نندمج فى غيرنا . ونهدم بناء ديننا . إننا بهذا التقليد نقضى على آدابنا . ونمحو معالم حياتنا . ونصبح بين الأمم أذلاء مستضعفين كفى بهذا التقليد ذما أنه يسلب صاحبه فضيلة الانسان . كفى بهذا التقليد ذما أنه يبعد الانسان عن رضا الرحمن . كفى بهذا التقليد قبحا أنه يقطع الصلة بيننا وبين آبائنا الأولين . أولئك الذين سادوا العالم وشادوا دعائم العلم والدين . إن الأجانب أنفسهم عرفوا ضرر كثير من عاداتهم فنبهوا اشعوبهم وأممهم الى سوء عاقبتها فأقلعوا عنها . وأن دينكم والحمد لله ما ترك التنبيه على

ضررها وطالما حذر من شرها وخطرها . فارجعوا إلى دينكم وكونوا بهديه متمسكين . اتقوا الله واحذروا ذلك التقليد الأعمى فإنه يضر ولا ينفع . اتقوا الله وحافظوا على آداب دينكم فلا دواء لكم سواه (ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لاتبعتموهم قالوا يارسول الله اليهود والنصارى ؟ قال فمن غيرهم رواه مسلم

وروى البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه . وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا

(خطبة فى التحذير من شهادة الزور)

الحمد لله أعز من تمسك بدينه فأطاع مولاه واتقاه . وأذل من أهمل أمر دينه فخالف ربه وعصاه . لا اله الا هو العزيز الحكيم . وأشهد أن لا اله الا الله أوجب قول الحق وحرم شهادة الزور . وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله

نهى عن الكذب والباطل والفجور . اللهم صل وسلم على
سيدنا محمد نبي الرحمة وهادى الأمة . وعلى آله وصحبه الذين
تأدبوا بآداب الدين فكانوا هم الفائزين (أما بعد فأيها
المسلمون) إن الاستقامة أثر الايمان . ولا يكون العبد مسلما
الا اذا خضع لأوامر الديان . ولا ينفعه أن يقول أنا مسلم
وهو لا يعمل عمل المسلمين . وقد جعل الله لكم السمع والبصر
واللسان لتستعينوا بها على مايفيد وينفع . وسيسألكم عما
كسبتموه بالعين والاذن واللسان يوم لا مال ينفع ولا ولد
يشفع . فاستعملوها فى الطاعة ولا تستعملوها فيما يؤاخذكم
به أحكم الحاكمين . ومن أشد ماتؤاخذون عليه قول الزور
فأنه لا يكب الناس فى النار على وجوههم الا حصائد ألسنتهم
ولا تفسد أحوال الامم الا باضاعة الحق بينهم فى معاملاتهم
فأذا دعى أحدكم للشهادة فليشهد كما عاين انصرة الحق وأنصاف
المظلومين . قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين
بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين وايا كم
وشهادة الزور فانها فساد كبير . وقائلها محتقر مهين له فى الدنيا
خزى وله فى الآخرة عذاب السعير . ومن لا يكرم نفسه

كان لاشك من الخاسرين . شاهد الزور فاقد المروءة عديم الشهامة . شاهد الزور فاجر كذاب فاسق ساقط العدالة . شاهد الزور سافل وضيع ممقوت لدى الله والناس أجمعين أيدرى شاهد الزور إلى من أساء . أساء إلى نفسه حيث باع آخرته بدنيا غيره فخسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين . وأساء إلى من شهد عليه . ضيع حقه وخذله وهو فى حاجة إلى الناصرين . وأساء إلى من شهد له . اعانه على الظلم وأوقفه يوم القيامه بين يدى جبار لا يرحم الظالمين وأساء الى القاضى . حيره وطمس معالم الحق ولو لا شهادته الكاذبة لكان فى القضية من المهتدين وأساء إلى الأمة كلها بترويج الكذب والباطل بين أفرادها . وقتل روح الحق والصدق وهما أساس الثقة والرواج فى معاملتها . ومتى فشى الكذب والزور فى أمة أصبحت من الهالكين . فياشاهد الزور هل اتخذت عندالله عهدا ألا حساب ولا عقاب ولا غضب . أم ظننت سقوط التكليف عن المجرمين حتى تعديت حدود الأدب . أم أباح لك عقلك أن تترك الحق وتكون فى عداد المزورين . ويا حليف الباطل إن كان لك قوة على

غضب الجبار فابق على هذا الضلال والطغيان . إن كان لك صبر على لهب النار فاستمر على هذا الزور والبهتان . إن كان لك حيلة فى دفع البلاء فاستمد لنزول الخذلان . إن كان لك رغبة فى السقوط والهوان فها أنت ذا ساقط فى الهوان المشين. فيأيها المسلمون اتقوا الله وتباعدوا عن هذه المنكرات وصونوا ألسنتكم عن قول الكذب وشهادة الزور فأنها من أكبر الكبائر واشد المحرمات ولايجترئ عليها إلا شقى لايبالى بغضب رب العالمين. وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون (الحديث-روى البخارى عن أبى بكرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أنبئكم بأكبر الكبائر - قالها ثلاثا - قالوا بلى يارسول الله قال أكبر الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين وجلس وكان متكئا ثم قال ألا وقول الزور الاوقول الزور . فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت

خطبة فى مضار الربا

الحمد لله الذى يمحق الربا ويربى الصدقات . وأشهد أن لاإله إلا الله شهادة تبعدنا عن الموبقات .وأشهد أن سيدنا

محمدا رسول الله حذر من ارتكاب المحرمات . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الذين أقاموا شعائر الدين وعظموا الحرمات . فكانوا هم المفلحين (أما بعد فيأيها المسلمون) ان الله لا يظلم مثقال ذرة . ومن رحمته بالانسان بين له المنفعة والمضرة . وأباح له التوسع في كسب المال من طريقه الحلال . وحرم عليه الربا لانه من أكبر عوامل الدمار في الحال والمال . وشدد الوعيد عليه وجعله من أقبح الكبائر . ونفر الناس من تعاطيه بأبلغ الزواجر . قال تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا أن كنتم مؤمنين فأن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون) وأى زاجر أكبر من جعل المرابى محارب بالله ورسوله لانه شوه وجه المعروف بأخذه الزيادة عن رأس ماله . فيا عجبا كيف يفرح المقترض بمعاملة من يصيره عرضة للهلاك . حيث يسلب ماله شيئا فشيئا حتى ينتزع منه جميع الأملاك فيأيها المقترض بالربا أما تدرى أنك قد وقعت في قبضة من يحاول أن يقطع عنك مادة الحياة . فأن كنت تظن أنه فرج عنك فقد أوقعك في ضيق لا تحمد

عقباه . وأي ضرورة تدعوك الى الاقتراض بهذه الزيادة الممقوتة . وأبواب الأرزاق كثيرة وما دام الانسان حيا لا يعدم قوته .. عباد الله . ان ذل السؤال أهون من أخذ المال بالربا . فان كان السؤال ذلا فذل الربا أشنع عند حلول الدين يوم يأتي الدائن مطالبا . أيها الآخذ بالربا ان كنت ممن يرضى بما قسم الله . كفاك في دنياك ما يدفع عنك ضرورة الحياة . وان كنت تحب المظاهر الكاذبة . فاقتراضك بالربا يورثك الفقر ويجر عليك وخامة العاقبة . أتتعب في جمع مالك ويفوز به الأجنبي وهو مستريح البال . وتعينه على الربا فتشاركه في اللعنة وتعرض نفسك لسوء الحال وشر المآل : ياهذا لو فكرت في الربا لعلمت أنه يعود عليك بالضرر . فان كثيرا من أمثالك تعاملوا بالربا وعما قليل أحاط بهم الخطر . فأصبحوا وقد التصقت أيديهم بالتراب . لا يعطف عليهم قريب ولا يواسيهم بعيد بل تقطعت بهم الأسباب . وأصبحوا عالة على كاهل العباد . هذا يحتقرهم وهذا يتأفف منهم وآخر يرميهم بسوء

التصرف وفقد الرشاد . وما أوقعهم فى هذا الهوان الا الطمع وافتتانهم بالتمدين الحديث . فلم يجدوا وسيلة الى نيل أغراضهم سوى هـذا القرض المشئوم الخبيث . فجر عليهم وعلى أولادهم ثقيل الهموم . وتقلبت بهم عواصف الغموم . أيها المسلمون — ان المال خير عون لصاحبه على بقائه عزيزا بين قومه وعشيرته . فاذا خالطه الربا ذهب من يده وأصبح كاسف البال كئيبا بين حسرته وندامته . وهذا جزاء من تعرض لحرب الله والرسول المصطفى . ولو لم يكن فى الربا إلا تشبيه آكله بالذى يتخبطه الشيطان من المس لـكفى . فاتقوا الله أيها المؤمنون وتباعدوا عن الربا إن كنتم مؤمنين . وكلوا مما رزقكم الله حـلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لـكم عدو مبين

(الحديث) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . اذا ظهر الزنا والربا فى قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله

(خطبة فى تبرج النساء فى المدن)

الحمد لله الذى وعد أهل الاستقامة دار العز والكرامة .

وأوعد الفاجرين الخزى والنكال يوم القيامة . ليجزى
الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى . وأشهد
ألا اله الا الله وحده ضمن الفلاح لمن سلك طريق الصواب .
وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله أمرنا بالتمسك بالسنة
والكتاب . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
الذين تأدبوا بآداب الدين فكانوا هم الفائزين . أما بعد .
فيايها المسلم ضيعت مجدك وما حافظت على الشهامة
والشرف . ملت الى النقائص حتى أشرفت على البوار
والتلف . وعما قليل تنتبه من غفلتك وتكون من النادمين
أمرك ربك بتعليم أولادك أمور الدين فأهملتهم . تركوا
الكمال وتعرضوا للفساد فما منعتهم . تدعى الغيرة وبناتك
ونساؤك فى الأسواق عرضة للفاسقين . تركت المرأة
تخرج بصورة لا يرضاها الكبير المتعال . تركتها تخرج
بحالة شنيعة تأباها المروءة والغيرة والكمال . تخرج بحالة
تقشعر منها جلود المؤمنين . وتطمئن لها نفوس الفاجرين .
تركتها تخرج من بيتها متهتكة فيفتتن بها الكهول والشبان
هذا يزاحمها وذاك يخاطبها وآخر يشير اليها بالبنان . (ومن

يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين) فهل يليق بك أيها المسلم أن تترك زوجتك أو ابنتك هكذا تخرج عن الصراط السوى . هل يليق بك أن ترى المسلمة يراودها المسلم والنصراني . هل يليق بك أن ترى المرأة تمشى مشى الغواية مع كل غوى . أم رضيت أن تشيع الفاحشة وينتشر الفساد بين المسلمين . وهل هذا يرضيك وأنت تدعى الغيرة وكمال الايمان . وهل هذا يجوز وأنت مسلم تصدق بالقرآن . وكيف ترضى بهذا وأنت من أمة سيد الأنبياء والمرسلين ياقوم ماهذا التبرج [1] وكتاب الله بين أيدينا ماهذا الضلال وسنة الهادى ترشدنا وتهدينا . ماهذا الشقاء والسعادة فى ديننا تناديناً . (قل هذه سبيلى أدعو الى على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين) . فلولا إعراضنا عن الدين لما أصبحنا فى حال هى أسوأ الحالات . لولا هذه الحرية الكاذبة مافسدت حوال البنين والبنات . لولا إهمال الآباء والأزواج ماخرجت النساء متبرجات متهتكات . حتى ذهب الحياء

---

(١) التبرج اظهار المرأة زينتها ومحاسنها للاجانب

وعم البلاء ذات الشمال وذات اليمين . فاتقوا الله أيها المسلمون
وحافظوا على الأعراض وتأدبوا بآداب الدين وامنعوا ابنائكم
ونساءكم من تقليد الاجنبيات فى هذا التبرج ان كنتم
مؤمنين فان ذلك من عادات الجاهلية الأولى التى حرمها دين
المسلمين . قال تعالى يانساء النبى لستن كأحد من النساء ان
اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن
قولا معروفا وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية
الأولى الآية وقال تعالى يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك
ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن
أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما وفى البخارى عن
اسامة بن زيد رضى الله عنهما ان النبى صلى الله عليه وسلم
قال ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء
وقال صلى الله عليه وسلم أيما امرأة استعطرت ثم خرجت
على قوم ليجدوا ريحها فهى زانية وكل عين زانية ؟

(خطبة فى تعرض الرجال للنساء فى الطرقات)

الحمد لله العليم الذى لايخفى عليه حال العبد فى حركاته

وسكناته . الحكيم الذى حرم من الفلاح من هام فى لذاته
وشهواته . سبحانه وتعالى له الحكم وإليه ترجعون . واشهد
أن لا اله إلا الله القوى الغنى الذى لا تضره المعصية ولا تنفعه
الطاعة . وأشهد ان سيدنا محمدا رسول الله أمر بالاستقامة
ونهى عن التفريط والاضاعة . اللهم صل على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء المجرمون .
(اما بعد) فيأيها المسلم سلكت طريق الندامة وعدلت عن
طريق السلامة . اضعت عمرك فى المعاصى وما عملت حسابا
للقيامة . اسرفت فى اللذات والشهوات فأوجبت لنفسك
السقوط والملامة . فما جوابك اذا نشر كتابك يوم لا ينفع
مال ولا بنون . تمر بك المرأة فتتبعها عينيك وتطيل فيها
النظر . تمشى فتمشى خلفها وما عاقبة ذلك إلا العار والوقوع
فى الخطر . لا دين يمنعك . ولا ادب يردعك . ولا حياء ولا
نظار . لكن اغواك الشيطان ورماك فى العذاب المهين الم
تعلم ان النظر إلى الأجنبية رائد الفتنة . ورسول الفجور .
وانه على ذريتك من جملة الديون . الم تعلم ان افتتانك بهما
يورثك الفقر فى الدنيا . وفى الآخرة عذاب الهون . الم

تعلم ان هذه القبائح التى استهونتها هى عند المنتقم الجبار لاتهون . اما بلغك قوله تعالى قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم . ذلك أزكى لهم . ان الله خبير بما يصنعون . اما تدرى ان التعرض للنساء يجلب لك العداوة والبغضاء . ويجرك الى الخراب والدمار . اما تدرى ان ذلك يرضى الشيطان . ويغضب الاله العزيز القهار . اما تدرى ان من ملأ عينيه من الحرام تكوى عيناه يوم القيامه بمسامير من نار . كما رواه عن الصادق الامين الثقاة العارفون . (ياهذا) إن من كمال الايمان ان تحب للناس ماتحب لنفسك . فهل تحب من احد ان يتعرض إلى زوجتك او ابنتك أو امك . (لا) إلا ان تكون ساقط المروءة عديم الغيرة أو لست من جماعة المسلمين . فيخشى على من يتعرض للنساء فى الطرقات ان يسلب منه الايمان . فانه اتخذ الهه هواه . فأضله وأعماه . وانساه هيبة مولاه وقاده إلى الخسران أولئك حزب الشيطان الا إن حزب الشيطان هم الخاسرون . فتنبه ايها الغافل فالمرأة فتنة للانسان . تيقظ ايها المفتون فالنساء حبائل الشيطان . وإياك والتعرض للنساء فان الذنب لا ينسى وكما تدين تدان . وستردون

إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون . فاتقوا الله ايها المسلمون وتخلقوا بالأخلاق المرضية . وطهروا انفسكم من هذه الشهوات وادبوها بالآداب الدينية . وعودوها العفة والبعد عن التعرض والنظر إلى الاجنبية . وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون

الحديث

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ النظرة سهم مسموم من سهام ابليس فمن غض بصره عن امرأة الله ورث الله قلبه حلاوة إلى يوم القيامة

وروى الطبراني عنه صلى الله عليه وسلم انه قال لتغضن ابصاركم ولتحفظن فروجكم أو ليكسفن الله وجوهكم .

(نماذج المواعظ)

أبلغ المواعظ كلها كلام الله تعالى الأعز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ثم الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ؛ ثم مواعظ

الاباء للابناء .ثم مواعظ الحكماء والادباء ثم مواعظ العباد للخلفاء ثم أقوال المتحققين والزهاد

(مواعظ القرآن)

قال الله تبارك وتعالى أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة الى آخر السورة وقال جل ثناؤه . كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحيا كم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون . وقال تعالى . أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين . الى قوله عليم . وقال تعالى ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون

وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان. ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم . واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ـ ان الله يأمركم ان تؤدوا الأمانات الى أهلها . ان الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط ــ وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما . واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى

انما المؤمنون إخوة فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم - إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب اليم فى الدنيا والآخرة - لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن - يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها - فهذه الآيات وما شاكلها من أبلغ الحجج واحكم المواعظ

(مواعظ الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم)

قال أبو بكر بن أبى شيبه يرفعه الى النبى صلى الله عليه وسلم . يكفى أحدكم من الدنيا قدر زاد الراكب (وقال صلى عليه وسلم) ابن آدم اغتنم خمسا قبل خمس . شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك . وغناك قبل فقرك . وفراغك قبل شغلك . وحياتك قبل موتك (وقال) من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلا يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فقد كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت محبته . (وقال) أوصانى

ربى بتسع أوصيكم بها. أوصانى بالاخلاص فى السر والعلانية والعدل فى الرضى والغضب. والقصد فى الغنى والفقر. وأن اعفوا عمن ظلمنى. وأعطى من حرمنى. وأصل من قطعنى وأن يكون صمتى فكرا. ونطقى ذكرا. ونظرى عبرا (وقال) اياكم والظن فانه أكذب الحديث ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا (وقال) آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا إئتمن خان

في مواعظ الانبياء — لرسول الله صلى الله عليه

اذا لم تستحى فاصنع ما شئت — استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان — انكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم — اخسر الناس صفقة من باع آخرته بدنيا غيره. اياك وقرين السوء فانك به تعرف. بروا آباءكم تبركم أبناؤكم. الجنة تحت اقدام الامهات الحزم ان تشاور ذا الرأى ثم تطيعه. احب البيوت إلى الله بيت يتيم يكرم. دع ما يريبك إلى ما لا يريبك — من سلك مسالك التهم اتهم ولا اجر

له المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ـ المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا

(وقال عيسى بن مريم عليه السلام) ألا أخبركم بخيركم مجالسة قال بلى قال من تذكركم بالله رؤيته ويزيد فى عملكم منطقه ويشوقكم إلى الجنة عمله (وقال عليه السلام للحواريين عجبا لكم تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير عمل ولا تعملون للآخرة وانتم لا ترزقون فيها إلا بعمل

وفى الحديث القدسى عن رب العزة . يابن آدم لا تخف من سلطان مادام سلطانى باقيا وسلطانى لا ينفد أبدا . ياابن آدم لا تأنس بغيرى وأنا لك فأنك ان طلبتنى وجدتنى وإن أنست بغيرى فتك وفاتك الخير كله . يا ابن آدم خلقتك للعبادة فلا تلعب وقسمت لك رزقك فلا تتعب ان كثر فلا تفرح وان قل فلا تجزع (وفيه أيضا) عبدى ان رضيت بما قسمته لك أرحت نفسك وبدنك وكنت عندى محمودا وإن لم ترض بما قسمته لك سلطت عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش فى البرية ولا ينالك منها ماقسمته لك وكنت عندى مذموما (وفيه أيضا) أحب ثلاثا وحبى لثلاث أشد

أحب أهل السخاء وحبي للفقير السخي أشد وأحب المتواضعين وحبي للغني المتواضع أشد . وأحب التائبين وحبي للشاب التائب أشد . وأبغض ثلاثا وبغضي لثلاث أشد : أبغض البخلاء وبغضي للغني أشد . وأبغض المتكبرين وبغضي للفقير المتكبر أشد . وأبغض الفساق وبغضي للشيخ الفاسق أشد . (وفيه) عبدي أخذك الشيطان مني لا لعجزي ولكن لضعفك أنت (وفيه) عبدي كم أتحبب اليك بالنعم وتتبغض إلي بالمعاصي خيري اليك نازل وشرك الي صاعد (وفيه) يا بن آدم لا تطالبني برزق غد كما لا أطالبك بعمله فأني لم أنس من عصاني فكيف من أطاعني « وأوحى الله الى عيسى عليه السلام » ياعيسى اذا كنت وحدك فاحفظ لسانك . واذا كنت على الطريق فاحفظ بصرك . واذا كنت على الطعام فاحفظ بطنك . فهذه تورثك السلامة والصحة « ومن دعاء نبي الله داود عليه السلام » اللهم اني أسألك أربعا وأعوذ بك من أربع . أسألك قلبا خاشعا ، ولسانا ذاكرا ، ويدنا على البلايا صابرا ، وامرأة تعينني في دنياي وآخرتي . وأعوذ بك من ولد يكون علي سيدا ، ومن مال يكون نعيما لغيري

ووبالا على ، ومن امرأة تشيبني قبل وقت المشيب ، ومن جار سوء إن رأى منى حسنة كتمها وأن رأى منى سيئة أشاعها

(مواعظ الحكماء)

قال ابن عباس رضى الله عنهما ما انتفعت بكلام أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ماانتفعت بكلام كتبه الى على بن أبى طالب رضى الله عنه كتب الى أما بعد فأن المرء يسره ادراك ما لم يكن ليفوته ويسوءه فوات مالم يكن ليدركه فليكن سرورك بما نلت من أمر آخرتك وليكن أسفك على مافاتك منها . ومانلت من أمر دنياك فلا تكن به فرحا ومافاتك منها فلا تأس عليه جزعا وليكن همك مابعد الموت (قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه) أوصيكم بخمس لوضربت عليها آباط الابل لكان قليلا . لا يرجون أحدكم إلا ربه . ولايخافن الا ذنبه ولا يستحي اذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم . واذا لم يعلم الشيء أن يتعلمه . واعلموا أن الصبر من الايمان

بمنزلة الرأس من الجسد فاذا قطع الرأس ذهب الجسد
(وقال أيضا) من أراد الغنى بغير مال والكثرة بلا عشيرة
فليتحول من ذل المعصية الى عز الطاعة . أبى الله الا أن
يذل من عصاه (قال العتبي) اجتمعت العرب والعجم على
أربع كلمات . لاتحملن على قلبك مالا تطيق . ولا تعملن
عملا ليس لك فيه منفعة . ولاتثق بامرأة . ولا تغتر بمال
وإن كثر (قال ابن شبرمه) إذا كان البدن سقيما لم ينجع
فيه الطعام ولا الشراب . واذا كان القلب مغرما بحب الدنيا
لم تنجع فيه الموعظة (وقال هرون) لابن السماك عظني
قال كفى بالقرآن واعظا يقول الله تبارك وتعالى ألم تر كيف
فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد
الى قوله لبالمرصاد (قال ابن مبارك) كتب سلمان الفارسي
الى أبي الدرداء أما بعد فانك لن تنال ما تريد الا بترك
ماتشتهي وان تنال ماتؤمل الا بالصبر على ماتكره فليكن
كلامك ذكرا وصمتك فكرا ونظرك عبرا . فأن الدنيا
تتقلب وبهجتها تتغير فلا تغتر بها وليكن بيتك المسجد
والسلام — فأجابه أبو الدرداء سلام عليك أما بعد فأني

أوصيك بتقوى الله وأن تأخذ من صحتك لسقمك ومن شبابك لهرمك ومن فراغك لشغلك ومن حياتك لموتك ومن جفائك لمودتك واذكر حياة لاموت فيها فى احدى المنزلتين أما فى الجنة واما فى النار فانك لاتدرى الى أيهما تصير (وكتب) عمر بن عبد العزيز الى رجاء بن حيوه أما بعد فانه من أكثر من ذكر الموت اكتفى باليسير ومن علم أن الكلام من عمله قل كلامه ألا فيما ينفعه (وكتب) عمر بن عبد العزيز الى الحسن اجمع لى أمر الدنيا وصف لى أمر الآخرة فكتب اليه انما الدنيا حلم والآخرة يقظة والموت متوسط ونحن فى أضغاث أحلام، من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر ومن نظر في العواقب نجا ومن أطاع هواه ضل، ومن حلم غنم، ومن خاف سلم، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم ومن فهم علم. ومن علم عمل فاذا زللت فارجع. واذا ندمت فاقلع واذا جهلت فاسأل واذا غضبت فأمسك، واعلم ان أفضل الاعمال ما أكرهت النفوس عليه — بشير رضى الله عنه الى قول النبي صلى الله

حفت الجنة بالمكاره والنار بالشهوات . أى ان الطريق الى الجنة احتمال المكروه فى الدنيا والطريق الى النار ركوب الشهوات

(مواعظ الاباء للأبناء)

قال لقمان لابنه . اذا اتيت مجلس قوم فارمهم بسهم السلام ثم اجلس فأن افاضوا فى ذكر الله فأجل سهمك مع سهامهم وأن افاضوا فى غير ذلك تخل عنهم وانفض ثوبك (وقال) يابنى استعذ بالله من شرار الناس وكن من خيارهم على حذر (ومثل هذا) قول اكثم بن صيفى . احذر الأمين ولا تأمن الخائن فأن القلوب بيد غيرك (وقال لقمان لابنه أيضا) لا تركن الى الدنيا ولا تشغل قلبك بها فأنك لم تخلق لها وما خلق الله خلقا أهون عليه منها فانه لم يجعل نعيمها ثوابا للمطيعين ولا بلاءها عقوبة للعاصين يابنى لا تضحك من غير عجب ولا تمش فى غير ارب ولا تسأل عن مالا يعنيك يابنى لا تضيع مالك وتصلح مال غيرك

فان مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت يابنى أنه من يرحم يرحم ومن يصمت يسلم . ومن يقل الخير يغنم ومن يقل الباطل يأثم ومن لا يملك لسانه يندم . يابنى زاحم العلماء بركبتيك وانصت اليهم بأذنيك فان القلب يحيا بنور العلماء كما تحيا الأرض الميتة بمطر السماء (وقال على بن الحسين رضى الله عنهما لابنه) يابنى أن الله لم يرضك لى فأوصاك بى ورضينى لك فحذرنى منك . واعلم أن خير الآباء للأبناء من لم تدعه المودة الى التفريط فيه . وخير الأبناء للآباء من لم يدعه التقصير الى العقوق له (وقال حكيم لبنيه) يابنى اياكم والجزع عند المصائب فانه مجلبة للهم وسوء ظن بالرب وشماتة للعدو . وأياكم أن تكونوا بالأحداث مغترين ولها آمنين فانى والله ما سخرت من شىء الا نزل بى مثله فاحذروها وتوقعوها فانما الانسان فى الدنيا غرض تتعاوره السهام فمجاوز له ومقصر عنه وموقع عن يمينه وشماله حتى يصيبه بعضها . واعلموا أن لكل شىء جزاء ولكل عمل ثوابا وقد قالوا كما تدين تدان ومن بر يوما بر به (وقال حكيم) لابنه يابنى انى موصيك بوصية فان لم تحفظ وصيتى عنى

لم تحفظها عن غيرى اتق الله ما استطعت وأن قدرت ان تكون اليوم خيرا منك أمس وغدا خيرا منك اليوم فافعل وأياك والطمع فانه فقر حاضر وعليك باليأس فأنك لم تيأس من شيء قط الا أغناك الله عنه . واياك ومايعتذر منه فانك لم تعتذر من خير أبدا واذا عثر عاثر فاحمد الله الا تكون هو . يابنى خذ الخير من اهله ودع الشر لاهله . واذا قمت الى صلاتك فصل صلاة مودع وأنت ترى الا تصلى بعدها ....

(وكتب الامام على رضى الله عنه الى ولده الحسن)

من على أمير المؤمنين الوالد الفانى المقر للزمان المدبر العمر المؤمل مالا يدرك السالك سبيل من قد هلك غرض الاسقام ورهينة الأيام وعبد الدنيا وتاجر الغرور واسير المنايا وقرين الرزايا وصريع الشهوات وخليفة الأموات (أما بعد) يابنى فأن فى ما تفكرت فيه من أدبار الدنيا عنى وأقبال الآخرة على وحنو الدهر على مازعنى عن ذكر سواى والاهتمام بما ورائى غير أنه حيث تفردنى هم نفسى دون هم الناس وصدقنى هواى وصرح بى محض رأيى فأفضى

بى الى جد لا يزرى به لعب. وصدق لا يشوبه كذب ووجدتك
يابنى بعضى بل وجدتك كلى حتى كأن شيئا لو اصابك أصابنى
وحتى كان الموت لو اتاك اتانى فعند ذلك عنانى من أمرك ماعنانى
من أمر نفسى كتبت اليك كتابى هذا ان بقيت أو فنيت
فأنى موصيك بتقوى الله وعمارة قلبك بذكره والاعتصام
بحبله فان الله تعالى يقول . واعتصموا بحبل الله جميعا
ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم اعداء فألف
بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا . وأى سبب يابنى أوثق
من سبب بينك وبين الله تعالى أحى قلبك بالموعظة ونوره
بالحكمه وقوه بالزهد وذلله بالموت وقوه بالغنى عن
الناس وحذره صولة الدهر وتقلب الايام والليالى واعرض
عليه أخبار الماضين وسر فى ديارهم وآثارهم فانظر مافعلوا
وأين حلوا فانك تجدهم قد انتقلوا من دار الغرور ونزلوا
دار الغربة وكأنك عن قليل يابنى قد صرت كأحدهم فبع
دنياك بآخرتك ولا تبع آخرتك بدنياك ودع القول فى
مالا تعرف والأمر فى مالا تكلف وأمر بالمعروف وانه عن
المنكر بيدك ولسانك وباين من فعله وخض الغمرات الى

الحق ولا يأخذك فى الله لومة لائم واحفظ وصيتى ولا تذهب عنك صفحا فلا خير فى علم لا ينفع . واعلم انه لا غنى بك عن حسن الارتياد مع بلاغك من الزاد فأن أصبت من اهل الفاقه من تحمل عنك زادك فيوافيك به فى معادك فاغتنمه فأن امامك عقبة كؤدا لا يجاوزها الا أخف الناس حملا فاجمل فى الطلب واحسن المكتسب فرب طلب قد جر الى حرب وأنما المحروب من حرب دينه والمسلوب من سلب يقينه . واعلم أنه لا غنى يعدل الجنة ولا فقر يعدل النار والسلام عليك ورحمة الله

(مقامات العباد عند الخلفاء)

قام صالح بن عبد الجليل بين يدى المهدى فقال له . أنه لما سهل علينا ما توعر على غيرنا من الوصول إليك قمنا مقام الأداء عنهم وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم . بأظهار ما فى اعناقنا من فريضة الأمر والنهى بانقطاع عذر الكتمان ولا سيما حين اتسمت بميسم التواضع وعبدت الله وحملت كتابه ايثارا للحق على ما سواه فجمعنا وإياك مشهد

من مشاهد التمحيص وقد جاء في الأثر من حجب الله عنه العلم عذبه على الجهل وأشد منه عذابا من أقبل اليه العلم فأدبر عنه . فاقبل ياأمير المؤمنين ماأهدى إليك من ألسنتنا قبول تحقيق وعمل لاقبول سمعة ورياء فإنما هو تنبيه من غفلة وتذكير من سهو وقد وطن الله نبيه على نزولهما فقال تعالى . وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم (كلام أبي حازم لسليمان بن عبد الملك) حج سليمان ابن عبد الملك فلما قدم المدينة للزيارة بعث إلى أبي حازم الأعرج وعنده ابن شهاب فلما دخل قال تكلم ياأبا حازم . قال فيم أتكلم ياأمير المؤمنين قال في المخرج من هذا الأمر قال يسير أن أنت فعلته قال وما ذاك قال لاتأخذ الأشياء إلا من حلها ولا تضعها إلا في أهلها قال ومن يقوى على ذلك قال من قلده الله من أمر الرعية ماقلدك قال عظني أبا حازم قال اعلم ان هذا الأمر لم يصر إليك الا بموت من كان قبلك وهو خارج من يديك بمثل ماصار إليك قال ياأباحازم أشر على قال إنما أنت سوق فما نفق عندك حمل إليك من خير أو شر فاختر أيهما شئت قال مالك لاتأتينا قال وما أصنع

بأتيانك يا أمير المؤمنين إن أدنيتني فتنتني وإن أقصيتني أخزيتني وليس عندك ما أرجوك له ولا عندي ما أخافك عليه قال فارفع الينا حاجتك قال قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها فما أعطاني منها قبلت وما منعني منها رضيت (مقام ابن السماك عند الرشيد) دخل عليه فلما وقف بين يديه قال له عظني يا ابن السماك وأوجز قال كفى بالقرآن واعظا يا أمير المؤمنين قال الله تعالى . ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون إلى قوله لرب العالمين . هذا يا أمير المؤمنين وعيد لمن طفف في الكيل فما ظنك بمن اخذه كله (وقال) له مرة عظني وأتى بماء ليشربه فقال يا أمير المؤمنين لو حبست عنك هذه الشربة أكنت تفديها بملكك قال نعم قال فلو حبس عنك خروجها أكنت تفديها بملكك قال نعم قال فما خير في ملك لا يساوي شربة ولا بولة قال يا ابن السماك ما أحسن ما بلغني عنك قال يا أمير المؤمنين أن لي عيوبا لو أطلع الناس منها على عيب واحد ماثبتت لي في قلب احد مودة وإني لخائف في الكلام الفتنة وفي السر الغرة وإني لخائف على نفسي من قلة خوفي عليها (كلام عمرو بن عبيد عند المنصور)

دخل عمرو بن عبيد على المنصور وعنده ابنه المهدى فقال له ابو جعفر هذا ابن أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين ورجائى ان تدعو له فقال امير المؤمنين إراك قد رضيت له أمورا يصير اليها وأنت عنه مشغول فاستعبر أبو جعفر وقال له عظنى أبا عثمان قال يا أمير المؤمنين إن الله اعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك منه ببعضها هذا الذى اصبح فى يديك لو بقى فى يد من كان قبلك لم يصل إليك قال أبا عثمان اعنى بأصحابك قال ارفع علم الحق يتبعك أهله ثم خرج فاتبعه أبو جعفر بصرة فلم يقبلها (خبر سفيان الثورى مع أبى جعفر) لقى أبو جعفر سفيان الثورى فى الطواف وسفيان لا يعرفه فضرب بيده على عاتقه وقال أتعرفنى قال لا ولكنك قبضت على قبضة جبار قال عظنى أبا عبدالله قال وما عملت فى ما علمت فأعظك فى ما جهلت قال فما يمنعك أن تأتينا قال ان الله نهى عنكم فقال تعالى. ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار. فمسح أبو جعفر يده به ثم التفت الى أصحابه فقال ألقينا الحب الى العلماء فلقطوا الا ما كان من سفيان فانه أعيانا فرارا (دخل اعرابى على سليمان بن عبد الملك) فقال يا أمير المؤمنين

أنى مكلمك بكلام فاحتمله ان كرهته فأن وراء ما تحب ان قبلته قال هات يا أعرابى قال أنى سأطلق لسانى بما خرست عنه الألسن من عظتك تأدية لحق الله تعالى وحق أمامتك أنه قد اكتنفك رجال اساءوا الاختيار لانفسهم فابتاعوا دنياك بدينهم ورضاك بسخط ربهم . خافوك فى الله ولم يخافوا الله فيك فهم حرب الآخرة سلم للدنيا فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه فأنهم لا يألونك خبالا . والأمانة تضييعا والأمة عسفا وخسفا وأنت مسئول عما اجترحوا وليس مسئولين عما اجترحت فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك فأن اخسر الناس صفقة يوم القيامة واعظمهم غبنا من باع آخرته بدنيا غيره قال سليمان أما أنت يا اعرابى فقد سللت لسانك وهو أحد سيفيك قال أجل يا أمير المؤمنين لك لا عليك

جعلنا الله ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ووفقنا الله للعلم مع العمل فى المبدأ والختام وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه البررة الكرام . كان الفراغ من تأليفه وترتيبه وتنقيحه وتهذيبه فى نهاية ربيع الاول سنة اثنين وأربعين بعد ثلاثمائة والف من الهجرة النبوية على صاحبها افضل الصلاة وأزكى التحية

فهرس الكتاب

٣ خطبة الكتاب
٥ الباب الأول فى الوعظ — وفيه عدة فصول
الفصل الأول فى مبادئ الوعظ والأرشاد
٩ الفصل الثانى — فى آداب الواعظ والمرشد
١٩ آدابه المستحبة
٢٣ آداب المرشد حال التأدية
٢٦ الفصل الثالث فى مصادر فن الوعظ والارشاد وهى قسمان — القسم الأول المصادر الأولية
٢٩ القسم الثانى المصادر الثانوية
٣١ الفصل الرابع فى أنواعه
٣٢ « الخامس — فى نشأته
٣٤ « السادس فى رعاية مقتضى الحال
٣٦ الباب الثانى — فى الخطابة وفيه عدة فصول
الفصل الأول — فى تعريف الخطابة وفوائدها
٤١ « الثانى — الخطابة فى الجاهلية وأسباب انتشارها ومواضعها
٤٤ الفصل الثالث — الخطابة فى صدر الاسلام وما يليه وصفة الخطيب فى عهد الاسلام
٤٧ الفصل الرابع — فى تطورات الخطابة وفيه مبحثان — المبحث الاول — فضل القرآن الكريم على اللغة العربية فى تهذيبها وتقويمها

صحيفة

٤٩ المبحث الثانى — الخطابة وسبب ارتقائها
٥٣ الفصل الخامس — فى قوانين الخطابة وهى قسمان أصول وفنون
٥٤ القسم الأول — فى أصول علم الخطابة وهى ثلاثة
الأصل الأول الايجاد أو الاختراع وفيه ثلاثة مباحث
٥٥ المبحث الأول فى الادلة وهى ثلاثة أقسام
٥٧ القسم الأول — مايبينه فى نفسه وهو الحد والتجزئة والجنس والنوع
٦٦ القسم الثانى مايبينه فى متعلقاته وهى العلة والمعلول واخواتهما
٧٠ كيفية الاستدلال بالمعلول
٧٥ القسم الثالث مايبينه بعرضه على سواه وهو المقابلة والمشابهة
٨٨ المبحث الثانى فى الآداب الخطابية وهى نوعان
٨٩ النوع الاول — آداب الخطيب النفسية وهى عشر صفات
٩٥ « الثانى — فى آداب السامعين وأخلاقهم
٩٧ المبحث الثالث — فى الأهواء
٩٨ حقيقة الاهواء وأقسامها وكيفية تحريكها فى نفس السامع
١١٨ الأصل الثانى التنسيق وفيه عدة فصول
١١٩ أقسام الخطبة
الفصل الاول فى المقدمة وفيه مباحث
١٢٠ المبحث الاول — فى حسن الافتتاح

صحيفة

١٢٨ المبحث الثاني فى بيان المقصد
١٣٠ « الثالث فى تقسم الخطاب
١٣٢ الفصل الثاني فى الاثبات وفيه مبحثان
١٣٣ لمبحث الاول ـ فى تبيان القضية
١٣٥ « الثاني ـ فى التفنيد
١٤٥ الفصل الثالث فى الختام
١٤٨ الاصل الثالث فى التعبير وفيه أمور
١٤٩ الاول التفنن وشواهده من القرآن
١٥٠ الثاني متانة الاسلوب وما جاء فيه من القران وكلام العرب
١٥٦ الثالث الاقتباس وما رخص منه فى الخطب والمواعظ
١٥٧ الرابع الفصل والوصل وحاجة الخطيب الى ذلك
١٥٨ الخامس الاداء الخطابي وما يتوقف عليه
١٦٣ القسم الثاني فى فنون الخطابة وفيه فصول
١٦٥ الفصل الاول فى القول التثبيتي وفيه مباحث
المبحث الاول فى الخطب المدحية ولها منهاجان
١٧٣ « الثاني فى الخطب التأبينية وما يراعى فيها
١٧٥ « الثالث فى خطب الشكر وما يحسن فيها
١٨٠ « الرابع فى خطب التهنئة وأهم أقسامها
١٨٣ الفصل الثالث فى القول المشوري وفيه مباحث
١٨٤ المبحث الاول فى الخطب السياسية وما يجب ان يتوفر فى الخطيب السياسى

صحيفة

١٨٦ ما يحتاج اليه الخطيب المشورى من الادلة فى الاذن والمنع

١٨٨ منع يحيى البرمكي الهادى من خلع أخيه هارون من الخلافة

١٨٩ فى مشاورة المهدى لاهل بيته فى حرب خراسان

١٩١ أخص المواطف التى يحسن بالخطيب المشورى ان يحركها

١٩٣ المبحث الثانى فى الخطب العسكرية وصفاتها

١٩٧ خطبة طارق بن زياد فى فتوح الاندلس

١٩٩ المبحث الثالث فى التحريض والتقريع

٢٠٦ « الرابع فى خطب الطلب والوصية

٢٠٩ المبحث الخامس فى التوصية والشفاعة

٢١٠ الفصل الثالث فى القول المشاجرى

٢١٣ الفصل الرابع فى خطب الوعظ

٢١٤ الخطابة واساليب الوعظ فى الصدر الاول

٢١٩ حال الخطب اليوم وما يجب ان تكون عليه

٢٢٨ الخاتمة — فى نماذج من الخطب والمواعظ فى العصور الاسلامية

خطبة أكثم بن صيفى يدعو بها قومه الى الاسلام

٢٣٠ خطبة قس بن ساعدة الايادى

٢٣٢ خطبة من خطب النبى عليه الصلاة والسلام

٢٣٣ ومن خطبه صلوات الله وسلامه عليه

وخطبته فى حجة الوداع

٢٣٧ خطبة ابى بكر رضى الله عنه لما ولى الخلافة

٢٣٨ خطبة اخرى له رضى الله عنه

صحيفة

٢٢٩ خطبته حين أسناده الخلافة الى عمر

٢٤٠ خطبة عمر رضي الله عنه لما ولى الخلافة

٢٤٢ نبذتان من خطبه رضي الله عنه

٢٤٣ خطبة عثمان رضي الله عنه لما ولى الخلافة

٢٤٤ نبذتان من خطب الامام على كرم الله وجهه

٢٤٧ وصية زياد رضي الله عنه

٢٤٨ خطبته البتراء . بالبصرة رضي الله عنه

٢٥٢ خطبة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

٢٥٣ « قطرى بن الفجاءة

٢٥٧ « المهدى

٢٦٠ « هارون الرشيد

٢٦٢ « المأمون يوم الجمعة

الخطب العصرية

٢٦٤ خطبة في التحذير من تقليد الاجانب

٢٦٨ « « « من شهادة الزور

٢٧١ « « مضار الربا

٢٧٤ « « تبرج النساء

٢٧٧ « « أمرض الرجال للنساء — نماذج المواعظ

٢٨١ مواعظ القرآن

٢٨٢ مواعظ الانبياء عليهم الصلاة والسلام

٢٨٣ مواعظ لرسول الله صلى عليه وسلم

٢٨٦ مواعظ الحكماء

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
١٦	١٣	نسائى	اسانا
٢٤	٩	عقلة	عقله
٣٠	١١	التابعين	والتابعين
٣٦	٩	الباب الثانى	« ايضاح التعريف »
٤٦	١٧	منها	منهما
٥٠	١١	ووى	دوى
٨١	٥	دينا	دنيا
١٠٩	١٤	أهمته	جمته
١١٠	١٣	حمى الوغى	حمس الوغى
١١٤	١٣	ولا	ولم
١٤٤	١٤	تبرىء	تبرؤ
١٤٥	١١	يدى	يداى
١٤٦	٦	من	مم
١٢٧	١٢	اساس	اسناسى
	١٣	ابناس	ايناسى
١٤٨	١٦	فضلاء	فضلا عن
١٤٩	٣	فيه	ما فيه
١٥٤	١٦	مأذق	مازق
١٥٨	٦	ويجيز	ويجيز به
١٦٠	٦	اللائل	اللائق
١٧٤	١٦	فعله	ماثله

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
١٨٨	٦	. . .	للنفس و هناء للعيش
١٩٧	١٥	خط	خطة
٢٠٣	١٠	. .	واضجعتم
٢١١	٣	المشورى	المشاجرى
٢٢٥	٣	ينبغى	و ينبغى
٢٤١	١١	والحباه	والحياء
٢٤٥	٢	خلقسكم	خلفكم
٢٤٩	٧	الشهواب	الشهوات
٢٥٣	٤	لا أقول	لأقول
٢٥٥	٧	مقلوب	مغلوب
٢٦١	١٦	الشمائر	المشائر
٢٨٣	١٦	بيت يتيم	بيت فيه يتيم
٢٨٤	٤	قال	قالوا
٢٨٤	١٦	ماقسمته	الا ماقسمته
٢٨٧	١٥	وصحتك	وصمتك

